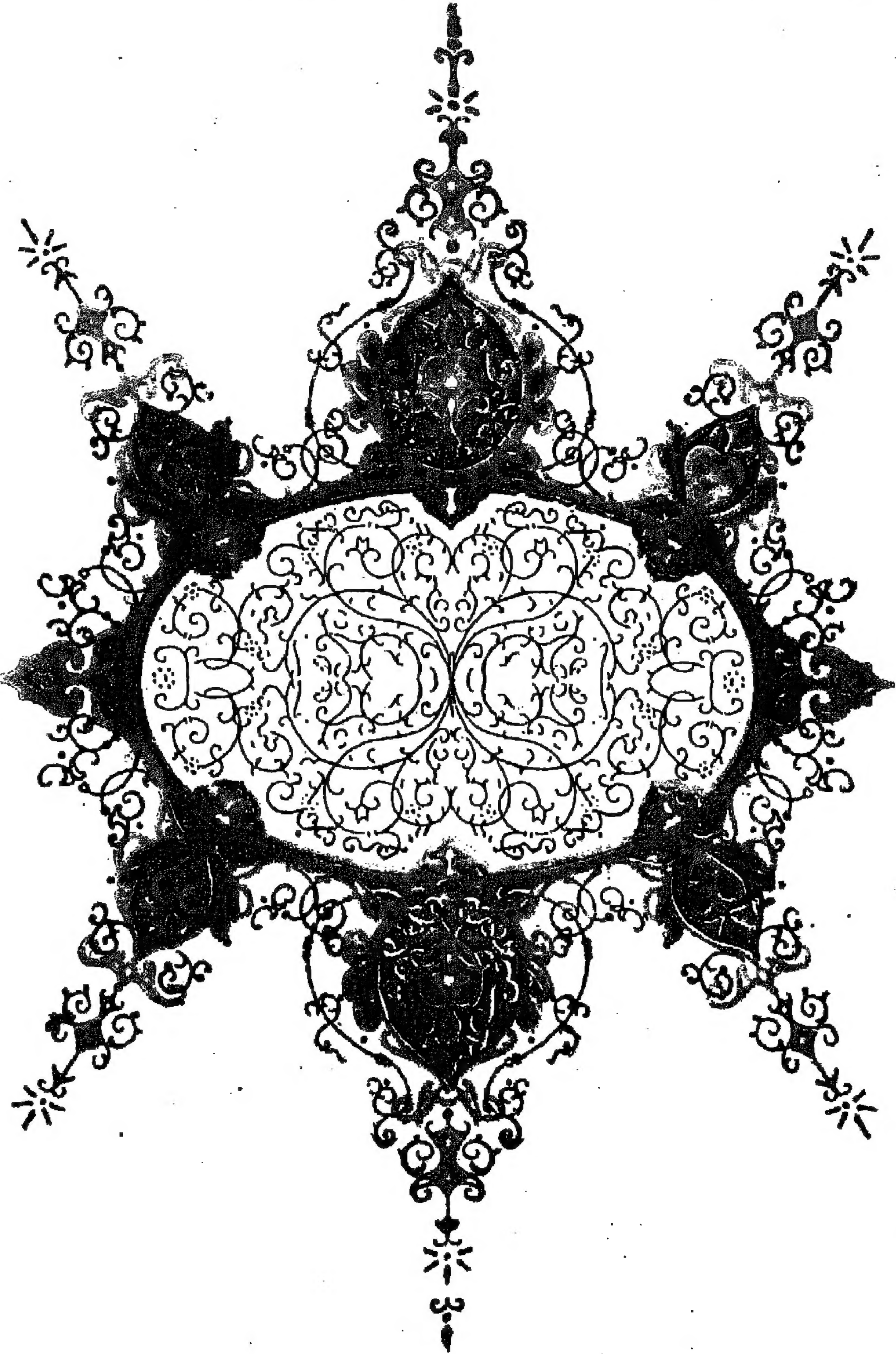


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الحادي والسبعون
جمادى الأولى ١٤١٣ هـ
نوفمبر ١٩٩٢ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ ش عزيز أباطة بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الحادى والسبعون

جمادى الاولى ١٤١٣هـ / نوفمبر سنة ١٩٩٢ م

رئيس التحرير

إبراهيم الترسى

أمين التحرير

سعد توفيق

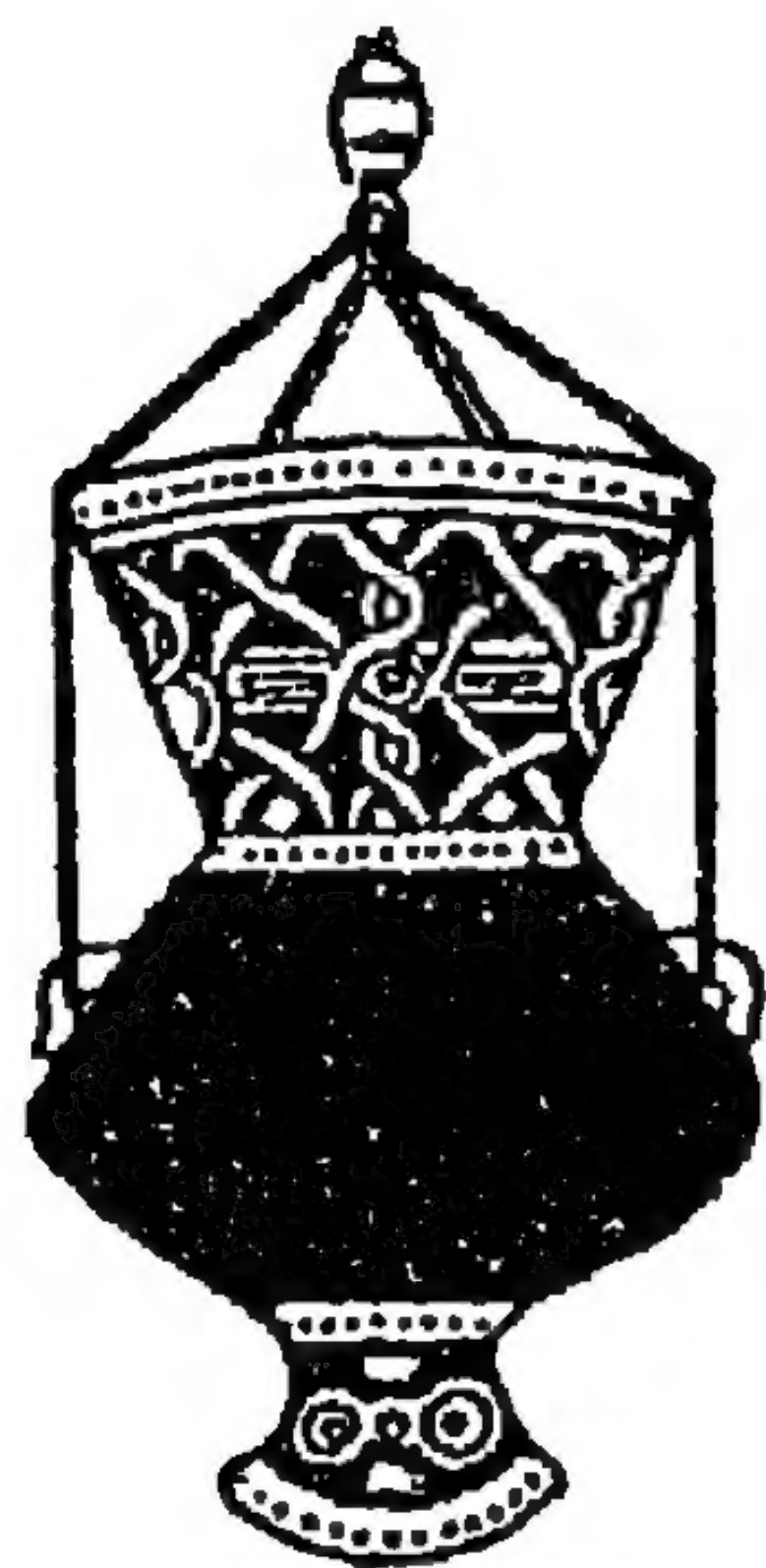
مساعدة أمين التحرير

سميرة شعلان



الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
● تأملات :		● من تجارب تعليم العربية فى إفريقيا	
لغة فى حاجة إلى قاموس	٢٩-٥	للدكتور عبد الله الطيب	
للدكتور محمد عزيز الحبابى		● خواص صوتية تمتاز بها العربية	
١٠١-٢٠		للدكتور كمال محمد بشر	٥١-٣١
● فى التركيب اللغوى		● أحاديث فى الترجمة	
للدكتور أحمد علم الدين الجندى		للدكتور مجدى وهبة	٦٦-٥٢
١٢١-٣٧		● المعارف البيولوجية فى رسائل	
● جموع التفسير والعرف اللغوى		إخون الصفا	
للدكتور محمود محمد الطناحى		للدكتور عبد الحافظ حلمى محمد	٩٩-٦٢
١٣٩-١٢			
● نظرية الحقول الدلالية :			
المعاجم المعنوية عند العرب			
للدكتور محمود جاد الرب			
٢١٣-٥٧			



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	ثانياً : التأبين		شخصيات جمعية
	- افتتاح الجلسة للدكتور إبراهيم		أولاً : الاستقبال
٢٧٦	مدكور رئيس المجمع		- كلمة الدكتور أمين على السيد
	- كلمة الدكتور أحمد السعيد سليمان		في استقبال الأستاذ عبد
٢٨٠-٢٧٧	في تأبين الدكتور محمد زكي شافعي		الكريم العزباوي عضو المجمع
٢٨١	- كلمة الأسرة		الجديد
	- كلمة الختام للدكتور إبراهيم مدكور	٢٦٧-٢٦١	
٢٨٢	رئيس المجمع	٢٧٣-٢٦٨	- كلمة الأستاذ عبد الكريم العزباوي

من تجارب تعليم العربية فى أفريقية

للدكتور عبد الله الطيب

كان من أول همى حينما كلفت الإشراف على كرسى اللغة العربية بجامعة الخرطوم سنة ١٩٥٦م أن أنشئ قسما خاصا بتعليم اللغة العربية للجنوبيين من قطرنا ، يمكنهم من نيل الإجازة الجامعية فيها ثم التخصص من بعد . وقد وجدت الفكرة ضروبا من قبول ومعارضة . أما القبول فلأن الدافع القومى الوطنى كان يدعو إلى أن تكون لغة البلاد واحدة ، فكان أن تبادر الجامعة بعمل نافع فى هذا المجال مما يعين على الاستجابة لهذا الدافع القومى الوطنى . وأما المعارضة فلأن كثيراً من الأساتذة كانوا يكرهون أن تنزل الجامعة بمستواها الرفيع إلى تعليم المبتدئين ، وكان من هؤلاء أجنبى ماخلوا من بعض التعصب على العربية واشتتام ربح هبوب عاصفة إسلامية من تلقائها .

وكان مما صحح العزم عندى على المضى فى ما هممت به والدفاع الشديد

عنه تجربتان سابقتان . التجربة الأولى كانت فى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن حيث شهدت أساليب الاستشراق فى تعليم العربية لمن لم يسبق لأكثرهم عهد بها قبل الالتحاق بالجامعة ، أساليب دراسة مكثفة تعتمد على التحصيل الجاد المتتابع الدوب . وقد عملت محاضرا عام ١٩٥٠م بالمعهد وشاركت فى تدريس طلبة الإجازة الجامعية كما شاركت فى تدريس المنهج المبسط الذى كان متاح لقئة من الدبلوماسيين ورجال الحرية البريطانيين الذين كان يراد منهم أن يعملوا فى الشرق الأوسط . وقد نقل هذا المنهج المبسط بأسره من بعد إلى لبنان وعرف باسم "منهج شمالن" وهى البلدة اللبنانية التى أقيم بها معهد ذلك المنهج . وكان فى النادى الملكى المصرى بلندن معهد صغير لتدريس مبادئ العربية يذل فيه جهد حسن ، فكانت بعض قطعه المبسطة

المطبوعة مما استعين به أو قيس عليه فى بعض ما أعدده منهج شمالان .

والتجربة الثانية كانت فى معهد التربية ببخت الرضا بالسودان ، وهذا معهد أقيم لتدريب مدرسى المدارس الأولية والوسطى وإعداد مناهجها فى بلدة الدويم الواقعة على الشاطئ الأيسر من النيل الأبيض على بعد نحو من مائتى كيلو متر جنوبى الخرطوم . وقد كانت انتقلت للعمل به فى سنة ١٩٥١م وعهد إلى فيه الإشراف على مناهج العربية للمدارس الوسطى فى بلادنا وتدريب المدرسين لهذا الغرض .

أذكر بهذه المناسبة أن منهج اللغة العربية للإقليم الشمالى فى بلادنا واحد ، إذ اللغة العربية فيه هى لغة الحضارة والدين والنشاط الاجتماعى والتجارى والإدارى جميعه . وما زال الأم منذ الدهر القديم الذى لا نعلم مبدأه ، حقا أن الإقليم الأوسط من بلادنا لا يعرف لغة غير العربية ، وأن الأقاليم المحيطة به جميعها لها لغات غير العربية ولكن

الأطراف الشمالية والشرقية والغربية من بلادنا جميعها مسلمة ، دخل الإسلام بعضها فى المئة الأولى من الهجرة ، فكان أبنائها يتعلمون العربية من طريق المشافهة للمداولات اليومية فى البيع والشراء ونحو ذلك من ضروب النشاط الاجتماعى ويتعلمون الكتابة والنحو والإنشاء فى المدارس وكانوا فى الماضى يتلقون ذلك فى خلاوى القرآن . فكان لهؤلاء لغتان : العربية بنوعيتها الدارج والفصحى ، ولغتهم المحلية التى يجعلونها لسانا خاصا بينهم وربما نسيها بعضهم أو تناساها .

أمر الجنوب كان مختلفا . فقد كان فى جملته معزولاً عن الإقليم الشمالى عزلا تاما إلى زمان قريب . بعض هذا العزل كان منشؤه وعورة المسالك إليه مما جعل تاريخ بلادنا القديم لا تتجاوز حدود توسعه الخط الثانى عشر من خطوط العرض الشمالية ، وأكثر هذا العزل فى هذا القرن كان مرده إلى سياسة مقصودة متعمدة من جانب الاستعمار

اختطها حاكم السودان العام السير لى ستاك " Sir Lee Stack " سنة ١٩٢٢م عرفت فيما بعد بسياسة الإقليم المغلق "Closed District" وقد استمرت هذه السياسة معمولاً بها إلى أن جعل الضغط الوطنى القومى يشتد فى سنوات الأربعين والخمسين . وكان التعليم فى الجنوب طوال أيام أمدها موكولاً إلى الجمعيات التبشيرية المسيحية . وقد قسم الإقليم الجنوبى إلى مقاطعات جعل لكل جمعية من هذه الجمعيات جزء مقسوم من أجل درء التنافس بينها . وقد كان الإسلام مصدوداً أن يكون له أدنى نصيب فى مثل هذا التقسيم . وكانت الجمعيات التبشيرية قد اخترعت للغات الجنوب الكثيرة المختلفة حروفا لتدرس بها ترجمات من الإنجيل . وكانت الحروف موضوعة على نظام الحرف اللاتينى . وكان يراد اللغة الإنجليزية أن تكون هى اللغة المشتركة بين المثقفين من أهل الجنوب وألا يكون للعربية ، وهى مفتاح الإسلام بالجنوب مكان .

وكان نوع من العربية ذو عجمة إفريقية المعدن فى الألفاظ والتراكيب قد نفذ إلى أعماق غابات الجنوب فاستعملته قبائله المختلفات اللغات للتفاهم فى اللقاءات التى كانت تفرضها عليها ظروف التجارة والمصاهرة والصلح بعد الحروب القبلية وغير ذلك من أصناف وجوه نشاط حياة المجتمعات البشرية . ولم يكن فى وسع الإنجليزية أن تنفى هذا اللسان العربى الأفريقى المشترك بين القبائل أو تحل محله لأنها إنما كانت لغة المثقفين وحدهم ، وكان أكثر أهل الجنوب عن الثقافة العصرية التى جاء بها الاستعمار . بمعزل بعيد .

تقرر فى أوائل سنوات الخمسين فرض تعليم اللغة العربية على جميع مدارس الجنوب ، استجابة للضغط السياسى القومى الوطنى . ولكن كانت تحول دون تنفيذ القرار عقبات كثيرة ، بعضها راجع إلى قلة من أعد للقيام بهذه المهمة من المدرسين ، وبعضها راجع إلى محاربة خفية وظاهرة لهذا القرار من جانب هيئات التبشير .

فى سنة ١٩٥٢م كلفت كتابة تقرير
عن تعليم العربية للجنوبيين وقد زرت
الجنوب من أجل هذا الغرض واطلعت
على بعض عمل التدريس فى جوبا ولوكا
وياى ومريدى ومندرى ورمبيك ، وهذه
الأخيرة كانت مدرسة البنين الثانوية
الوحيدة فى الجنوب . وكتبت تقريراً
اقترحت فيه أن يكون تعليم اللغة العربية
على مراحل تكون أوائلها محلية الطابع ،
بسيطة المستوى ، ويستمر أمد ذلك نحو
من خمسة عشر عاماً ، وفى المرحلة
الأخيرة يجلس طالب الفصل النهائى فى
المدرسة الثانوية الجنوبية لنفس الامتحان
الذى يجلس له مواطنه فى الشمال .

واقترحت مع ذلك أن توفد أعداد من
معلمى المدارس بالجنوب ليدربوا فى بخت
الرضا تدريباً يؤهلهم للنهوض بأمر
العربية شيئاً فشيئاً فى إقليمهم . وقد
لقى التقرير قبولا من المسؤولين . وبعث
أول فوج صغير من المعلمين الجنوبيين
للتدريب فى بخت الرضا فى سنة ١٩٥٣م
وكان وعد البداية فى هذا العمل وعدا

حسناً . غير أنه صحبت بداية الحكم
الذاتى الأولى بداية الاضطرابات الدموية
فى الجنوب . ثم ما كاد الأمر يستقر
حيناً من بعد حتى يتبعه اضطراب .
فوقفت هذه البداية الحسنة ، غير أن تقدم
العربية وانتشارها لم يقف بالرغم من
هذه الاضطرابات .

وأعود بك بعد إلى ماكنت قدمته من
أمر استفادتي من تجربتي لندن وبخت
الرضا حين عمدت إلى إنشاء قسم خاص
لتعليم الجنوبيين العربية وتمكينهم من نيل
إجازة جامعية فيها بجامعة الخرطوم .
وقد ذكرت أن الفكرة واجهتها أول الأمر
معارضة ولكنها أجازتها مجالس الجامعة
آخر الأمر . ووضعت لها منهاجاً ينظر فى
جملته نظراً شديداً إلى المنهج المتبع فى
معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن
وكان مما دعا إلى هذا النظر :

أولاً ما كان من صلة قوية بين جامعة
الخرطوم الناشئة وجامعة لندن . ذلك بأن
جامعة الخرطوم استقلت فى يولية سنة
١٩٥٦م . وكانت قبل استقلالها تعرف

باسم كلية الخرطوم الجامعية وكانت من سنة ١٩٥١م تابعة لجامعة لندن على النحو الذى كان معفولا به فى كثير من جامعات إفريقية مثل إبادان بنيجريا ومكريرى فى شرق إفريقية .

وثانيا الحاجة إلى الاستفادة من تجربة الاستشراق العلمية فى هذا المجال من حيث طرق تدرجها ومؤلفاتها اللاحقة بهذا التدرج والمستويات التى تبلغ بواسطته .

ومما استفدته من تجربة الاستشراق الاستعانة بالترجمة . وبعض العاملين فى مجال تعليم اللغات الآن ربما نفروا من استعمال الترجمة فى التعليم . وأحسب هذا وهما . ذلك بأن المشافهة هى بلا شك أجود وسائل تعليم الكلام وهى التى يتعلم بها الأطفال اللغة من الوالدين والمحيط الذى حولهم . ولكن المشافهة الطبيعية تعسر محاكاتها فى ظروف التعليم النظامى المتعمد . ثم لابد من بداية يبدأ بها هى ، لمن تأمل ، فى حكم الترجمة . الصور التى يستعان بها مثلا

ما هى إلا ضرب من الترجمة . ثم لعل الترجمة أن تكون أقرب إلى طبيعة الأمور من الصور . فى الترجمة مأخذ لابد من الإشارة إليه وقد تنبه له الجاحظ من قبل . وهى أن اللغات فى ذات نفسها لها حيوية ويغير بعضها على بعض . فاستعمال الإنجليزية مثلا فى تعليم العربية له بعض التأثير السلبي بلا ريب . ولكن لابد من بداية على أية حال كما قدمنا . ويمكن الاستغناء عن الترجمة بعد تجاوز المبدئيات الأولى . وعيب طريقة الاستشراق أنها لا تتخلى عن الترجمة - وذلك أنها قد بنيت من أساسها على اعتبار اللغة العربية لغة غير حية . فالأرب المقصود لدى الاستشراق هو إعادة إحياء مادتها للاستفادة بها من طريق الترجمة . هذا العيب المستمر فى طريقة الاستشراق قد روعى فى طريقتنا تجنبه وذلك من طريق تزويد الطالب بمختارات نصوص جيدة معاصرة تشهد بحيوية اللغة وأنها عصرية مستعملة - هذا مع العناية بالنصوص القديمة الماثورة التى

هى نماذج فى جودة البيان والفصاحة مع الدلالة الحضارية الراسخة ، مأخوذة من القرآن والحديث وشعر العرب الأولين ومأثورات أمثالهم .

ثم مع النصصوص رأينا ضرورة العناية بتعليم الإنشاء وهذا مهمل فى منهج الاستشراق لما قدمنا من افتراضه أن العربية لغة ميتة وأن غاية ما يبغيه منها فهم المعانى وترجمتها إلى لغته الحية لاغير . على أن بعض الاستشراق قد أدركه التنبيه بأخرة إلى أن اللغة العربية كما هى لسان حضارة قديمة عريقة إنسانية الشمول ، هى أيضا اللسان الحى المعاصر المعبر عن واقع المسلمين والشعوب العربية .

هذا ، وقد كان الإقبال على القسم الخاص بادئ الرأي ضئيلا وكاد يدعو ذلك إلى الاستيئاس وكأنما قد قوطع مقاطعة سياسية صارمة إذ لم يلتحق به غير طالب جنوبي واحد (هو الأستاذ أروب يور) وطالبة وافدة من زنجبار (هى الأستاذة زينب برهان) . وقد

صبرا على سنوات الدرس الأربع وثابرا ونجحا ، وصارا قدوة حسنة ، على بطء فى ذلك ، لطلبة من الجنوب التحقوا بالقسم من بعدهما وبرز بعضهم فى درس العربية تبرزيا مشجعاً . وقد ازداد الإقبال على القسم من بعد ، وقصده طلبة من خارج السودان ، جاءوا أول الأمر من نيجريا الشمالية ، ثم من نيجريا الجنوبية ثم من الأقطار المجاورة كإرتريا والصومال ثم من شتى أقطار العالم منتسبين وملتحقين من أوروبا وآسيا وأمريكا . ودعت الحاجة إلى وضع دروس محدودة المدى للمنتسبين وإقامة صلات علمية من أجل هذا الغرض مع جامعات من نيجريا وغيرها . كما أضيف إلى المنهج القديم منهج للدراسة العالية ينتهى بامتحان كتابى منصوص فيه على تقديم أطروحة بالعربية ، وكانت جزءاً لا يتجزأ من الامتحان . وممن جلس لهذا الامتحان ونال شهادة الأستاذية به من جامعة الخرطوم (M.A.) البروفسور محمد ثانى زهر الدين الذى هو الآن رئيس

قسم الدراسات الإسلامية بجامعة باييرو بمدينة كنو بنيجريا ومن أبرز رجالاتها والبروفسور أبو بكر بلارابي رئيس قسم اللغة العربية بها .

وقد اقْتُبِسَتْ فكرة إنشاء معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها التابع لهيئة "السُّكُو" الذي بمدينة الخرطوم من فكرة قسمنا الخاص بجامعة الخرطوم الذي قد تقدم ذكره ، وكان الوزير الذي قام بالخطوة العملية في هذا الباب الدكتور محمد خير عثمان وزير التربية في جمهورية السودان الديمقراطية سنة ١٩٧٣م وهو نفسه من خريجى بخت الرضا وجامعة الخرطوم ، وقد كَوَّنَ لجنة خماسية تولى هو رئاستها وقامت بزيارة لمصر ولبنان وسورية والعراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات والمملكة العربية السعودية لإطلاع المسئولين على فكرة المعهد والتماس المعونة منهم ، وقد وجد كل ذلك قبولا وتشجيعاً ، وكنت أنا والأستاذ أروب يور أول خريج جنوبي من القسم الخاص عضوين في هذه اللجنة

ومستشارين . وقد نشأ المعهد من بعد ، غير أنه انصرف به شيئاً عن منهاج الوصايا التي تقدمنا بها إذ داخلته روح من التدويل والسياسة المنافسة لجامعة الخرطوم ، ولقد كان ينبغي أن يُجعل المعهد منذ بدايته تابعاً لجامعة الخرطوم ومكملاً لعمل القسم الخاص ، وأحسب أن المسئولين الآن قد أخذوا يتنبهون إلى ضرورة تصحيح هذا الخطأ ، إذ لا تكفى سعة النفقة المدولة والرعاية السياسية لهذا المعهد أن تجعله ذا تأهيل علمي مقبولا حقاً ، ولا بد في ذلك من ربط عمل المعهد بالرقابة الجامعية الشاملة وبالمستويات الجامعية ذوات التأهيل المعروف المقبول .

ولقد أنشأت هيئة اليونسكو من قبل معهداً عالياً لتدريب المعلمين بمدينة أم درمان على نهج دبلوماسية كائنه قد كان النموذج والقنوة من بعد لمعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها . غير أن وزارة التربية بالسودان تداركت من قبل أن يقع ماوقع من بعد في أمر المعهد من الخطأ

الأكاديمي ، بسعيها الحثيث إذ جعلت
معهد المعلمين ذا انتماء إلى جامعة
الخرطوم ، ثم قد استوعب فيها سنة
١٩٧٤ م باسم كلية التربية .

أمل أن يقع مثل هذا الإجراء
بالنسبة لمعهد اللغة العربية .

هذا ، وفي سنة ١٩٥٨م أقيمت ندوة
بجامعة إبادان بالولاية الجنوبية الغربية
من نيجريا عن الثقافة العربية
والإسلامية. وكانت نيجريا آنئذ تحت
الحكم البريطاني ، وكانت إبادان هي
الكلية الجامعية ثم من بعد هي الجامعة
الوحيدة في نيجريا كلها ، فكان المؤتمر
المنعقد بها لهذا الغرض ذا أهمية بالغة .

لم تكن اللغة العربية مقررة في
التعليم النظامي في الإقليمين الجنوبيين
من نيجريا . وكانت الثقافة المسيحية
غالبة عليهما غير أنه كان في إقليم شعب
اليوربا الغربي نسبة عالية من المسلمين .
أما الشمال فكان إقليما مسلما ذا
إمارات إسلامية قديمة وتاريخ عريق
وصلات واشجة مع شمال إفريقية المسلم

ومصر وبلاد المشرق . وكانت فيه مدارس
إسلامية قرآنية قديمة وعلماء أجلة لهم
تأليف حسان ، ومن هؤلاء لا تزال توجد
بقية صالحة مثل وزير سكتو المعلم جنيدي
وقد سمعت منه أبياتا نظمها في رحلة
ارتحلها إلى مدينة الخرطوم مع السردونة
أحمد بلو رئيس وزراء الإقليم الشمالي
الشهيد رحمه الله تعالى ، قال فيها :

يا مَنْ يُصْعَدُ أنفاساً بأنفاسٍ
شوقاً لخرطوم ذات الورد والآسِ
صَبْرًا قليلًا فإنَّ سوف تحملنا
رَعَادَةً في الهوا مملومة الرأسِ
طيَّارة تتبارى في تجاوزها
شُهَب السماء التي ترمى بأقباسِ
تُعْطى الدُّخانَ وتَنْتَهِى عن تعاملنا
به عليها وهذا خلفُ مقياسِ

ومنهم الشيخ ناصر كباره بمدينة
كنو ، وله مجلس يحضره تلاميذه بأيديهم
الصحف والألواح فيسألونه في الأدب
والنحو وعلوم التفسير والدين فيجيب
ويكتب من شاء ما شاء ، ويقرأون فيشرح
الصعب ويصحح الخطأ وقد حضرت

مجلسه وسمعتہ یشرح أسائل سألہ عن
بيت الشواهد وهو لجرير الشاعر :

والتَّغْلِييُونَ بِئْسَ الْفَحْلُ فَحْلُهُمْ
فَحْلًا وَأُمُّهُمْ زَلَاءٌ مِنْطِيقُ

هذا ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٤م في
مدينة كنو مدرسة لتعليم العربية والعلوم
الإسلامية على نهج حديث ، واستُقدم
لإنشائها أساتذة ومشايخ من السودان
فقاموا بما عُهد إليهم من ذلك خير قيام
وتخرج على أيديهم جيل من رجال كفاة .
وقد بُعثَ بعض هؤلاء سنة ١٩٥٤م إلى
معهد التربية ببخت الرضا لينالوا مزيداً
من التدريب في طرق التدريس ومناهجه .

من هؤلاء من صاروا من بعد قادة فكر
ورجال دولة مرموقين في بلادهم . من
هؤلاء مثلاً الشيخ أبو بكر محمود قمي
الذي كان قاضي قضاة الإقليم الشمالي
كله أيام الرئيس السردونة أحمد بلو
رحمه الله ثم قد ترجم معاني القرآن
ترجمة حسنة إلى لغة هوسا وقد منح
جائزة الملك فيصل العالمية منذ ثلاثة

أعوام لما بذله من جهد عظيم في العمل
الديني والدعوة الإسلامية . ومنهم قاضي
القضاة الآن بولاية كنو الدكتور حسن
إبراهيم غورزو* . وله تأليف جيد عن
الشيخ عبد الكريم المغيلي المغربي وتأثيره
على سلطنة كنو في الزمان القديم
أطلعني عليه وينبغي أن ينشر . ومنهم
الدكتور شيخو أحمد سعيد غلدنشي ،
سفير دولة نيجيريا الآن بالملكة العربية
السعودية وكان رئيساً لجامعة سكتو
وتولى إنشائها وثلاثتهم كان لهم أعظم
الأثر في النهوض بكلية عبد الله بایيرو
وتأسيسها وهي التي صارت الآن جامعة
بایيرو بمدينة كنو .

وقد مهد المؤتمر الذي أقيم بجامعة
إبادان سنة ١٩٥٨م لقيام شعبة العربية
بجامعة إبادان سنة ١٩٦٧م ثم اتَّألبُ
بَعْدَ ذلك إنشاء أقسام للغة العربية
بالجامعات الجديدة التي نشأت في أقطار
نيجيريا وكان مما مهد به ذلك المؤتمر أنه
نبه على وجود مجهود كبير تطوَّع

* توفي رحمه الله منذ أسابيع هذا العام وكان قاضي القضاة بمدينة كنو .

جهادى كان يقوم به بعض المشايخ المسلمين فى إبادان ولاغوس مكافحين مناضلين فى سبيل الإسلام ولغة القرآن بالرغم مما كان يواجههم من تعصب الإرساليات ومعاكسات الحكم الأجنبى وصنائعه الموالين له . كان من هؤلاء المعلم خرشى الثانى رحمه الله تعالى . ولم أدر أذلك لقب كان له أو اسم سسمى به، وكلا الوجهين جائز ، وخرشى الأول ، الذى سسمى هو أو لقب باسمه ، شارح مختصر خليل ، كتاب الفقه المالكى الجامع ، المقدم بين متون الفقه المالكى على كل متن . كانت لخرشى الثانى رحمه الله مدرسة فى ناحية سوق إبادان يقصدها الصغار فيعلمهم القرآن ومبادئ العربية . وكان يعينه بعض الشبان من المدرسين النظاميين بمدارس الحكومة فى غير علوم العربية يتطوعون بدروس إضافية فى ما بعد أوقات الدروس النظامية . ثم لما قبلت الحكومة أن تدخل علوم الدين ولكن بغير اللغة العربية كان القائمون بهذه الدروس

يتعاونون مع المعلم خرشى الثانى رحمه الله كل التعاون .

وكان بناحية لاغوس للحاج آدم عبد الله الإلورى نشاط عظيم . وقد أثمر مجهوده المخلص المتواصل ومجهود المعلم خرشى الثانى رحمه الله وفضلاء آخرين من مسلمى بلاد «يوروبا» وعلماء «إلورين» المدينة المسلمة فى أقصى جنوب الإقليم الشمالى قريبة الجوار من منطقة إبادان ، فأقر آخر الأمر إدخال ذرء من العربية مع علوم الدين فى مدارس الإقليم الجنوبى الغربى . وبعد قيام المؤتمر الثانى بإبادان سنة ١٩٦٤م تمهد الطريق إلى إنشاء نواة قسم اللغة العربية فى جامعة إبادان ثم تم إنشاء هذا من بعد كما قد تقدم من ذكر ذلك .

وقد حضرت هذا المؤتمر الثانى وشاركت فيه مع زملاء لى حضروا هذه المرة من كلية اللغة العربية والعلوم الإسلامية التى تم إنشاؤها بمدينة كنو وكانت فى مبدأ أمرها جزءاً من الجامعة الشمالية الجديدة التى أنشئت باسم

جامعة أحمد بلو Ahmadu Bello University بمدينة زاريا الواقعة على بعد مائتى كيلو متر جنوبى مدينة كنو .

مدينة زاريا قديمة التاريخ كانت نعرف باسم زَكْزَكُ وقد يقال زَوَزُو والنسبة إليها زكزكى ، ويذكر أنها كانت أولى ولايات بلاد هوسا السبع القديمت اهتماماً بطلب العلوم . وفيها مسجد عتيق ، بديع العمارة مع أن بناءه من اللِّين وخشب الدوم ، فيه عقود محكمات الصنع ، شديدات الشبه بعقود الجامع الكبير بدمشق ، كأنما جعله بناء هذا المسجد نموذجاً ، وعلماء العمارة المعاصرون قد صنفوا هذا المسجد فى مؤلفاتهم ونهبوا على حسنه وإتقانه ، وفى كتاب إنفاق الميسور ، للسلطان المؤرخ العالم الشاعر ، السلطان محمد بلو بن شيخو عثمان بن فودى صاحب الجهاد المعروف ما يشهد بكثرة الكتب التى كانت تدرس فى «زكزك» = الاسم الحديث هو زاريا كما تقدم ذكره على أن النسبة

إليها مازالت تحتفظ فى لسان هوسا باللفظ القديم فيقال هو زكزكى أى من زاريا .

وقد فطن الاستعمار والتبشير لمكان مدينة زاريا فى التعليم الإسلامى العربى . فأنشأ قرية إرسالية بالقرب منها صارت خلية لأقلية مسيحية نالت ثقافة غربية وشغل بعض رجالها مناصب هامة مثل الدكتور «إسايا أودو» الذى تولى رئاسة جامعة أحمد بلو سنة ١٩٦٦م ثم صار من بعد فى حكومة شيخو شقوى وزيراً للخارجية ومثل يعقوبو قاوان الذى تولى رئاسة حكومة نيجيريا من سنة ١٩٦٧م إلى سنة ١٩٧٤م .

كان الرئيس أحمد بلو السَّرْدُونَةُ (١) رحمه الله يريد أن تنشأ كلية جامعية هوساوية إسلامية تحمل اسمه فى مدينة كنو ، المدينة الإسلامية الكبرى فى غرب إفريقيا على وجه الإطلاق ، وتكون من بعد هى الجامعة العصرية التى يتثقف فيها أبناء قومه ويضطلعون بمسئوليات

(١) السَّرْدُونَةُ لقب كائنه تحريف من سر الدولة وكان من ألقاب الإمارة فى بلاد هوسا .

عصرهم الحديث . كان رحمه الله يريد أن يخرج قومه من حال تخلفهم الريفي الرعوى البسيط حتى لا يغلبهم على السيادة في قطرهم أبناء الجنوب المسيحي الذين نالوا حظاً من تعليم الغرب وتقدمه المادى على أيدي الاستعمار والتبشير .

واحتجزت الكلية الجامعية المزمع إنشاؤها مساحة تبلغ ثلاثمائة وخمسين فداناً في موقع رحب قابل لمزيد من التوسع بالجانب الجنوبي خارج سور مدينة كنو . ووضع الحجر الأساسى في حفل عظيم . ثم إنه مالبث أن دب خلاف سياسى حاد بين السردونة رحمه الله وبين الأمير السنوسى ، أمير كنو السابق. وانتهى الخلاف آخر الأمر باستقالة الأمير السنوسى ، ويُذكر أنه قبل استقالته أول ما دب الخلاف بينه وبين السردونة ، وبعث بأناس اقتلعوا حجر الأساس ووقف سير العمل الذى كان تقرر بدؤه من قبل ببناء الكلية حيث اختير لها الموقع .

ووجد التدبير الاستعماري التبشيري فرصته المناسبة . فاقترح تحويل إقامة الجامعة من كنو إلى ضاحية بالقرب من زاريا كانت قد أنشئت فيها مدارس للفنون وبعض الصنائع والأعمال الهندسية . وكان جل الطلبة في هذه المدارس من المسيحيين . وكانت في زاريا نفسها مدرسة للإدارة فجعلت هذه المدارس جميعاً نواة للجامعة الجديدة وسميت باسم أحمد بلو وترك الموقع الأول وأهملت الفكرة الأولى شيئاً ما غير أن الحكمة السياسية اقتضت ألا يكون هذا الإهمال كاملاً ونهائياً . فأُوْثِرَ - من أجل استرضاء أهل كنو وأميرها الجديد أدو باييرو وهو أخو الأمير السابق ، وسائر الرأى العام في بلاد هوسا - أن تقوم كلية للدراسات العربية والإسلامية تحمل اسم الأمير عبد الله باييرو رحمه الله ، والد الأميرين السابق والحاضر وهو الذى أنشئت في زمانه وبتيديره مدرسة العلوم العربية في كنو سنة ١٩٣٤م كما تقدم ذكره .

على أنه لم يكن واضحاً ما المراد من إنشاء هذه الكلية ، إذ مستوى التحصيل فى مدرسة العلوم العربية كان ، وما يزال إلى يومنا هذا ، حقاً رفيعاً ، وقد تمكن عدد من خريجها بناء على ما حصلوه فيها من نيل الشهادات العالية فى الخارج ، من أوروبا ومن مصر مثلاً . فلماذا لم تُرَفَّعْ هى إلى مستوى جامعى كما رُفِّعت الكليات التى سبقت إنشاء جامعة أحمد بلو بزاريا على سبيل المثال .

تساءلت فى نفسى بهذا السؤال لما عرض على مدير جامعة أحمد بلو ، بروفيسور نورمان الإسكندر « فيما بعد سير نورمان إلخ » وظيفة عميد كلية عبد الله باييرو لأتولى إنشاءها . وما كان خافياً على أن ترشيحى قد كان من قبل النيجيريين الشماليين أنفسهم إذ كانت لى بهم صلات فى ميدان التعليم واشجة . واشترطت أن أزور الموقع قبل قبول العمل فيه . وعلمت من السيد الوزير آنئذ الحاج عيسى كيتا وممن اتصلوا بى واتصلت بهم من القائمين بتعليم العربية

فى بلاد هوسا على رأسهم الحاج حسين آدم الذى كان مفتش العربية بالوزارة والأستاذان شيخو أحمد سعيد غلدنشى وحسن إبراهيم غورزو وهذان كانا على رأس مدرسة العلوم العربية بكنو - أنهم إنما يريدون إنشاء جامعة هوساوية إسلامية حقاً ، وأن الجامعة التى فى زاريا كائنما الغالب عليها الآن طابع غير إسلامى . وأنهم لا يريدون الكلية الجديدة أن تكون امتداداً لمدرسة العلوم العربية أو شيئاً منافساً لها ، وإنما يريدونها لتكون مؤسسة تهيب المسلمين دون غيرهم فى هذه الفترة للتأهيل الجامعى حتى يستطيع المسلمون بنيجيريا أن يلحقوا بغير المسلمين ومن دون أن يزاحمهم هؤلاء بمستويات التقدم العصرى المنشودة .

وقد أدركت منذ البداية أن إدارة جامعة أحمد بلو لم تكن جادة حقاً فى أن تجعل من كلية عبد الله باييرو أكثر من ظاهرة اسمية فرعية . ومما أكد ذلك عندى عدول البروفيسور نورمان الإسكندر

عن الموقع القديم الواسع واختياره موقعاً صغيراً كانت فيه مؤسسات ومساكن ومخازن تحتاج إزالتها إلى إجراءات قضائية وتقدير تعويضات وما أشبهه ، وكل ذلك كان لابد معه من مرور زمن ربما امتد إلى عدة سنوات . وقيل فى تبرير هذا التغيير أنه متفق مع الخطة المعمارية الكبيرة التى كانت تعد لتطوير مدينة كنو فى مدى خمسين عاماً . ولكنَّ الأرب الخفى المخبوء ما كان إلا تأجيل إنشاء كلية عبد الله باييرو . وكانت قد استعير لها مقر مؤقت فى جانب من فندق مطار كنو . فتنقل بعد ذلك من موضع مؤقت إلى آخر مؤقت حتى إذا طال تأجيل الإنشاء طويلاً مؤسفاً جىء بالحل العملى الحاسم وهو نقل الكلية كلها إلى منطقة الجامعة بزاريا لتكون فيها قسماً صغيراً للدراسات العربية والإسلامية ، متحفى الصبغة جانبياً «مُهمَّشاً» فى كيان جامعة علمانية جديدة كبيرة مشربة فى جملتها بالروح الأوربى المادى التقدمى المسيحى المعدن التبشيرى النُرعة . وتبقى بعد ذلك مدرسة

العلوم العربية بكنو كما كانت تسد بعض الحاجة إلى أن يدعى داعى التطور العصرى آخر المطاف إلى نوع من الاستغناء عنها أو التجميد لها والتخميد لجذوتها .

ما كان نحو هذا التدبير الخفى المخبوء كله منبعثاً من مكر سيىء متعمد مقصود كما كان منبعثاً أكثره من الجهل كل الجهل من جانب القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم فى التدريس الذين قدموا معهم من إبادان أو استقدموا من وراء البحار بحقيقة حضارة الإسلام وحيوية اللغة العربية وعمق تغلغل حبها فى نفوس أهل نيجيريا المسلمين . إنما كانت تجربة أولئك القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم تجربة استغمارية مسيحية عنصرية تبشيرية إقليمية المذهب الجامعى الإدارى « الأكاديمى » ، لم تنعَقْ فى طبيعة إقليميتها من أصول نشأتها فى مجمع إبادان الجامعى ذى الوضع الممتاز الأفرنجى التصميم الغربى الرفاهية وسط الكيان الإفريقى البائس الصارخ البؤس المحيط به .

من عجائب هذه الطبيعة الإقليمية
أنى لما قدمت إلى الموضع المؤقت الذى
اختير لكلية باييرو فى فندق مطار كئو
وجدت أن جميع الموظفين الصغار فيه إلى
المحاسب والكاتب وأن جميع العمال
المهرة وغير المهرة من الطباخ إلى الغسال
والكناس قد جىء بهم من أقصى قرى
الجنوب بنيجيريا بناحية مصب نهر
النيجر وشطآن خليج بيافرا . ومدينة كئو
نفسها كثيرة السكان عظيمة العمران
فيها من المديرين على صغيرات الوظائف
المكتبية ومن العمال ذوى المهارة وغيرهم
عدد عظيم قريب المنازل قليل التكاليف
مسلمون أشبه بروح المؤسسة الإسلامية
الجديدة من هذا الجلب المسيحى الغريب
الديار .

كان القائمون بإدارة جامعة زاريا
بقبولهم فكرة إنشاء كلية عبد الله باييرو
للعلوم العربية والدراسات الإسلامية إنما
أرادوا فقط أن ينصاعوا أول الأمر
للسردونة إذ لم يعجبه فى تدبيره
السياسى أن يُعدّل عن فكرة إنشاء هذه

الكلية بمدينة كئو كل العدول ، ثم يكسبوا
الزمن من بعد .

ما كنت لأساير سياسة هذا الأرب
المخبوء على أيما وجه من الوجوه .
فكانت الحكمة تقتضى ألا أقبل الانتداب
من جامعة الخرطوم لهذا المنصب الذى
عُرضَ علىّ ، وكسدت أمضى على هذا
الرأى . ولكنى عداننى عنه ، على حزمه
وصوابه ، الالتماس الصادق الملح من
إخوانى الهوسا ممثلين فى الزملاء الذين
ذكرتهم وآخرين من العلية والرؤساء فى
كئو وكدونا وسكتو . فصح عزمى آخر
الأمر على أن أقدم على تتميم العمل الذى
بدأه من قبل مواطنى من الأساتذة
والمشايخ السودانيين فى مدرسة العلوم
العربية .

ولقد حرصت على كسب الثقة من
جانب مدرسة العلوم العربية منذ البداية
فالتمسست انتداب ناظرها ثم وكيه الذى
صار ناظراً لها بعده ليقوما بدور قيادى
فى عمل الكلية الجديدة الأكاديمى
والإدارى وهما الأستاذ شيخو أحمد

سعيد، غلشنى والأستاذ حسن إبراهيم غورزو . كما حرصت على أن يدخل فى صميم تكوين مجلس الكلية الذى يتولى الإشراف على إدارتها وإعداد مناهجها عدد من خريجي مدرسة العلوم العربية الذين صارت لهم مناصب عالية فى المجالين التعليمى والدينى فدخل فى المجلس مفتش العربية الأستاذ حسين آدم ورئيس القضاة ونائبه الأستاذان أبو بكر محمود قمي وخضر بنجى ومع هؤلاء ممثلون آخرون من مدرسة العلوم العربية نفسها من القائمين بالتدريس فيها .

وقد بدأ العمل بإعداد خطة التدبير العلمى وكانت القوة العددية الإسلامية فى المجلس كفيلة بإجازة أهم الخطوات الأوليات فى هذا الصدد . وكان جلياً منذ أول الشروع فى إجراءات التدبير العلمى أن قلة الطلبة المسجلين للإجازة الجامعية فى الآداب (B.A.) مع ضعف أكثرهم فى مادة اللغة العربية إذ جاءوا من المدارس الثانوية الجديدة القليلة فى الإقليم الشمالى الأفرنجية المناهج والمدرسين ،

نقص يجب تلافيه حتى تستطيع الكلية أن تنهض بواجبها الثقافى المؤمل لها حق النهوض ويكون فى ذلك استمرار وتكميل صحيح لعمل مدرسة العلوم العربية .

كان الأستاذ حسين آدم وهو مفتش بوزارة التربية فى الإقليم الشمالى قد قام من قبل بإحصائية لطلبة المدارس القرآنية والمعاهد الدينية فكانوا أكثر من ربع مليون . أقر المجلس أن يعقد امتحان لاختيار نخبة من هذا العدد ، نهيئهم فى مدى عامين بدراسة مكثفة ليجلسوا لامتحان خاص معادل فى جملته لمستوى القبول فى كلية الآداب وكليات العلوم الإنسانية بالجامعة . وكانت إجازة مجلس الأساتذة الكبير بالجامعة نفسها لهذا القرار فى المرحلة البدائية الأولى قبل أن تظهر المعارضة المخبوءة لنا عن أنيابها الحداد . فحمدنا الله على ذلك وكانت خطوة هامة ونصراً فى البداية عظيماً . وكان فيما أجزى من هذا القرار أن الذين يصلون إلى مستوى من التحصيل حسن فى هذه الدراسة المكثفة ولكنه دون معادلة

القبول فى كلية الآداب وكلّيات العلوم
الإنسانية ، يعد لهم برنامج تدريب مهنى
فى تعليم العربية فيزاد من هذا الوجه
عدد المدرسين ذوى المستوى الجيد
الصالحين للعمل فى المدارس الثانوية .

بدأ العمل بالفعل فى تهيئة هذه
المدرسة الإعدادية المعتمدة على اجتذاب
طلبتها من مدارس القرآن والمعاهد
الدينية وكان من ضمن البرنامج المكثف
دروس فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية
وفى التاريخ والجغرافيا . وكانت تلك أول
مرة (فى سنة ١٩٦٤م) تدخل فيها
الفرنسية فى برنامج جامعى بنيجيريا .
وكنّت أفدت من تجربتي بجامعة الخرطوم
أن دخول الفرنسية فى منهج التدريس
يحد من شهوة تفرد الإنجليزية بدعوى
التقدم ويعطى العربية مجالاً . وكما قدمت
فإن التباير واليتنافس بين اللغات حقيقة لا
ريب فيها . فدخول الفرنسية فى المجال
الذى تكون فيه الإنجليزية متفردة بالقوة
ينفع العربية كما أن دخول الإنجليزية فى
المجال الذى تكون فيه الفرنسية متفردة

بالقوة ينفع العربية أيضاً . وإنما اللغات
تعبير عن نفوس البشر . وقديماً قال
الشاعر :

إِنَّمَا أَنفُسُ الْأُنَاسِ سَبَاقُ
يَتَفَارِسُنَ جَهْرَةً وَاعْتِيَالاً
مَنْ أَطَاقَ التَّمَّاسَ شَيْءٌ غَلَاباً
وَاعْتَصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاً
كُنْ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الْغَضَنَفَرُ الرَّبَّالاً

أقبل طلبة المدرسة الإعدادية الذين
اخترناهم بعد الامتحان ، من المدارس
الدينية ، بإقبال شديد على الدروس
المكثفة واجتاز أكثرهم امتحان القبول
الجامعى نفسه فى ظرف عام واحد .
فأذن ذلك بنهاية المدرسة الإعدادية مع
كونه قد كان لما أملناه من طلبة المدارس
القرآنية والمعاهد الدينية نجاحاً باهراً .
ولقد تعددت فرص التعليم الجامعى من
بعد فى داخل نيجيريا وخارجها لطلبة
المدارس الدينية ، فكأن ذلك قد أغنى عن
الاستمرار فى برنامج المدرسة الإعدادية .
على أننى ما زلت أعتقد ضرورة

الاستفادة من التعليم القديم وربطه
بمجارى التعليم الجامعى الحديث . ذلك
لأن التعليم القديم له أساليب من دقة
التحصيل وجودته لا تُبْلَغُ إلا من طريقه
هو ، فالمحافظة عليه وعليها واجبة .
والانتفاع بها لكيما تكون دعماً وجذوراً
لتعليمنا الحديث هو أيضاً واجب . وإلا
فإننا سنبنى من تعليمنا الحديث صروحاً
على أساس من رمل هائر . ولقد حرصت
فى جامعة الخرطوم أن أجد سبيلاً
لخريجى المعهد العلمى الدينى ليلتحقوا
بكلية الآداب وأصبحت فى ذلك معارضة
شديدة . وقد أمكن آخر الأمر أخذ أعداد
منهم فى الدراسة العالية فكان لبعض
ذلك نفع ونجاح لا ريب فيه . أحد الذين
التحقوا بالدراسة العالية بجامعة
الخرطوم الدكتور حسن الفاتح قريب الله
الذى صار من بعد مديراً للجامعة
الإسلامية بأم درمان ، ومنهم الأستاذ
الدكتور بابكر البدوى دشن الذى هو
الآن أستاذ مرموق بجامعة المدينة .

ولما فتحت الحكومة المصرية بالتماس

قوى من السردونة أحمد بلو رئيس وزراء
نيجيريا الشمالية وزعيم حزبها الحاكم ،
رحمه الله تعالى ، مكتباً ثقافياً بمدينة
كنو وأوفدت ثلاثة من المشايخ الأزهريين
على رأسهم الشيخ محمد الراوى ، من
أجل الوعظ والتنوير ، رأيت لزماً أن
نسارع بالانتفاع بهم فى الكلية وليقع فى
نفوس طلبتها الجامعيين منذ البداية
معنى الربط بين منهجهم العصرى
الحديث وجذور حضارتهم التى يمثلها
علم الأزهر وفضله ممثلاً فى الشيخ
محمد الراوى وزملائه . ولقد عمدت إلى
نوع شبيه بهذه التجربة فى جامعة
الخرطوم من بعد ، إذ عهدنا بدروس
القراءات والتجويد إلى شيخ متخصص
فيها من علماء القراءات هو الشيخ محمد
محمد سالم محيسن ، فكان لذلك من
التأثير العميق الحميد معنى عظيم .

لا أشك أن مزيداً من التوفر على
الربط بين دراستنا الجامعية العصرية
وأساليب علومنا القرآنية الدينية القديمة
سيكون عظيم المنفعة ، هادياً إلى التحرر

من التبعية الفكرية . ولا أغلو إن حسبت أنه ينبغي أن يدرج فى برامج الدراسات العالية طلب تحصيل الأسانيد فى الحديث وغيره من العلوم من مظانها القليلة الباقية عند بعض المشايخ الأجلة فى شتى أقطار الإسلام ، وأن يكون هذا التحصيل نفسه بحسب مقدار جودته كافياً لنيل شهادات الدراسات العالية من أستاذية صفرى (M.A.) أو كبرى (Ph.D.) . وهذا بعد باب لا يتسع المجال لتحليله وتفصيله ها هنا .

من أوائل ما برز من أنياب المعارضة لنشأة كلية عبد الله باييرو محاولات فجأة لإغلاقها . بدأت بعرض فرص للرحلة والدراسة فى الخارج لأحد الطلبة فلم يقبلها وقبل راشداً نصيحتنا له بذلك . ثم تلت محاولة لنقل الطلبة كلهم ليدرسوا فى مؤسسات وراء البحار لمدة عام فأبى مجلس الكلية ذلك كل الإباء . ثم جىء بهدية ضخمة من الكتب لتكون أساساً لمكتبة الطلبة ، كلها تبشيرية الروح خالية كل الخلو من معلنى الإسلام ومن بينها

معجم فسرت فيه كلمة العذراء بأنها أم الإله المتجسد . فما كان دون رفضها وردها من سبيل .

ثم دخلت أنا وزملائى فى معركة مصير للكلية شديدة النضال لم تخل من عنف وليس ها هنا موضع تفصيل ذلك . وقد كتب لكلية عبد الله باييرو بحمد الله النصر ويتوفيق منه جل جلاله عظيم . وكانت إعادة الكلية لموقعها الأول ذى المساحة الرحبة الواسعة العتيدة للعمل فى أسرع وقت فاتحة هذا النصر ورمزه الواضح . وفى أول يوليصة سنة ١٩٦٦م أقيم حفل بداية بناء أولى عمارات الكلية التى خطت لتؤوى أولى مكاتبها وقاعاتها ثم تكون من بعد مركزاً لخزانة كتبها . ودعانى المهندسون لأضع أول خطة من الأساس ، وتلى الكتاب العزيز للتبرك . وكان قلم السردونة رحمه الله الأخضر قد جرى يأمر بالعودة إلى الموقع القديم فى أخريات سنة ١٩٦٥م واغتيل شهيداً رحمه الله فى الانقلاب الذى وقع فى ١٥ من يناير سنة ١٩٦٦م بعد أسابيع قليلة

من الأمر الذى أمر به . ووقعت من بعد ذلك بمدة قصيرة محاولة لنقل الكلية إلى زاريا وكأنَّ خَيْلَ لبعضهم أن هذا ممكن ميسور بعد أن خلا الإقليم الشمالى من شخصية السردونة القوية وسلطانها النافذ ولكنها محاولة أُحبطت وكان لاتحاد طلبة كلية عبد الله باييرو فى إحباطها نصيب وافر . كان رئيس اتحاد الطلبة آنئذ داندتى عسبد القادر الذى هو الآن البروفسور داندتى عبد القادر ورئيس جامعة باييرو .

دعانى البروفيسور داندتى وجامعة باييرو « وعدد من أساتذتها كانوا تلاميذ لى » إلى كنو لأشهد حفل التخرج وليمنحونى شهادة الدكتوراه الفخرية وكان ذلك فى ١٣ من شهر فبراير سنة ١٩٨٨ م . سرنى حين شهدت الحشد الضخم من الخريجين والخريجات فقد صارت كلية عبد الله باييرو الآن جامعة كبيرة مكتملة الكليات من علمية وإنسانية ومهنية متنوعة ضروب الدراسة ، وقد اتسعت كلية الآداب نفسها وكثرت

أقسامها وارتفعت مستويات الدراسة والتحصيل فيها - وقد جاوز عدد الطلبة فى الجامعة عشرة آلاف - هكذا تطورت كلية عبد الله باييرو بعد تلك البداية المتعثرة ، ومازالت محتفظة بطابع أساسها الأول الذى قام على العربية وعلوم الإسلام ، ومازالت صلتها واشجة بمدرسة العلوم العربية ورصيفاتها اللاتى أنشئن على غرارها فى مدن بلاد هوسا ، من طريق كلية التربية والدراسات العالية فى اللغات والشريعة والقانون .

لقيت الأستاذ حسين آدم الذى كان من مؤسسى كلية عبد الله باييرو فى سنوات الستين حينما كان هو مفتشاً للغة العربية وحينما كانت الكلية ضِعْثاً مَخْشِياً عليه أن يتبدد . جاء ليشهد تخرج ابنة له من كلية الطب .

كان تشریفاً لى أن كُفِّتُ إلقاء خطبة قبول شهادة الدكتوراه الفخرية أصالة عن نفسى ونيابة عن الزعيم الإفريقى نلسون مانديلا الذى ناب عنه مندوب من حركة التحرير التى كان يقودها . أما هو

نفسه فقد كان أنثذ فى غيابات السجن
بجنوب إفريقية . وهو الآن ، كما لا يخفى
قد خلص من ظلماته ليتألق فى آفاق
التحرر من سيطرة العدوان العنصرى
البغيض .

من المناسب هنا أن أشير إلى قول
الله سبحانه وتعالى : " إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا " « الآية ١٣ / الحجرت » . وقوله
تعالى : " ومن الجبال جدد بيض وحمر
مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس
والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ،
إنما يخشى الله من عباده العلماء " «
الآيتان ٢٧ ، ٢٨ / فاطر » وإلى الحديث
الشريف « لا فضل لعربى على أعجمى
إلا بالتقوى » ليس فى علوم الأمم كلها
ولا فى حكمتها ولا فى مآثور أقوال
فلاسفتها ما يضارع النصوص الواضحة
المدلول الناصعة البيان فى معانى العدالة
والمساواة . الحمد لله على ما هدانا إليه
من الصراط المستقيم .

من بعدُ مرت على تجارب فى تعليم

العربية وحضارة الإسلام لم تخرج فى
جملتها عن نطاق ما قدمته فى أغراضها
ومناهجها . من ذلك مثلاً المركز الإسلامى
الإفريقى بالخرطوم . ومن ذلك مثلاً أنه
وصلتنى دعوة كريمة من مجموعة طيبة
من مواطنى ممن كانوا طلبة لى من قبلُ
لأشارك فى مؤتمر أقيم بمناسبة المولد
النبوى فى مقاطعة « أورانج ستيت »
(Orange State) بأمريكا ، فكان من خير
ما شهدته مجهود جماعة من المسلمين
هناك يحفظون أبنائهم الصغار كتاب الله
حفظاً متقناً فسمعت منهم من كانت سنه
تسعاً ومن كانت سنه إحدى عشرة ومن
كانت سنه ثلاث عشرة يقرأون عن ظهر
قلب قراءة تجويد وإتقان . وكان من
أعجب ما شهدته مدرسة صغيرة يشرف
عليها أستاذ من سودان أمريكا درس
العربية فأتقنها ، عظيم الإخلاص متوقد
الذكاء ، عنده صغار من بنين وبنات كلهم
دون العاشرة يقرأون العربية والنحو .
فحضرت درساً كان يلقيه عليهم أستاذ
نيجيرى يرباوى « أى من ناحية إقليم

إبادان وما حولها « فى النحو أداره حول الحديث الشريف » لا تسبوا الدهر فإننى أنا الدهر بيدى الليل والنهار » - فكان يشرح لهم أن الليل والنهار مبتدأ مؤخر ومعطوف عليه وأن الجار والمجرور خبر مقدم وهم ينصتون ويفهمون ، لم أشك فى ذلك . ذكرنى صنيعة صنيع المعلم خرشى الثانى رحمه الله إذ رأيت قبل نحو من ربع قرن وتلاميذه الصغار ، كلهم دون العاشرة يتلون بترنيم : " ألم نشرح لك صدرك " .

صدق الله جل من قائل إذ يقول :
"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب
والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون"
«التوبة / ١,٥» .

أهم الدوافع التى تدفع إلى تعلم العربية ثلاثة ، أولها الدافع الدينى إيجاباً وسلباً، نعننى بالدافع السلبى ما تراد به محاربة الإسلام من وراء دراسة لغته وحضارته ، أما الإيجابى فهو الذى يدفع سائر المسلمين من عرب وغيرهم إلى تعلم

القرآن والحديث وعلوم اللسان . وثانيها الدافع القومى ، عند العرب المسلمين خاصة ، كأنما هو فرع من الدافع الدينى الإيجابى . هكذا كان الشأن إلى زمان قريب ، غير أنه فى هذه الأيام يريد قوم باسم الحداثة أن يفصلوا بين جانبى الأدب والدين فصلاً ، يعرضون به عن الدين إعراضاً ، وهذا اتجاه خاطيء كما سنبين من بعد إن شاء الله تعالى . وغير المسلمين من العرب يدفعهم إلى تعلم العربية الإلف والدافع القومى كما لا يخفى ، وثالثها الدافع الإنسانى ويلحق به اللون الرومنسى الذى دفع كثيراً من الأوربيين والأمريكيين إلى تعلم العربية ، على أن هذا كان ربما خالطه نوع سالب، تبشيري الطبيعة أو استعماريها .

وقد كان المستشرقون طوال القرن التاسع عشر ، ولا تزال من مذهبهم بقية باقية ، يتعلمون العربية ليحاربوا بها الإسلام ، وربما تكلفوا الرحلة فى بلاد المسلمين وفى جزيرة العرب من أجل هذا الغرض . وقد خلف الاستشراق القديم

استشراق حديث بعضه لا يخلو من
تعاطف ومودة وكثيرٌ منه فيه نظر . وأنفع
شيء للمسلمين في هذا المضمار أن
يكونوا أبدأً متيقِّظين .

والعربية جوانب أربعة : قديم وحديث
وفصيح ودارج « أو عامي » . القديم
أساس وفي أساليب تعليمه القديمة دقة
وبركة لما فيها من المشافهة التي تصحح
النطق والإملاء الذي تصح به الكتابة
ويُجَوِّد فيه الخط والحفظ الذي يربى
الذوق ويقوى ملكة اللغة ، والإسناد الذي
يوثق الأصول ويشحذ شفرة النقد
والتواضع للشيوخ الذي تُعمِّق به روح
التعلم وفي البدء بالقرآن البركة .

وفي العالم الإسلامي الآن ازدواجية
غرسها الاستعمار بمكايده وزادها تغلغلاً
شعور المثقفين بالنقص إزاء تفوق العالم
الغربي المسيحي في الصناعات والمهارة
الحربية والعلوم العصرية والتمرد
الاقتصادي . وقد نشأ من هذه
الازدواجية صنفان من التعليم ؛ تعليم
علماني هو الذي تقوم عليه أكثر

الجامعات ، وتعليم ديني أخذ هو نفسه
يتجه في الأيام الأخيرة اتجاهاً مُشرباً
بالعلمانية . وقد أن لنا أن نسعى بجد
للتخلص من هذه الازدواجية وذلك بأن
نستوعب جيل المشايخ وطريقة درسه
القديمة في جامعاتنا ومدارسنا الحديثة
وقد رت الإشارة إلى بعض ما مر بنا
من مبادئ التجربة وحمدناه في هذا
الصدد .

كانت العربية لسان الحضارة في
العالم الإسلامي كله ، وأقطاره متعددة
الأقاليم مختلفة ضروب التجارب البشرية
 وأنواع النبات والحيوان والطبيعة في
التربة والمعادن والمناخ وغير ذلك - وقد
صنف المسلمون فيها من أولى العلم
والحذق والدراية كثيراً بالعربية كل في
باب حذقه ودرايته وعلمه ، هذا عدا ما
صنف في الفقه والأدب وعلوم الدين من
تفسير وحديث وعقيدة وأصول . فدرس
العربية وإتقان علوم لسانها القديمة هو
الوسيلة التي لا يوجد غيرها إلى تحصيل
ما في ودائع هذه الكنوز لنستفيد به الآن

فى شئون دنيانا وسبل الاستعداد للعمل الصالح لأخرتنا . لذلك صرّف النظر عن القديم باسم الحداثة خطأ بالغ ، ومن عجب الأمر أن الإفرنج قد تنبهوا إلى ما فى مخطوطات كتب المسلمين العربية فى شتى أقطارهم من كنوز . فتراهم يفدون الآن إلى بلاد غرب إفريقية مثلاً ليحصلوا على ما كتب به علماءها فى نباتاتها وحيواناتها وتربيتها وعاداتها مع ما كتبوه من الدين واجتهدوا فيه من مسائل الفقه . فمن ذلك ما ينتفعون به فى تدبير التجارب العلمية ومنه ما ينتفعون به فى الدروس الاجتماعية والعلوم الإنسانية . ونحن يالأسف باسم الحداثة عن جميع ذلك غافلون .

والحداثة تتمثل فى لغة الإعلام والصحافة كما تتمثل فى لغة الكلام المشتركة بين المثقفين فى بلاد العرب . والدارجة شىء غير الحداثة . لأن اللغات الدارجة مع قوة صلتها بالأصل الفصحى تختلف بين الأقطار العربية المختلفة ولا بد لمن يقيم فى قطر عربى من معرفة لسانه

الدارج من أجل الكلام والمعاملة اليومية . وليست محاولة محو الألسن الدارجة نيل اللسان الإعلامى محلها برأى صائب . أولاً لما فى ذلك من العسر المدانى الاستحالة وثانياً لأن الألسن الدارجة كل منها محتفظ بمادة من أصالة العربية القديمة هى مما يعين على تذوق الأصول القديمة وفهمها . مثلاً كلمة «السليط» بمعنى الزيت وهى فى شعر امرئ القيس تعتبر من الغريب وهذا اللفظ مألوف دائر فى لسان اليمن . وصيغة المبني للمجهول ما زالت تستعمل فى دارجتنا فى السودان . وإن الاطلاع الجيد على القديم فى أصوله ومراجعته ومعالجته مما يعين على كشف ضروب من الاستعمال والتراكيب التى فى اللغة الدارجة فى أقطار العربية . وهذا أمر لا تخفى أهميته .

هذا وفى لغة الإعلام والصحافة المعاصرة ركافة وهجنة مما جره الجهل بالنحو والجرأة على استمرار الجهل به بنوع من شعوبية جديدة لا تخلو من

مناوأة للإسلام نفسه ، والتقليد الأعمى للمستويات الدنيا من صحافة الغرب . على أن هذه الهجنة والركاكة مما تستطيع إزالته قريباً إن شاء الله . والإعلام والصحافة على ركاكتهما وهجنتهما ، أو قل على ما فى كثير منهما من هجنة وركاكة ، لابد لطالب العربية من معرفتهما والاهتمام بهما لأنهما طريقا الإخبار والتواصل بأحوال العالم العربى والإسلامى المعاصر . ولا ريب أن الحرص على معرفتهما والاهتمام بهما من جانب طلاب العربية الجادين فى تحصيلها مما يعين على رفع مستوى الإعلام والصحافة ورفع الهجنة والركاكة عنهما إن شاء الله تعالى .

وفى الحداثة المعاصرة بُعدُ اتجاهات جادة يبلغ بعضها مبلغ التجويد الرفيع كما فى أدب مصطفى صادق الرافعى والزيات والمازنى والعقاد وطه حسين وعبد الوهاب عزام والمنفلوطى وعدد من رجال

الجيل الماضى القريب ، ومن الجيل المعاصر من نيلت بعملهم فى باب القصص جائزة نوبل وجائزة الملك فيصل العالمية فنحو هذا مما تنبغى معرفته ودرسه .

ومن النقص الذى يحسن منذ الآن الدأبُ على تلافيه أمر الكتب الملائمة للمبتدئين صغاراً وكباراً ولاسيما المسلمين منهم ، وهذا باب واسع يحتاج إلى أفراد ورقه خاصة به . وأكتفى ها هنا الآن بالتنبيه على ضرورة القيام بإحصاء وحصر لما قد سبق نشره فى هذا الباب مما نُفِدتْ طبعاته وما لم تَنفَدْ ، فعسى مثل هذا الحصر أن يعين على فتح باب إلى حل هذه المشكلة وتلافى هذا النقص . ونسأل الله العون والتوفيق إنه قريب سميع مجيب وله الحمد أولاً وآخراً سبحانه وتعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان

خواص صوتية تمتاز بها اللغة العربية

للدكتور كمال بشر

لكل لغة سماتها ومميزاتها الخاصة بها ، ويستوى فى ذلك أن تكون هذه الخواص صوتية أو صرفية أو نحوية أو أسلوبية أو على مستوى الألفاظ ودلالاتها . ومن البديهي أن تكون هذه السمات هى جملة الفروق بين لغة وأخرى ، وأن تكون الأساس الذى ينبنى عليه تحديد اللغات والحكم على هوية كل واحدة منها ، وإعطاؤها اسما خاصا بها تنفرد به وينبىء عنها فى كل الحالات .

وليست العربية بدعا فى ذلك ، فلها ملامحها وظواهرها التى مازتها من غيرها اللغات ، وجعلتها لغة ذات ضوابط وحدود معينة أهلتها للتسمية المعروفة بها منذ أزمان بعيدة ، وهى اللغة العربية . وسمات عربيتنا هذه كثيرة كثرة فائقة ، هى - فى الحق - جملة القواعد والقوانين الضابطة لها ولاستعمالاتها ، ولسنا بقادرين - فى هذا المقام ونحوه - على

أن نأتى بهذه القواعد والقوانين كلها أو جلّها ، ومن ثم سوف نكتفى هنا بإيراد أمثلة قليلة لشئ من هذه السمات والخصائص التى تنفرد أو تكاد تنفرد بها العربية ، إما لأنها خاصة بها ومقصورة عليها ، وإما لأنها تشيع أو توظف فيها توظيفا يجرى على وفق نظم ثابتة مطردة ، تجعل هذا الشيوع وذاك التوظيف ملمحا مميزا للغة العربية . أضف إلى ذلك أن الأمثلة التى سقناها هنا محصورة فى الجانب الصوتى المميز للغتنا .

فأول ذلك أن اللغة العربية استخدمت جهاز النطق عند الإنسان خير استخدام وأعدله . فقد جاءت أصوات هذه اللغة موزعة على مدارج النطق توزيعا واسعا شاملا لكل نقاطه ومواضعه . فمن بداية هذا الجهاز - ونعنى بذلك الحنجرة - جاءت الهمزة والهاء ، ومن نهايته - وتتمثل فى الشفتين - جاءت الباء والميم .

ومن بين هاتين المدرجتين خرجت بقية الأصوات العربية مندرجة في شبه سلسلة متصلة الحلقات ، بحيث لا يقع ازدحام في منطقة أو مناطق ، ولا يحدث إهمال لبعضها . فهناك بعد الحنجرة ، يقع الحلق ومنه العين والحاء ، ثم اللهاة ومنها القاف ثم أقصى الحنك ومنه الغين والحاء والكاف والواو ، ثم وسطه ومنه الياء . وهكذا من نقطة إلى أخرى تخرج أصوات معينة ، دون تجاوز لمبدأ التدرج المنتظم الخالى من ظاهرة التجمع عند منطقة وترك أخرى دون استغلال .

نحن لا ننكر أن جهاز النطق عند الإنسان لا يختلف في جملته أو تفصيله من أمة إلى أخرى ، أو من فرد إلى آخر ، ما لم يكن به عيب خلقى عند هذا أو ذاك ، إنما الفرق بين الأمم في هذا المجال يرجع إلى طريق توظيف هذا الجهاز واستغلاله . وأسلوب هذا التوظيف وطريق هذا الاستغلال يؤديان حتما إلى فروق صوتية مميزة ، تختلف في القلة والكثرة والصفة بحسب الأحوال . على

أن التفاوت بين اللغات في استغلال جهاز النطق لا يعنى أن لغة ما أفضل من أخرى ، إذ إن مسألة الأفضلية هذه مسألة نسبية ، إذ ربما يتدخل فيها الذوق الشخصى والنظر غير العلمى أحيانا . ولكن مما لا شك فيه أن نتائج الاختلاف فى توظيف هذا الجهاز فى النطق يؤدى - بالضرورة - إلى حصيلة من الملامح الصوتية التى تمتاز بها اللغات بعضها من بعض ، وهذا ما قصدنا إلى إثباته فى هذا المجال .

ويرتبط بهذا التوظيف لجهاز النطق فى العربية أمور أخرى تضاف إلى جملة الخواص الصوتية للغة العربية .

من ذلك مثلا أن جملة كبيرة من أصوات هذه اللغة يقع بعضها من بعض موقع التقابل أو التناظر . فهناك نلمح أن بعض الأصوات تصدر عن مخرج نطقى واحد ، ولكنها - على الرغم من اشتراكها فى هذه الدائرة - تختلف فيما بينها بسمه أو بأخرى يجعل كل واحد منها صوتا مستقلا ، له دور فى تركيب

المقطع أو الكلمة وفى دلالة هذه الكلمة ووظيفتها .

فالهمزة والهاء منطقتهما النطقية واحدة ، ولكن يختص كل واحد من الصوتين بلمح ينفرد به ، يؤهله للاستقلال والكيان الخاص ، فالهمزة وقفة انفجارية ، أو صوت شديد فى اصطلاحهم فى القديم ، والهاء احتكاكى أو رخو ، ومن ثم سار كل صوت فى طريقه يؤدى دوره فى اللغة ، فلدينا مثلا «آب» و «هآب» . افترقت الكلمتان وصار لكل منهما معنى مستقل بسبب وجود الهمزة فى الكلمة الأولى والهاء فى الثانية.

وهناك أيضا العين والحاء وهما جميعا من منطقة الحلق ، ويتفقان أيضا فى كيفية مرور الهواء عند النطق بهما ، ولكن العين صوت تذبذب الأوتار الصوتية عند نطقه ، والحاء لا تحدث معهذببة من أى نوع ، فكان الأول مجهورا والثانى مهموسا . وهذه السمة فرقتهما بينهما ورشحت كلا منهما للاستقلال ،

بدليل أننا نقول : «عَور» و «حَوْر» بمعنيين مختلفين تماما ، وذلك - كما هو واضح - إنما يرجع إلى وجود العين فى الأولى والحاء فى الثانية . ومثل هذا الذى نقول ينطبق بتمامة على الذال و الثاء : فهما مما بين الأسنان واحتكاكيان ، ولكن الذال مجهور والثاء مهموس ، ومن ثم كان الفرق فى نحو : «ذآب» و «ثآب» بمعنيين مستقلين .

وهذا مثال آخر يشرح صفة التقابل هذه بين أصوات العربية : التاء والطاء مثلا صوتان يتفقان فى المخرج وفى صفته الوقف والانفجار والهمس ، ولكن عملية فسيولوجية معينة تحدث عند النطق بالطاء فتجعلها صوتا مفخما ، وهذا التفخيم له دور ووظيفة ، إذ هو الملمح الوحيد الذى يميز الطاء من التاء ، ويمنح هذه الطاء كيانا خاصا تستطيع أن تؤدى وظيفة لغوية تختلف عن تلك التى للتاء : قارن « طآب » و « نآب » : كلمتان مستقلتان بمعنيين مختلفين ، بسبب وجود الطاء المفخمة فى الكلمة الأولى والتاء المرققة فى الثانية .

ربما يوجد ما يشبه هذا التناظر أو التقابل فى أصوات بعض اللغات كما يتمثل ذلك فى الصوتين الأولين من الكلمتين : box و pox فى اللغة الإنجليزية ولكن من المهم أن ندرك أن هذا التقابل لا يجرى على سنن مطرد فى تكوين الكلمات وبنيتها ، فهو إن وجد يكون ذلك فى كلمتين أو كلمات معدودات دون أن يتخذ مسارا أو اتجاهها مستقرا يؤهله لأن يكون قاعدة أو ما يشبه أن يكون كذلك .

وخاصة أخرى ترتبط بأسلوب توزيع الأصوات على مدارج النطق فى العربية : تتمثل هذه الخاصة فى نظام هذا التوزيع ، بحيث تجئ الأصوات المؤلفة للكلمة منسجمة متناسقة خالية من الثقل : ليس بينها تنافر يؤذى السمع أو عدم انسجام يفقدها حلاوة النغم وحسن التلقى والقبول .

ولقد أدرك علماء العربية هذه الخاصة فى لغتهم ، استطاعوا بفكرهم الثاقب ونظرهم الدقيق أن يضعوا ما يشبه أن يكون قواعد صوتية لما ينبغى أن يكون

عليه تأليف الكلمة من أصوات ، أخذوا بنظام توزيع أصوات لغتهم على مدارج النطق ونظام التناسق والانسجام بين هذه الأصوات .

لقد قرروا أن العربية تتجنب جمع الزاى مع الظاء والسين والضاد والذال ، وجمع الجيم مع القاف والطاء والطاء والعين والضاد ، وجمع الحاء مع الهاء ووقوع الهاء قبل العين ، والحاء قبل الهاء ، إلى آخر ما قرروا فى هذا الباب على ما هو معروف للدارسين .

وقد أشار ابن جنى إلى شئ من هذا فى خصائصه ، فيقول : « أما إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب فى بعض الأصول المتصورة أو المستعملة فأكثره متروك للاستثقال ، وبقية ملحقة به ومقفاة على أثره . فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو : سمس وصس ووطت ووط ووش وشنش ، لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه ، وكذلك قج وجق وكق وقك وكج وجك . وكذلك حروف الحلق هى من الائتلاف

أبعد لتقارب مخارجها من معظم الحروف ، أعنى حروف الفم . وإن جُمع بين اثنين منها يقدم الأقوى على الأضعف نحو أهل وأحد وأخ وعهد ، وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما إلا بتقديم الأقوى منهما .

وهناك بالعربية أصوات ثقل أو يندر وجودها في كثير من اللغات المعروفة لنا في الشرق والغرب على سواء . من ذلك مثلا الهمزة المعروفة لنا في التراث بـهمزة القطع ، (١) ، كما في الصوت الأول من نحو « أحمد » و « أعرف » و « أعلام » مثلا ، فهذه الهمزة ليس لها وجود في كثير من اللغات الأوربية وغيرها وهي إن وجدت في بعض صور الكلام وأساليبه ، كما في لهجة « لندن » مثلاً ، ليست تعدل أو تتساوى مع الصوت العربى في كل وجوهه وخصائصه : إن الوجود في لهجة « لندن » هذه ليس همزا حقيقا ، إنما هو

نوع من « التهميز » أو هو منح النطق سمة من سمات الهمزة ، وليست له قيمة الهمزة العربية من حيث كونه عنصرا في تكوين الكلمة ودلالاتها ، إن هذا الصوت « اللندنى » لا يعدو أن يكون ظاهرة نطقية بحتة ، وليس وحدة صوتية مميزة ، ذات وظيفة في التفريق بين المعانى أو تحديد القيم الصرفية والنحوية للكلمة . وعلى العكس من ذلك كله تتمتع همزتنا باستقلال وكيان صوتى ودلالى معا .

وهناك في العربية كذلك صوت القاف الذى يندر أن تجد له نظيرا فيما نعرف من لغات ، باستثناء الساميات التى تعد العربية واحدة منها ، كما هو معروف . وإذا اضطر من تخطو لغته منها إلى نطقها حولها إلى صوت الكاف أو ما أشبهه ، حتى إنك لتسمع هذا النطق الخاطئ ذاته في نطق غير المثقفين من العرب أنفسهم عندما يحاولون استخدام كلمة فصيحة بعينها في كلامهم اللهجى العادى .

(١) الهمزة (اسمها الأصلى الألف) لها وجود في اللغات السامية كالعبرية والآرامية والسوريانية . وهي في العبرية تنطق محققة (وقفة حنجرية - كالعربية) إذا وقعت بعد سكون تام (كما في ياصناه : بمعنى خرجت) أو بعد شدة أو في أول الكلام . ولكنها تنطق مسهلة أو مدا للحركة السابقة عليها (كما في نحو تَوَاقَر toumar) بمعنى تقول أو تأمر فأصلها همزة لأنها من (أقر) . فلها وجود في هذه اللغة ، ولكن توزيعها في الكلام مختلف .

أما العين فهو صوت لا وجود له فى اللغات الأوربية ، وإذا حاول واحد من أصحاب هذه اللغات استخدامه انتقل إلى استخدام الهمزة بدلا منه . ومن الطريف أن نعلم أن بعض الدارسين من الغرب يرى أنه من الأنسب أن تسمى العربية «لغة العين» بدلا من قولنا «لغة الضاد» وهم فى ذلك واهمون ، لأن العين - وإن لم يوجد فى اللغات الأوربية - صوت معروف مقرر فى اللغات السامية .

ويأتى صوت «الضاد» على قمة السمات الصوتية التى تنفرد بها اللغة العربية . وذلك أن هذا الصوت - بوصفه وحدة صوتية ذات قيمة ووظيفة فى تركيب الكلمة ودالاتها - ليس له وجود على الإطلاق فى أية لغة معروفة لنا على وجه الأرض (١) . نعم ، ربما نسمع صوتا يشبهه أو يماثله فى بعض الكلمات فى لغات معينة ، كما فى نحو bud و mud فى اللغة الإنجليزية . ولكن هذا الذى

نسمعه فى مثل هذه الكلمات الإنجليزية ليس ضادا أو قل : ليست له قيمة الضاد العربية . إن الذى نسمعه فى هاتين الكلمتين ، إنما هو صوت (d) الدال ، ولكنه نطق مفخما فأشبهه ضادنا فى النطق ، ولكن شتان بين الصوتين فى القيمة والوظيفة . فضادنا صوت مميز للمعاني ، كما يظهر ذلك مثلا عندما نقارن بين «دل» و «ضل» فهنا كلمتان مستقلتان ولكل منهما معنى مختلف ، وذلك بسبب وجود الدال فى الأولى والضاد فى الثانية . وليس كذلك الأمر بحال فى هذا الصوت المسموع فى اللغة الإنجليزية فى مثل ما ذكرنا من أمثلة .

هذا شئ من الخواص الصوتية التى تمتاز بها العربية من غيرها من اللغات ، وهى أمثلة تتعلق بما يعرف فى الدرس الصوتى الحديث بالأصوات الصامتة أو الساكنة (Consonants) ونزيد القول إيضاحا الآن بذكر شئ من سمات

(١) نعى بالعربية هنا العربية الشمالية والعربية الجنوبية معاً . وإذا كان هناك أثر لهذه الضاد فى اللغة الحبشية ، فإنما هو من قبيل التأثير والتأثر أو الاقتراض اللغوى ، كما فى مثل (dahay ، بمعنى الشمس والضحى) ، والمثال نفسه دليل هذا الاقتراض .

الحركات فى هذه اللغة ، وبإشارة عاجلة أخرى إلى بعض الظواهر الصوتية ذات القيمة المميزة للغتنا .

الحركات فى اللغة العربية قليلة العدد نسبيا ، فهى ثلاث حركات أساسية هى الفتحة والكسرة والضمة ، وكل منها قد تكون قصيرة أو طويلة فهى ست بهذا الوصف ، أى إن أخذت الطول والقصر فى الحسبان .

هذه الحركات القليلة العدد ظاهرة بارزة ، تستحق النظر والتأمل إذا قيست بما يراها فى اللغات الأخرى ، ففي اللغة الإنجليزية مثلا اثنتان وعشرون حركة ، وعلى الرغم من هذا الفارق الكبير بين اللغتين فى هذا المجال ، نجد الحركات فى العربية تقوم بوظائفها ودورها فى تشكيل الكلام وبنائه على وجه لا يقل أهمية عن نظيراتها فى اللغة الإنجليزية ، بل تفوقها وتمتاز عنها فى بعض الوجوه .

نحن لا ننكر أن هذه الحركات الست قد تتعدد صورها وأمثلتها فى النطق

الفعلى للكلام ، بسبب ما يجاورها من الأصوات الصامتة ، فالفتحة مثلا قد تكون مرققة أو مفخمة أو بين بين ، كما فى نحو : دل - ضل - قل ، بهذا الترتيب ، وذلك بسبب وجود الدال فى الكلمة الأولى والضاد (المفخمة) فى الثانية والقاف (التى بين الترقيق والتفخيم) فى الثالثة ، ولكن هذه السمات الثلاث التى لحقت الفتحة فى هذه الأمثلة ذات قيمة نطقية فقط ، وليست ذات قيمة فى الدلالة أى فى التفريق بين المعانى . والفرق فى المعانى بين هذه الكلمات الثلاث إنما سببه الدال والضاد والقاف ، وليس ترقيق الفتحة أو تفخيمها أو نطقها بين الحالتين . ومن ثم يقع الخطأ فى المعنى والنطق أو اللبس فيهما إذا حدث خطأ فى نطق هذه الأصوات الثلاثة (الدال والضاد والقاف) أى بالإتيان بها على وجه مخالف لطبيعتها النطقية المقررة من ترقيق أو تفخيم أو «وسطية» .

ومعنى ذلك - كما قررنا - أن الحركات فى العربية بوصفها وحدات

مميزة للمعاني والقيم الدلالية فى اللغة العربية ست فقط ، وإن تعددت صورها النطقية الفعلية فى السياقات المختلفة . وعد هذه الحركات ستا فقط هو المأخوذ به فى النظر العلمى فى النظام الصوتى للغة العربية ، وهو المبدأ المتبع (باتفاق) عند محاولة وضع القواعد أو الضوابط الصوتية الوظيفية المميزة لهذه اللغة .

وقلة الحركات فى لغة ما حسنة من حسنات هذه اللغة فى النطق والأداء الفعلى للكلام . ذلك أن الحركات - فى عمومها - أصعب من الأصوات الأخرى وأكثرها تعرضا للتغير والتبدل . ومن الطبيعى أنه كلما زاد عدد الحركات كانت صعوبة النطق أقوى احتمالا وظاهرة التغير والتحول أكثر وقوعا . زد على ذلك أن كثرة الحركات تقود حتما إلى تداخلها والخلط بينها من حين إلى آخر ، الأمر الذى ينتج عنه - لا محالة - خطأ فى النطق أو خلط فيه ، يؤدى إلى الخطأ فى المعنى أو اللبس فيه ، واحتمال الوقوع فى الخطأ فى نطق هذه الحركات الكثيرة

واضح كل الوضوح عندما يحاول أجنبى استخدام تلك اللغة الكثيرة حركاتها كما يبدو ذلك لنا عندما ينطق العربى اللغة الإنجليزية ، حيث يقع فى أخطاء نطقية واضحة ، كما يخلط بينها خلطا غير مقبول .

ولعل هذا الذى قررنا من القلة العددية للحركات العربية وما يتبع ذلك من ضعف احتمال تعرض هذه الحركات للتغير والتبدل ، يفسر لنا ذلك السر الفريد الذى تختص به عربيتنا الفصحى فى ماضيها وحاضرها . ذلك أن هذه الحركات مازالت هى هى ثابتة مستقرة بعددها وصفاتها لم يصبها تغير يذكر فى تاريخها الطويل ، وهذا بدوره ضمن بقاء اللغة العربية وساعدها على الاحتفاظ بخواصها الصوتية الأساسية على مر الزمن ، حتى إنك لا تجد فروقا صوتية ذات شأن بين حالها فى الماضى والحاضر . أما الفروق التى تلحقها فى اللهجات العربية الحديثة فى مجال الحركات فهى فروق فردية فى أساسها

ترجع إلى البيئة الجغرافية والثقافية ،
وهى مع ذلك فروق يسيرة فى طبيعتها
يمكن ردها كلها أو جلها إلى حركات
اللغة الأم بصورة أو بأخرى ، كما يمكن
حصرها وضبطها بشئ من النظر
والتأمل .

وعلى الرغم من هذه القلة النسبية
فى عدد حركات العربية ، فإن لهذه
الحركات دورا خطيرا فى المادة اللغوية
على كل المستويات . فهى - بالإضافة
إلى دورها الصوتى المتمثل فى كونها
لِبنات أساسية فى البناء الصوتى للغة -
تؤدى وظائف ذات أهمية فائقة على
المستوى الصرفى والمعجمى والدلالى
والنحوى جميعا . نستطيع أن نتبين هذا
الدور وقيمه بذكر أمثلة قليلة توضح ما
نقول .

من المعروف أن الكلمات العربية
مادتها الأساسية تلك الأصوات المعروفة
بالأصوات الصامتة أو الساكنة ، كالباء
والتاء والثاء إلخ ، ولكن هذا الأصل
يلحقه تعديل وتحويل أو تحويل وتغيير

بوساطة الحركات ، فينتج لنا عن هذا
الأصل مجموعة من الأوزان أو الصيغ
الصرفية لكل منها قيمة معجمية دلالية
مختلفة . فالأصل المتمثل فى « ع ر ض »
مثلا ، يمكن أن تأتى منه بطريق التغيير
فى الحركات بالكلمات التالية : عَرَضَ
«بفتح العين وسكون الراء» ومعناه ضد
الطول أو هو مصدر عرض يعرض ،
وعَرِضَ « بكسر العين » ومعناه الحسب
والشرف ، وعَرَّضَ « بضم العين » ومعناه
الجانب كما فى قولنا : ألقى به عَرَضَ
الحائط ، أو معناه «الوسط» كما فى نحو:
«فى عَرَضَ البحر أى فى وسطه » وهكذا
نرى أن الوزن الصرفى مختلف وكذلك
الحال بالنسبة للدلالة المعجمية .

وأكثر من هذا ، ليس من النادر أن
نجد التبادل بين الحركات يؤدى إلى
تفريق صرفى وظيفى ، كأن تنتمى صيغة
ما إلى جنس صرفى معين ، ويتغير
إحدى حركات هذه الصيغة نصل إلى
جنس صرفى آخر . قارن : إعلام «بكسر
الهمزة » بقولنا : أعلام «بفتح الهمزة»

فالصيغة الأولى مصدر الفعل «أعلم»
والثانية جمع «علم» وهذا النوع من
الأمثلة كثير الورد في العربية ، نحو
إنباء وأنباء ، وإحكام وأحكام إلخ .

أما وظائف الحركات على المستوى
النحوى فهى ذات خطر وشأن . ويكفى
أن ندرك أن الإعراب فى جملته يقوم على
الحركات ، فهى علاماته الأصلية فى كل
الحالات وهى كذلك دالته فى الإعراب
«النائب» فى معظم الحالات ، كما أن
الاختلاف فى حركات الإعراب دليل
الاختلاف فى الوظيفة النحوية للكلمة ،
فالفتحة ، كما هو معروف ، علامة
النصب ، فى حين أن الضمة علامة
الرفع، والكسرة علامة الجر .

وليس هذا فقط ، فللحركات فى
العربية دور فى التفريق بين الأجناس
الصرفية كما فى حال المثنى وعلامته
الألف وجمع المذكر السالم وعلامته الواو،
كما هو مقرر معروف . وهذه الألف إن
هى إلا فتحة طويلة ، كما أن الواو لا
تعدو أن تكون ضمة طويلة ، وهما فى

الوقت ذاته علامتا حالة إعرابية ، هى
الرفع فيهما .

ولعله من الطريف أن نذكر فى هذا
المقام أن «سلب الحركة» (المسمى
عندهم بالسكون) هو الآخر ذو وظيفة
صرفية نحوية ذات قيمة معينة فى النظام
الإعرابى للغة العربية . فالسكون أو عدم
الحركة دليل الجزم فى بعض صور
المضارع كما أنه علامة البناء فى صيغ
منوعة تنتمى إلى أجناس صرفية
مختلفة ، كما يظهر ذلك مثلاً فى بعض
الأسماء والأفعال (فعل الأمر) والحروف
على ما هو معروف لنا جميعاً . وأكبر
الظن أن هذه الوظيفة الإعرابية للسكون
« وهو عدم الحركة » كانت السبب الذى
دعا بعض النحاة إلى الحكم على السكون
بأنه حركة وأنه رابع الحركات فيها .
وربما كان لهم العذر فى هذا الحكم ،
حيث رأوه يؤدي وظائف إعرابية تقارن
فى الأهمية بوظائف الحركات الحقيقية
فى هذا الشأن . والحق أن السكون هو
عدم الحركة أو هو لاشئ (صفر) من

الناحية النطقية ، ومن ثم لا يدخل فى
عداد الحركات من هذه الناحية ، إذ لا
يشترك مع الحركات (أو أى صوت فى
اللغة) فى أية خاصية من خواصها
النطقية . ولكن هذا العدم أو اللاشئ له
دور وظيفى فى اللغة يظهر بصفة خاصة
فى الإعراب ، وعلى هذا يمكن لنا ،
تجاوزا ، عدّ عنصرا من عناصر النظام
الإعرابى فى اللغة العربية أو قل هو
«حركة - وظيفيا - وهو عدم الحركة أو
اللاشئ نطقا» .

ومادما فى مجال ذكر شئ من
الخواص الصوتية للغتنا ، جاز لنا أن
نشير إلى تلك الخاصة المميزة ، المعروفة
«بالتنوين» فالتنوين من الناحية الصوتية
نون ساكنة ، ولكنها تختلف عن بقية
النونات فى العربية من حيث الموقع
والتوزيع فى بناء الكلمة . إن موقعه
الصوتى محدد وثابت ، حيث لا يقع إلا
فى آخر نوع أو نمط معين من الكلمات .
أما من الناحية الصرفية والنحوية
فللتنوين جملة مهمة من الوظائف . من

ذلك مثلا أنه دليل «التنكير أو الإبهام فى
الذكرات» . كما فى «رجل» ، ودليل
«الشيوع» فى بعض الأعلام ، مثل
«محمد» ، ولهذا يجب حذف هذا التنوين
عند الإضافة ، والإضافة من شأنها إزالة
هذا التنكير وذلك الإبهام . كما أن من
شأنها تعيين العلم وتحديدته ، فينتفى
الشيوع أو شبهته . فليس من الغريب
إذن حذف هذا التنوين عند وصف العلم
المنون بكلمة «ابن» كما فى نحو «محمد
ابن عبد الله» حيث قام الوصف بدور
التخصيص أو التعيين ، ومن ثم لا حاجة
إلى التنوين .

وما قلناه هنا عن التنوين ينطبق
بتمامه على النون فى المثنى وجمع المذكر
السالم ، فهذه النون فى رأينا - ورأى
غالبية النحاة - هى التنوين ، غير أنه
كتب هنا بالنون لاستحالة استخدام رمز
التنوين المعروف فى هذا الموقع . وهذه
النون كما هو معروف واجب حذفها عند
الإضافة ، لأنها رفعت الإبهام والشيوع
المفهومين بالتنوين (أى النون) قبل

الإضافة . أما أن هذه النون فى المثنى والجمع تبقى ولا تحذف عند اتصالهما بالالف واللام (الرجال - المسلمون) فتلك قضية أخرى . ذلك أن الف واللام هنا للتعريف أى تأهيل الكلمة لأن تقع موقعا نحويا معينا كالابتداء مثلا ، وليست هذه الأداة للتعين أو التخصيص والتحديد ، إذ مازالت فكرة التعميم والشيوع قائمة بالمثنى والجمع بسبب التعدد . والتعدد يناقض التحديد أو التعيين كما هو واضح ، ومن ثم ثبتت النون . وحذف التنوين فى المفرد المعرف باللام لا يتناقض مع ما قلنا ، لأن هذا الحذف فى هذه الحالة هو الأصل أولا ، ولأن «مفردية» الكلمة ساعدت على إزالة الإبهام أو الشيوع ثانيا ، فلا حاجة إذن إلى التنوين . (١)

وتحريك التنوين (أى النون) فى المثنى والجمع ، على العكس منه فى المفرد إنما كان لسبب صوتى ظاهر ،

ذلك أنه وقع فى موقع يوجب تحريكه ، منعا لالتقاء الساكنين . ومع ذلك قد يأتى ساكنا كما فى حالة الوقف ، وهى قاعدة مقررة منصوص عليها فى النظام الصوتى والنحوى ، على ما هو معروف لدى أهل النظر .

ولا ننسى فى هذا المجال أن نشير إلى أن التنوين أيضا هو علامة صرف الكلمة نحويا ، وحذفه دليل منع الكلمة من الصرف والمنوع من الصرف باب كبير متشعب الجوانب ، تتبنى قواعده على ضوابط عدة ، من بينها وجود ظاهرة التنوين أو عدم وجودها ، على ما هو معلوم لنا جميعا . أما وجود النون (أى التنوين) فى المثنى والجمع المذكر الذى لا ينون مفرده «أى المنوع من الصرف» كإبراهيمين مثلا ، فذلك لأن تنوين ما لا ينصرف مقدر ، فقامت النون (أى التنوين) مقامه فى الجمع والمثنى .

(١) يفسر بعضهم ثبوت النون فى المثنى والجمع مع وجود أداة التعريف بتفسير آخر ، هو أن النون هنا عوض عن الإعراب بالحركات فى المفرد ، ومن ثم بقيت . أما النون فى الأفعال الخمسة ، نحو يكتبان - يكتبون إلخ ، ففيها شبهة تحتاج إلى بحث مستقل ، ربما أتينا عليه فى فرصة أخرى إن شاء الله .

ويمكن لنا بعد ذلك أن نشير إلى أمثلة أخرى من تلك الظواهر الصوتية التي تمتاز بها اللغة العربية إذا قورنت بكثير من اللغات المعروفة لنا ، والتي لا يدركها كثير من المثقفين العرب ، ولا يعيرها التفاتا ذا بال بعض الدارسين المتخصصين . هذه الظواهر قد تختص بصوت أو مجموعة معينة من الأصوات .

فأول ذلك ما يعرف بالتاء المربوطة . هذه التاء اتفق على رسمها بالرمز [ة] أى بصورة «هاء» فوقها نقطتان . هذا الرمز يتحقق فى النطق الفعلى للغة بصورتين أساسيتين مختلفتين فى الصفات والسمات وفقا للسياق الذى تقع فيه . فهى تنطق تاء خالصة فى وصل الكلام ، ولكنها هاء صرفة فى الوقف ، تقول فى الفصحى : فاطمة بنت أخى (بتاء متلوة بضممة) ولكن هذه فاطمة (بهاء ساكنة) وثم يمكن عدّ نطقها تاء دليلا على وصل الكلام ، كما أن تحقيقها هاء علامة من علامات الفصل أو الوقف . ومعنى هذا إذن أن نطق (التاء المربوطة)

تاء فى الوصل يؤهلها لأن تكون مثلا أو صورة من صور تلك الوحدة الصوتية المعروفة بالتاء [ت] ، على حين يرشحها تحقيقها هاء فى حالة الفصل لأن تنتمى إلى الوحدة الصوتية الأخرى المرسومة بالهاء [O ، بدون نقط] وهى فى الحالة الأولى كذلك لها ما للتاء من صفات ، كما أنها فى الفصل والوقف تنتظم ما للهاء من سمات .

لهذا لم يكن غريبا ولا شاذا عدم تخصيص رمز لها قائم بذاته فى الألفباء التقليدية ، تلك الألفباء التى تعنى فى الأساس برموز الوحدات الصوتية التى من شأنها أن تفرق بين المعانى للكلمات (فارن : باب × ناب) ، ولا تهتم بالإشارة إلى الاحتمالات النطقية للوحدة الصوتية المعينة ، كنطقى الدال مثلا فى عدت وعدنا ، فهى تاء أو أشبه بها فى الكلمة الأولى ، ولكنها دال خالصة فى الثانية ، ومع ذلك فالدال وحدة صوتية واحدة .

وعدم ذكر رمز خاص للتاء المربوطة فى ألفباء الوحدات الصوتية لا يعنى

إهمالها أو عدم الاعتداد بها في النظام الصوتي للغة العربية ، لأنها - كما يتضح من المناقشة - تنضم إلى التاء [ت] حيناً وإلى الهاء [هـ] حيناً آخر ، ومن ثم لم يكن هناك مسوغ علمي للنص على رمز خاص بها في هذه الألفباء ، ومع ذلك ، فقد أدرك علماء العربية بثاقب نظرهم أن التاء المربوطة - على الرغم من دخولها في باب التاء مرة وفي باب الهاء مرة أخرى - تختلف عن هاتين الوجدتين (التاء والهاء) في جملة من الصفات الصوتية والصرفية والنحوية . ومن ثم أتوا يرمز لها يدخل في عداد الرموز الثانوية للألفباء العربية ، كرمز الهمزة [ء] ورمز التشديد [ّ] ورمز السكون [ْ] وهذا الرمز هو رمز [ة] الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من قواعد الكتابة الإملائية للغتنا ، والخطأ فيه خطأ إملائي صريح .

وإنه لمن الذكاء والعمق حقاً أن كتبوها بهذا الرمز بالذات [ة] إذ هو في الأساس صورة الهاء (وهذه حالتها في بعض المواقع الصوتية) وتوجوها

بنقطتين إشارة إلى قيمة التاء ، كما هو الحال في بعض مواقعها ، ووضع نقطتين بالذات (أى لا نقطة أو ثلاث) دليل واضح على هذه القيمة الصوتية الثانية .

فهذا الرمز الثانوي أو الإضافي [ة] للتاء المربوطة حقق لها نوعاً من الكيان الذي تستحقه ، ونبه غير العارفين إلى خواصها التي تمتاز بها في النظام اللغوي للعربية . فهي صوتياً - مثلاً - تختلف عن كل من التاء والهاء في الموقعية وفي تحديد نطق معين لا يتخلف في كل من سياقيها المعروفين : الوصل والوقف ، إنها لا تكون إلا في آخر الكلمة ، وفي كلمات ذات طبيعة صرفية معينة ، وهي تاء فقط في الوصل وهاء في الوقف .

أما من الناحية الصرفية والنحوية فالتاء المربوطة دليل التانيث في أجناس خاصة من الكلم ووجودها (مع علل أخرى) يمنع الصرف في أجناس أخرى ، إلى غير ذلك من الخواص الصرفية والنحوية ، كما يتمثل في عدم جواز جمع

ما اشتمل عليها جمع المذكر السالم ،
على ما هو مقرر .

ونأتى بعد ذلك إلى ظاهرة صوتية
مهمة تتعلق بمجموعة معينة من أصوات
العربية ، وهى ظاهرة التفخيم ، والتفخيم
- فى أبسط عبارة - أثر سمعى تدركه
الأذن نتيجة لعملية فسيولوجية معقدة ،
تتعاون فى تشكيلها مجموعة من العوامل
أظهرها وأقربها إدراكا :

- تقعير اللسان ، بمعنى انخفاض
وسطه نسبيا عند النطق بالصوت
المفخم، ويتبع ذلك حتما ارتفاع
الجزء الخلفى من اللسان نحو
الحنك الأعلى .

- حدوث شئ من التوتر فى أعضاء
النطق وبخاصة فى أوردة الرقبة ،
ويتصل بذلك أو ينتج عنه تعديل
فى تجويف الفم والنطق بشدة أو
قوة نسبية .

والأصوات المفخمة فى العربية على
ضربين رئيسيين : أصوات مفخمة

تفخيما كليا ، وأصوات تفخيما بين بين.
أما أصوات النوع الأول فهى الصاد
والضاد والطاء والظاء وهى المسماة فى
القديم (أصوات الإطباق) وهذه
الأصوات الأربعة - فى رأى الجميع بلا
استثناء - مفخمة فى كل موقع تقع فيه
فى اللغة العربية ، وذلك بقطع النظر عما
يسبقها أو يلحقها من الأصوات . وهى
النظير المفخم للسين والذال والطاء والذال.
ومن ثم كان تفخيما ذا قيمة دلالية ، له
دور فى التفريق بين المعانى ، بالإضافة
إلى قيمته الصوتية .

ومن ثم كان الخطأ فى نطق هذه
الأصوات بترقيقها خطأ من ناحيتين :
خطأ صوتى وهو أمر معيب غير مقبول
للخروج بالصوت المفخم عن طبيعته
وسماته ، وخطأ دلالى يؤدى إلى اللبس
فى المعنى وغموضه . ونستطيع أن ندرك
ذلك من الأمثلة الآتية :

صاد × ساد × ضل × دل ، طاب
× تاب ، ظل × ذل

حيث نلاحظ اختلافا فى المعنى بين

كل كلمتين متقابلتين ، والسبب فى ذلك واضح ، هو وجود صوت مفخم فى إحداهما ونظيره المرقق فى الثانية . ومعنى هذا - بعبارة اللغويين - أن الصوت المفخم ليس صورة نطقية سياقية للصوت المرقق ، وإنما هو نظيره ، وله قيمته الخاصة به صوتيا ودالليا . ومعنى ذلك أيضا أن نطق هذه الأصوات المفخمة مرققة يؤدى إلى الخلط واللبس بين الكلم فى اللغة العربية ، إذ حينئذ تصير الصاد سينا والضاد دالا والطاء تاء والظاء ذالا . وبهذا يضيع التفريق بين المعانى كما تضيع القيمة الصوتية المميزة لهذا الصوت أو ذاك .

وأصوات الضرب الثانى من أصوات التفخيم هى القاف والخاء والغين ، وتفخيمها تفخيم (بين بين) . (البينية) هذه تظهر فى سمتين متلازمتين ، هما أن تفخيمها أقل درجة من تفخيم أصوات النوع الأول ، وأن هذا التفخيم « الضعيف » نسبيا إنما يظهر عندما يتلو هذه الأصوات ضم أو فتح

(قصير أو طويل) ولكنه يختفى أو يكاد عند كسرهما ، إذ هى - حينئذ - إلى الترقيق أقرب .

والخطأ فى نطق هذه الأصوات الثلاثة من حيث التفخيم أو الترقيق خطأ صوتى محض ، لا يؤثر على المعنى ولا يؤدى إلى اللبس فيه ، لانعدام نظائر مرققة لها فى العربية ، على العكس من أصوات الإطباق الأربعة السابقة (ض ط ظ) . وعلى الرغم من ذلك فهذا الخطأ - بالإضافة إلى عدة خطأ صوتيا فى نطق اللغة - دليل على « تفاهة » المتكلم وسطحية ثقافته اللغوية ، إذ هو عند ترقيقها فى مواضع التفخيم يأتى بأصوات غير مألوفة للأذن العربية على الإطلاق ، بخلاف أصوات الإطباق الأربعة ، فقد يلجأ المتكلم إلى ترقيقها فى مواقف اجتماعية أو درامية معينة ، ويكون نطقه مقبولا فى هذه المواقف بالذات ، لأنه يرمى إلى إحداث تأثير خاص أو تصوير سلوك لغوى معين بقصد التندر أو الفكاهة أو السخرية .

والملاحظ على كل حال أن النساء أكثر ميلا إلى ترقيق أصوات التفخيم بنوعيتها، وهو أمر مازلنا نحكم عليه بالخطأ فى إطار اللغة الفصحى .

وهذه الأصوات الثلاثة ، مضمومة إلى أصوات الإطباق السابقة ، تسمى جميعا بأصوات الاستعلاء فى التراث العربى ، وهى تسمية صحيحة دقيقة ، إذ عند النطق بها جميعا فى حال التفخيم تعلو مؤخرة اللسان نحو الجزء الخلفى من الحنك الأعلى .

أما بقية أصوات العربية فهى (باستثناء اللام والراء) مرققة بطبيعتها وإن كان يلحقها شئ من التفخيم بالمجاورة ، أى بوقوعها فى سياق صوت مفخم سابق أو لاحق وينطبق هذا الذى نقول على الحركات جميعا ، فهى بنفسها لا توصف بتفخيم أو ترقيق وإنما يكون هذا أوداك بحسب سياقها الصوتى . لاحظ الأمثلة الآتية :

تاب × طاب وبت × بط

حيث جاءت الفتحة الطويلة (الألف) والباء مرققتين فى الكلمة الأولى ، ولكنهما مفخمتان فى الثانية وكذلك جاءت الباء وفتحتها مرققتين فى الكلمة الثالثة على حين أصابهما التفخيم فى الرابعة ، وإنما كان هذا أو ذاك بسبب طبيعة الأصوات المجاورة من حيث التفخيم والترقيق .

أما اللام والراء فلهما حالات خاصة تستدعى نظرا مستقلا ، لاختلاف أحوالهما من هذ الناحية عن كل ماسبق ذكره .

اللام صوت مرقق بطبيعته ولكنه ينفرد بأحكام خاصة من حيث الترقيق والتفخيم فى لفظ الجلالة (الله) وحده ، فهو فى هذا اللفظ يفخم إذا سبق بضم أو فتح ولكنه يرقق إذا جاء بعد كسر تقول : (دَعُوا الله) و (بارك الله فىك) بالتفخيم ولكن : (بسم الله الرحمن الرحيم) و (أفى الله شك ؟) بالتوفيق وإلى هذه الأحكام أشار واحد منهم بقوله :

وفخم اللام من اسم الله

عن فتح أو ضم كعبد الله (١)

والراء فى اللغة العربية الفصحى صوت ينفرد بمجموعة من السمات النطقية التى تخفى على كثير من المتقنين وبعض المتخصصين ، حيث يأتون بها على وجه غير صحيح من حيث التفخيم والترقيق ، وذلك لأسباب نجل منها مايلى :

* التاثر بما يجرى فى اللهجات

العامية من خلط فى نطق هذا الصوت واختلاف واضح فى أدائه من لهجة إلى أخرى ، بحسب البيئة أو الثقافة أو هما معا .

فهناك قوم يرققون هذا الصوت حيث يجب التفخيم ، وآخرون يفخمون حيث لا مسوغ له ، وفرقة ثالثة يلتبس عليها الأمر ، فتخلط بين الحالين ، وربما يأتى الواحد منهم بصورتين مختلفتين للراء فى

الكلمة الواحدة أو السياق الصوتى الواحد .

* المروى لنا أنه كان هناك اختلاف بين القبائل العربية فى القديم فى نطق هذا الصوت من حيث التفخيم والترقيق .

* روى خلاف واضح بين القراء أنفسهم فى نطق الراء فى مواقع معينة ، كما يظهر ذلك فى قراءة «ورش» و «حفص» .

* صعوبة استيعاب القوانين والضوابط التى حددها أهل الثقة للإتيان بهذا الصوت مفخما أو مرققا ، كما يتضح مما يلى :

جرى معظم الثقات على ذكر ضوابط الترقيق فى الراء بشئ من التفصيل ، دون النص على تفرعات أحوال التفخيم وإمكاناته السياقية المتعددة . وربما كان ذلك منهم لشيوع ظاهرة التفخيم

(١) كلمة (عبد) هنا تقرأ بفتح الدال ليتحقق التفخيم فى لام لفظ الجلالة وهى مخالفة نحوية جائزة فى مثل هذه الحالة ، إذ قصد بها التمثيل والتوضيح .

فى الرء وكثرة ورودها كثرة
يصعب معها وضع ضوابط
تفصيلية لها ، حتى إن بعضهم
يقرر أن الرء من طبيعتها
التفخيم ، ومعناه أن الترقيق نوع
من الاستثناء .

المروى عن هؤلاء الثقات أن الرء
يصيبها الترقيق فى حالتين
رئيسيتين هما :

* إذا جاءت مكسورة «أى متلوة
بكسر» بقطع النظر عن طبيعة
الصوت السابق أو اللاحق لها ،
كما فى قوله تعالى : "والفجر
وليلٍ عشر" و " فى الرقاب
"رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع
عن ذكر الله " وكذلك فى نحو
"بشرى" بالإمالة إذ حركة الإمالة
تدخل فى إطار الكسرة ، أو هى
أقرب إليها من الفتح على ما هو
معروف .

* إذا وقعت ساكنة بعد كسر .
وذلك بشرطين : أولهما : أن تكون
الكسرة أصلية ، لا عارضة

ككسرة همزة الوصل أو الكسرة
التي يؤتى بها للتخلص من التقاء
الساكنين . ثانيهما : ألا يقع بعدها
صوت استعلاء (ص ض ط ظ خ
غ ق) ويتحقق هذان الشرطان
فى نحو « فرعون » و « مرية » . .

فإن كانت الكسرة عارضة فحمت
الرء نحو « اركعوا » «إن ارتبتم» وكذلك
تفخم الرء الساكنة المسبوقة بكسرة إذا
ولها صوت استعلاء ، مثل «فرقة -
قرطاس - مرصاد» .

ويلحق بهذه الحالة الثانية الرء
الساكنة الواقعة بعد إمالة أو ياء ساكنة ،
حيث يصيبها الترقيق أيضاً ، كما فى
نحو « نار » بالإمالة « خبير - خير »
وواضح أن الترقيق هنا واقع فى حدوده
الصوتية ، إذ الإمالة نوع من الكسر أو
هى قريبة منه ، والياء فى « خبير » إن
هى إلا كسرة طويلة « وسموها ياء
ساكنة وفقاً لاصطلاحهم » . والياء
الساكنة فى « خير » فيها شبهة الكسرة
لأنها فى هذا الموقع تتسم بشيء من
صفات الكسر ، وتقرب منه فى المخرج .

وفى هذا المقام أيضاً نصوا على ترقيق الراء الساكنة إذا وقعت بعد كسرة وفصل بينهما بساكن ، كما فى نحو «قَدْر» و «كَبُر» بكسر القاف والكاف وسكون الراء فيهما . وهذا الأمر واضح كذلك ، يمكن فهمه وتفسيره ، حيث إن الراء الساكنة ، ما زالت مسبقة بكسرة أصلية والفصل بالساكن كلا فصل ، فلا يحجب تأثير الكسرة السابقة وعملها أو دورها فى الترقيق .

والملاحظ على أية حال أن الراء فى كل هذه الصور الفرعية الملحقه بالحالة الثانية من حالات ترقيقها ذات وضع خاص : إنها فى هذه الصور كلها لا تكون إلا فى آخر الكلمة وفى حالة الوقف بالذات ، إذ لا يمكن وقوعها ساكنة فى هذا السياق الصوتى الذى وقعت فيه إلا منطوقة موقوفاً عليها .

وتفسير ذلك أن التركيب المقطعى فى اللغة العربية يمنع وقوع أى صوت ساكن « خال من الحركة » بعد حركة طويلة كما

فى « نار » بالإمالة و « خبير » بباء المد أو الكسرة الطويلة ، إلا فى الوقف (١) . وكذلك يمنع التركيب المقطعى للغتنا توالى ساكنين ، أى اجتماع صوتين صامتين « خاليين من التحريك » فى أى موقع من مواقع الكلمة إلا فى آخرها . ومن الطبيعى أن ذلك لا يتحقق إلا فى حال الوقف كما فى « خَيْر » و « قَدْر » و « كَبُر » ، وهى الأمثلة المذكورة سابقاً . ولعل عبارتهم المشهورة : " لا يجوز التقاء الساكنين " تفسر كل ما قلنا ، أما جواز هذا الالتقاء فى الوقف ، فذلك لتحقيق وظيفة نحوية مهمة ، هى « الوقف » وهو باب فى قواعد اللغة معروف ، وخاصة من خواص الأداء النحوى والصوتى فى العربية .

ومن الواضح أن النص على ترقيق الراء ، يعنى - ضمناً - وقوع التفخيم فى غير هذا المنصوص عليه ، أو بعبارة أخرى ، تفخم الراء إذا وقعت مضمومة أو مفتوحة مطلقاً وكذلك إذا وقعت ساكنة

(١) وهناك حالة ثانية يجوز فيها وقوع الصوت الساكن بعد حركة طويلة « حرف مد » وهذا إذا كان هذا الصوت الساكن مدغماً فى مثله ، كما فى مثل « الضالين » حيث وقعت اللام الأولى ساكنة بعد حرف مد وهى مدغمة فى اللام الثانية .

باستثناء السياقات الصوتية المذكورة في
الحالة الثانية من حالات الترقيق وصورها
الفرعية الملحق بها .

وإلى هذا كله أشار بعضهم بصورة
مجملة بقوله :
ورقق الراء إذا ما كسرت
كذلك بعد الكسر حيث سكنت
ما لم تكن من قبل حرف استعلا
أو كانت الكسرة ليست أصلاً

وإلى هنا يكفي أن نقرر أن ما أتينا
به في هذه العجالة أشبه بحسوة طائر
من بحر العربية الزاخر بالسّمات
والصفات الصوتية التي تمنحها نوعاً من
التفرد وضرباً من الخصوصية ، وأن ما
ذكرناه هنا مجرد دلائل يسترشد بها
الدارسون والراغبون في الوقوف على
شيء من أسرار لغتهم العربية .

كمال بشر
عضو المجمع

أحاديث فى الترجمة

للدكتور مجدى وهبة

أشرف بالانتماء إلى إحدى اللجان المنبثقة من المجلس الأعلى للثقافة ، هي لجنة الترجمة التى تتضمن اثنى عشر مترجماً ممن عاصروا مشكلة الترجمة فى مصر منذ أواخر العقد الرابع من قرننا هذا ، ومعنى ذلك أننا شهدنا عصرين لازدهار الترجمة هما أواخر النشاط الأمثل للجنة التأليف والترجمة والنشر وعصر الترجمة الأدبية الرفيعة التى كانت تستظل بالرعاية الجادة المقدرة للمسئولية فى الدوريات الثقافية منذ خريف المقتطف حتى وفاة مجلة المجلة وأخواتها فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وكم سعدت لجلوسى إلى مائدة هؤلاء المحنكين أملاً أن ألقى بعض ثمار تجاربهم فى ميدان شغل بال أغلب المثقفين فى العالم العربى منذ نهضتنا الحديثة .

والواقع أننا كنا نجتمع مرة كل شهر لمحاولة رسم سياسة منطقية للترجمة حتى يستفيد بها أولو الأمر والرأى فى

وزارة الثقافة ، وهى الهيئة المهيمنة على كل نشاط ثقافى فى بلادنا التى تخلصت منذ ما يقرب من أربعين سنة من عشوائية الرعاية الفردية . لاشك أن الرعاية الفردية - رعاية الملوك والأثرياء - قد أقت بحركة ما يسمى بالتقوير فى حقل الدراسات العلمية بكل أنواعها وفى إقامة الهيئات والمعاهد التى تبث الحياة فى مجهودات الإبداع الفنى والثقافى . وإنما الترجمة بالذات لم تحظ بمثل هذه الرعاية المستمرة كما كانت الحال فى عصر محمد على وفجر مدرسة الألسن . كانت الترجمة متروكة إلى حد بعيد لأهواء المترجمين أنفسهم الذين كانوا يسعدون بالدخل المتواضع الذى يعود عليهم به عمل الترجمة . فكانت الأعمال المترجمة إلى العربية وقتذاك ثمرة ثقافة المترجم الأجنبية فرنسية كانت أو إيطالية أو إنجليزية . فجاءت نهضة المسرح بواسطة الإيطالية والفرنسية فى المقام

الأول ، كما حدث عندما ترجم شاعر القطرين أعمال شكسبير من ترجمة فرنسية لها ، وعندما نقل يوسف وهبى وجورج أبيض كثيراً من موضوعاتهم من الإيطالية والفرنسية معاً . أما حظ الإنجليزية فلم يظهر إلا مع توطيد الثقافة الإنجليزية فى أذهان خريجي المدارس الحكومية وتحويل الدراسات الطبية والهندسية إلى الإنجليزية فى أوائل قرننا هذا . أما الروسية والإسبانية وغيرها من اللغات الأوربية فلم تدرك قارئى العربية إلا من خلال ترجمات فرنسية أو إنجليزية .

والحق يقال إن دولتنا قد اضطلعت بمهام الترجمة على نحو جاد مع ظهور وزارة ثقافة والهيئات التابعة لها بالنسبة إلى الطباعة والنشر . هذا صحيح ومما لا شك فيه أيضاً أن رعاية الدولة كان ينقصها وجهان فى غاية الأهمية ، هما وجه التقدير المالى المناسب للمترجم ووجه التعارف على خطة منهجية للأعمال المختارة للترجمة بعيداً عن أهواء السوق والأنواق الهابطة .

ذلك ما كان بعض ما اتفقت عليه آراء أعضاء لجنة الترجمة إبان الاجتماعات التى شرفت بحضورها . ولما أصبح من الواضح الجلى أن لجنة الترجمة غير مؤهلة للتعامل بما خصص لها من مال فى موازنة الدولة إلا فى حدود ضيقة للغاية ، أصبح سياق الحديث بيننا يتجه نحو موضوعات عامة ومشكلات عامة قابلة للمناقشة فيها وللتداول دون أن يؤدى ذلك إلى إرهاب ميزانية الدولة . ولاشك أن هذا التحرر من الالتزام المالى فَتَحَ تشاورنا روح الترفع عن كل أزمة مؤقتة أو محلية .

ومع ذلك فقد شعرنا بواجب ملح يمس الترجمة والمترجمين الذين لا يتمتعون بجمهور غفير مثلما يحدث بالنسبة إلى الكتاب الجامعى شعرنا بأنه من واجبنا أن نرفع إلى السيد وزير الثقافة مذكرة تفصيلية تلتمس رفع أجر المترجمين إلى مستوى متواضع يتفق مع مقتضيات العدالة الإجتماعية ولا يتقيد بما نص عليه قانون ظهر فى أوائل عهد

الثورة وقبل تفشى التضخم المالى فى كل أطراف المعمورة . ورفعت هذه المذكرة مراراً مع قدوم كل وزير جديد للثقافة ولكنها بقيت معلقة فى سحب النسيان حتى يومنا هذا . وقال قائل فى لجنتنا : " إن الحالة الاقتصادية للمترجم هى الأساس المتين الوحيد الذى يمكن أن تبنى عليها سياسة متماسكة لحركة الترجمة فى مصر " .

أما الأجر الحالى فهو زهيد إلى حد لا يصدق العقل ، الأمر الذى جعل كثيراً من خيرة مترجمينا يتجهون نحو دور النشر فى البلاد العربية الشقيقة حيث يجدون تقديراً معقولاً لمجهوداتهم . ثم قال قائل آخر : إن المشكلة مشكلة اقتصاد بأسره لا يتميز فيه مترجم عن موظف أو أولئك الملايين الذين اضطروا إلى الهجرة بحثاً عن عمل أو مجرد الكفاف . وأجاب قائل آخر على هذا التحليل اليبأس الغاضب بأن المترجم يتميز عن غيره من الموظفين بأنه قد لا يكون معتمداً كل الاعتماد على أعمال

الترجمة لكسب قوته وأنه - فى أغلب الأحوال - يلجأ إلى الترجمة ليكمل دخلاً آتياً من مصدر آخر .

فالت ترجمة - على حد قوله - فيما عدا الترجمة الفورية فى المؤتمرات ما هى إلا إضافة إلى عمل ثابت أو هواية لشخص يعيش فى بحبوحة نسبية من العيش !

والمهم أننا بالرغم من اختلاف آرائنا فى المسألة الاقتصادية قد أجمعنا على ضرورة رفع أجر المترجم احتراماً للترجمة نفسها وإن لم يكن ذلك تقديراً لشقاء المترجم .

ثم مثل أمام أعيننا موضوع لم يتبادر إلى أذهاننا قبل ذلك هو موضوع الاختيار ، أى سياسة الاختيار لما يمكن أن يترجم أو يجب أن يترجم إلى العربية . وعندما تأملنا قليلاً فى هذا الأمر وجدنا أن حركة الترجمة عشوائية تدور دوراناً مستمراً على غير هدى كأنها آلة ضخمة تبتلع من غير تمييز ما يمكن أن يوصف بأنه الحابل على النابل . لاحظنا مثلاً أن

الأغلبية العظمى لما ترجم فى العقود الثلاثة الأخيرة هى من مختلف أنواع القصص البوليسية وقص الألغاز ودلائل الصحة النفسية والجسمانية ، كما لاحظنا أن الكتب العلمية البحتة والآداب الكلاسيكية العالمية لم تحظ بالقسط الذى كنا ننتظره من الترجمة . أما الكتاب العلمى فكان تفسير ندرة ترجمته أن تعليم العلوم استمر - إلى عهد قريب - يمارس باللغة الإنجليزية . كما أن إختلاف الآراء فى كيفية صك المقابلات العربية للمصطلحات العلمية الأجنبية ظاهرة دامت تقلق الأذهان إلى أن جاءت مجامع اللغة العربية تجتهد فى توحيد التعريب لهذه المصطلحات . أما روائع الآداب العالمية فأشكالياتها - على حد قول الفلاسفة - مختلفة تماماً . وهنا كان الذوق الشخصى يلعب دوراً مهماً ، ولاحظنا مع عدم إختلافنا على ملاحظناه أن الظواهر الآتية كانت - وما زالت - تحصر ترجمة الأدب فى حدود واضحة .

فالنثر فى هذا المضمار يغلب الشعر

بطبيعة الحال ، والنثر الفكرى أو الفلسفى يغلب النثر الفنى أو ما هو وليد الخيال ، والنثر العقلانى - مما ظهر بعد عصر التنوير الأوروبى - يغلب النثر الدينى أو التصوفى ، والموضوعات الذهنية المدركة فى كل زمان ومكان تغلب الموضوعات الخاصة بقوم أو بمناسبة بعينها . ومن نثر المناسبات أو المقامات الخاصة نثر السياسة الذى لم يترجم منه إلا ما خص المبادئ العامة أو ظاهرة الاستعمار القديم والجديد التى مست مداركنا بحكم تاريخ معاملتنا مع العالم الخارجى . أما الشعر فقد ترجم كثير مما يتناول الوجدان المشترك بين كل البشر بصرف النظر عن مشاربهم المختلفة . ولذلك يغلب شعر العاطفة وشعر وصف الطبيعة ويغلب شعر التأمل فى مصير الإنسانية بأسرها من ميلاد وقلق وفناء شعر التأمل فى ظروف خاصة لمجتمع معين أو لمناسبة خاصة . ومع كون الحدود بين الشعر والمسرح حدوداً لم يعترف بها أرسطو ومن حذوا حذوه

إلى عهد قريب إلا أن الملاحظ عندنا أن المسرحية شعرية كانت أم نثرية تمتعت بحظ وافر من الترجمة إلى العربية وذلك حتى مع تمثيل أقلية منها على خشبة المسرح . إن المكتبة العربية غنية بترجمات للمسرح العالمى على نحو أكثر تمثيلاً لأى فرع آخر من الآداب العالمية .

هذا ما دعانا فى لجنتنا إلى التفكير جدياً فى مسح للآداب الأجنبية للتعرف على ما يسمو فيها إلى درجة العالمية وما لا يسمو ، ثم إلى الاتفاق على اختيار ما يتناسب مع ذوق القارئ العربى وما لا يتفق ، ثم إلى التأكد مما ترجم منه وما لم يترجم ، ثم إلى بحث ما إذا كانت الترجمة الموجهة أمينة ومقروءة ، فتستحق إعادة النشر ، أو غير أمينة أو غير مستساغة عربياً فتستحق إعادة الترجمة . والحق أن الأمر لم يثر فينا أية اعتراضات ، بل تحمسنا له ووزعنا العمل على أعضاء اللجنة كل فى اختصاصه حتى نأتى بقوائم مشروحة لما يمكن اعتباره تراثاً أدبياً للإنسان عامة وما

يمكن أن يعبر حواجز اللغة والمشارب والحساسية ، وعملنا جادين على مدى ثلاث سنوات فى أوقات الفراغ وفى غيرها من الزمن المهرول ، حتى أدركنا ما يمكن أن يسمى ثبثاً مفسراً لروائع الآداب العالمية التى لا بد أن يلم بها الإنسان - أى إنسان - ليعد نفسه مثقفاً . ولا أكتفكم أن هذا الثبوت موجود الآن فى كهف من كهوف مطبعة إحدى دور النشر الكبرى .

ذكرت هذا الوجه من نشاطنا لأضع بين يدي القارئ ثمرة اجتهادنا فى هذا الطريق الشاق ، أقول إن الطريق كان شاقاً لأننا أدركنا بعد قليل أن الآداب العالمية فى عصرنا هذا لم تتقيد - كما كانت الحال فى الماضى - بآداب الغرب وبروافدها الإغريقية والرومانية والمسيحية فحسب ، بل إنها تجاوزت ما كنا قد تواضعنا عليه إلى آداب أخرى بعيدة عن الغرب - أعنى تلك التى ازدهرت فى الشرق الأقصى على سبيل المثال وتلك التى بدأت تزدهر فى أمريكا اللاتينية

وفى إفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .
إن حساسية المثقف الحديث تتطلع إلى
أفاق ثقافية بعيدة عن تلك التى كان
يتطلع إليها المثقفون فى الماضى .
والمحور الثقافى العالمى - إذا صح هذا
التعبير- قد انتقل من خط فلسطين فأثينا
فروما فباريس « مدينة النور » فلندن
فنيويورك ، وأصبحت معاملة تنطمس
وتنتشر وتدخل فى مرحلة هلامية « بل
أكاد أقول هيولية » حيث تنفتح النفس
لتيارات فكرية ووجدانية لم تكن تعرفها
من قبل . وإلى يومنا هذا لم يتضح
الشكل الجديد لما يمكن أن يسمى بعقل
إنسان أواخر القرن العشرين . لذلك
تفتحنا - بدورنا - لتلك الروافد
الحضارية الجديدة التى تأتى للإنسان أيا
كان من مشارق الأرض أو من مغاربها ،
وأدخلنا فى ثبتنا ما نعدده مهما
للحساسية الحديثة من روائع الخبرة
البوذية والأسطورة الأفريقية والتصوف
الهندوكى التى أشربته النفس المعاصرة
بما لم تكن تدركه من قبل . هذا إلى

جانب الثورة الإسلامية الجديدة التى
تجاوزت حدود العربية لتمتد نحو النفس
العربية القلقة بين يقين التراث وتساؤلات
الأيدولوجيات المتشظية .

وبعد هذه المحاولة التفتنا إلى ما
ترجم وما يجب أن يترجم من آدابنا
العربية إلى اللغات الأجنبية ، ولاحظنا
كما لاحظت هيئة اليونسكو قبلنا أن أكثر
الآثار العربية ترجمت إلى لغات غير
العربية هى قصص ألف ليلة وليلة . وإذا
كان صحيحاً أن ابن سينا وابن رشد
هما دعامة الحضارة الأوربية الفكرية فى
العصور الوسطى فإنه صحيح أيضاً أن
قصص ألف ليلة وليلة هى من أهم
مخصلات الخيال القصصى فى الغرب ،
الأمر الذى سهل مهمتنا ؛ إذ إن هذا
الاختيار قد فرض نفسه على الآداب
الأجنبية فرضاً ولا داعى لإعادة النظر
فيه ، وما عدا ذلك قليل جداً . وحركة
الترجمة من العربية بقيت محصورة فى
أيدى المستشرقين بسبب طبيعة مثل هذا
العمل المتخصص الشاق . ومنذ منتصف

القرن السابع عشر الميلادى قام المستشرقون فى فرنسا وهولندا وإنجلترا وألمانيا بمحاولات جادة لترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة أكثر دقة وأقل تحيزاً من تلك الترجمات المحرفة التى ظهرت فى العصور الوسطى كجزء من الصراع بين المسيحية الغربية والإسلام . أما المعلقات وبعض شعر أبى العلاء والمتنبى فهى تقريباً مجموع ما نقل إلى اللغات الأجنبية وحصل على درجة معقولة من الرواج والتداول ، وفيما عدا ذلك كان الحقل محدداً بأعمال المستشرقين فى ألمانيا وهولندا وفرنسا وإنجلترا . وقد اضطلعوا بمسئولية تحقيق التراث العربى وترجمة أهم نصوصه إلى اللغات الأوربية على نحو لا بد أن نعتزف له بالجدية والأمانة العلمية إلا فيما ندر ، وكان ذلك النشاط فى الترجمة من أهم مظاهر الاستشراق منذ القرن التاسع عشر الميلادى حتى أوائل القرن العشرين عندما انتقلت شعلة تحقيق التراث إلى علماء من العرب أنفسهم . أما الأدب العربى الحديث منذ عصر النهضة

العربية فبقى ينتظر ترجمته إلى اللغات الأجنبية إلى عهد قريب جداً . فإن بعض أعمال طه حسين وتوفيق الحكيم قد ترجم قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولكن لم يترجم العقاد ولا المازنى ولا شوقى ولا حافظ إبراهيم على سبيل المثال إلا بعد الحرب العالمية بسنين ، هذه ظاهرة أشار إليها أحد أعضاء لجنتنا متسائلاً عن السبب فى ذلك .

وقد أجاب أحد زملائه أن السر فى ذلك هو انحصار اللغة العربية بين المتحدثين بها وبعض العلماء المستعربين فى محيط جامعى ضيق للغاية . صحيح أن ترجمة كتاب الأيام بجزأيه كانت بمثابة كشف لأديب مصرى حضرى لم يكن جمهور القراء الأجانب يدركون وجوده من قبل ، ولكن الانطلاق الحق للأدب العربى الحديث جاء فى الواقع عندما رأى بعض المستشرقين من حضارات مختلفة ضرورة ترجمة أدب نجيب محفوظ . وتفسير ذلك فى رأى أحد زملائنا هو أن روايات نجيب محفوظ تجمع بين التسجيل الواقعى لحياة الطبقة

المتوسطة الصاعدة فى مدينة القاهرة والتعبير عن روح تتطلع إلى العالمية فى المشاعر والخبرة الحياتية . لو كان أدب نجيب محفوظ واصفاً لحياة الفلاح المصرى ومشاكل القرية المصرية لما لقي مثل الاستجابة التى لقيها لدى جمهور القراء الأجانب . فإن حياة الحضر - حياة المدينة فى أحيائها التقليدية - هى بذاتها عنصر العالمية التى يشترك فيها كل قراء العالم ، لأن المدينة بما فيها من علاقات معقدة وتشابكات بين الطبقات هى الظاهرة التى تسمو بالمحلية ، ولذلك رأى زميلنا أن أحد الأسباب المهمة فى انتشار أدب نجيب محفوظ وحصوله على جائزة نوبل فى الأدب هو قابليته للترجمة ولنقل رسالته إلى جمهور من المتلقين لا يجدون أية غرابة فى البيئة المصورة ولا فى التفاعل بين الشخصيات وتلك البيئة . وجاء تعقيب على تلك الظاهرة من زميل آخر قائلاً إن حركة الترجمة التى اضطلع بها المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قديماً وهيئة الكتاب حديثاً هى من الأعمال البطولية التى

يجب الاعتراف بقيمتها الحضارية وإن لم تحظ بالإشعاع العالمى الذى أدركه أدب نجيب محفوظ . والمهم فى هذه الحركة التى تصبو إلى إثبات وجود الأدب العربى الحديث أنها استثارت دوائر الاستشراق فى كل أنحاء العالم للاعتراف بقيمة هذا الأدب ، الأمر الذى بث روح الاهتمام بأدبنا الحديث إلى حد أن مجلة لدراسات الأدب العربى عامة والحديث منه خاصة قد ظهرت كلسان حال دوائر الاستشراق العالمية وأن أهم شخصيات آدابنا الحديثة قد أصبحت من مداخل دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها المجددة الحديثة .

ومع ذلك فهل يمكن أن نعقد الأمل على أن يصبح الأدب العربى الحديث أحد الآداب العالمية تداوياً بين قراء الفرنسية والألمانية والروسية والإنجليزية ؟ قال أستاذ جامعى من بيننا إن آفة الأدب العربى الحديث هى استسلامه لكل تيارات الأدب العالمية من أساليب فى النقد التحليلى « كالبنياوية والسيميويتيكا وما إلى ذلك » ومن صيغ التعبير الأدبى

«كاللامعقول بأشكاله ومسرح القسوة والشعر الحر والسوناتات والمونولوج الداخلى أو المناجاة وما إلى ذلك» . قال إن الأديب يريد أن يكون حديثاً قبل أن يكون صادقاً . فأجابه صحفى مخضرم : إن الأديب لابد أن يستعير الصيغ المتعارف عليها فى عصره حتى يصل صوته إلى أوسع جمهور ممكن . فإن التجربة الوجدانية أو الفكرية لا تنتقل من حضارة إلى أخرى إلا من خلال مرشح فنى متواضع عليه . ومعنى ذلك أن الأديب العربى إذا حاول أن يعبر عن خبرته فى مقامة أو قصيدة عمودية ما أمكن لترجمه أن يلتزم بالصيغة الأصلية فى نقل العمل الفنى . وهذا رأى أثار جدلاً واختلافات فى رأى كادت حداثها تعكر جو الود والتأنس بيننا ! فاتفقنا ألا نتفق وأن ننتقل إلى موضوع آخر قد يقودنا إلى تألف وكلمة سواء . ولذا رأينا أن نتحدث فى مسألة المنهج أى منهج الترجمة من العربية وإليها ، وهذا ما شغل بالنا فى عدة جلسات على مر الشهور . بدأنا بالترجمة من العربية

وأبدينا بعض الملاحظات فى هذا الصدد أعتقد أننا أجمعنا عليها ، وهى أن ترجمة النصوص التراثية القديمة لابد أن تلتزم بأسلوب الأصل ؛من حيث ضرورة نقل الصيغ العربية والإسلامية المتميزة من بسملة وحوقلة وعبارات التحية وآداب اللياقة وألقاب الاحترام للأمرء والمسنين والأقارب . كما يحسن أن نلتزم بأسلوب الإنشاء العربى من حيث الترادف والطباق والتكرار البليغ . أما الأدب الحديث فقراؤه غير قراء نصوص التراث المتخصصين ولابد إذن أن نتوخى أسلوباً أكثر تمشياً مع ذوق القارئ الأجنبى ومعنى ذلك عدم الالتزام بالصيغ التقليدية إلا لضرورة فنية ، ومحاولة إسراع إيقاع الجملة حتى ينسجم مع موسيقى اللغة المنقولة إليها ومحاولة اختصار وسائل التعبير بحيث يدرك القارئ الأجنبى ما قل ودل . على أنه يلاحظ بطبيعة الحال أن هذا الإيجاز فى النقل لا يصلح إلا بالنسبة إلى اللغات الغربية . أما اللغات الشرقية كالفارسية واليابانية والتركية واللغات الهندية والصينية فكلها تتقبل

أسلوب العربية وإيقاع الجملة العربية ووقار التعبير بها .

ثم تحدثنا فى مشكلة ترجمة الحوار العربى إلى لغة أجنبية . إن الحوار فى الآداب الأوروبية الحديثة يميل إلى إحدى مستويات العامية سواء أكان ذلك فى القصة النثرية أو المسرحية . والسبب بطبيعة الحال هو أن الحوار المكتوب محاولة لمحاكاة واقع الحوار فى الحياة اليومية . والفرق بين العامية الإنجليزية أو الفرنسية وفصحائها أقل تبايناً منه فى العربية ، الأمر الذى يثير مشكلة أى مستوى أو أى نوع من العامية الأجنبية يصلح لنقل الحوار العربى . واتفقنا على أنه ما يجب استبعاده فى بادئ الأمر هو العامية المحلية أى تلك التى تتعلق بفئة من الناس أو بطبقة اجتماعية معينة . ولاشك أن الشخصية العربية التى تنطق بلهجة لندنية بحتة مفارقة لا يقبلها العقل ولا يستسيغه الذوق العام . لذلك يجب البحث عن صيغة وسطى فيها حيوية التلقائية مع وضوح التعبير . وهذا هو التحدى الصعب . إن مترجمى طه حسين

وتوفيق الحكيم استطاعوا الالتزام بأسلوب العربية لأن ذلك الأسلوب كان جزءاً لا يتجزأ من الوحدة الفنية للنص . أما مترجمو محمود تيمور أو يوسف إدريس أو جمال الغيطانى فقد اصطدموا بمشكلة شاقة لم يصادفها مترجمو نجيب محفوظ مثلاً ؛ إذ أنه التزم فى حوارهِ باللغة الفصحى الميسرة .

أما الجانب الآخر للموضوع فهو الترجمة إلى العربية وهنا لاحظنا أن الخبرة طويلة وأن الحلول المختلفة التى كانت قد تبلورت على مر السنين من أهم المؤثرات فى توطيد أسلوب متعارف عليه يقبله قارئ العربية . لاحظنا كذلك أن المطلوب هو عكس الإيجاز أى أن الجملة العربية مع اقتضابها البليغ تؤدي المعانى المنقولة على نحو أكثر وضوحاً إذا اتسعت رقعتها قليلاً عن الحد المتعارف عليه . وهنا يتأتى التكرار والتقديم والتأخير وتحويل الجمل الاسمية إلى جمل فعلية واللجوء إلى الجمل الاعتراضية لتوضيح المعانى . إن ما يترجم إلى العربية يحسن فى رأينا أن

يرتدى رداءً فضفاضاً حتى لا تختنق المعانى فى مشد الاقتضاب البليغ . كان ذلك رأينا فى الأسلوب العام للترجمة وبخاصة فى ترجمة النثر . أما ترجمة الشعر فآثار ذلك جداً لم ينته . هناك من رأى ضرورة الاقتضاب وذلك حتى بالنسبة إلى نقل الشعر إلى نثر عربى ، لأن الشعر لغة إلماح وكناية ومجاز تثير الخيال وتقوده إلى مدركات معينة من غير تكرار واستطراد . فلا بد من نقل هذه اللغة الخفية - إذا صح ذلك القول - من خلال الترجمة وإن كانت الترجمة نثرية . وهناك من رأى أن الشعر تعبير عن فكر ووجدان بصرف النظر عن جرس أصواته وأن المترجم عليه نقل الفكر والوجدان نقلاً أميناً قبل كل شيء . وكان من بيننا من عمل كثيراً فى محاولات لترجمة الشعر واعترف أغلبهم بأن الأمر عسير للغاية وأن المشكلة تختلف باختلاف كل قصيدة . والموضوع ما زال معلقاً بيننا عندما تذاكرنا فى منح السيدة ثريا علام جائزة الدولة التشجيعية للترجمة الشعرية الانجليزية من الشعر العربى الحديث .

أما الحوار - وبخاصة حوار المسرحية - فهذا ما لم نكن نجد له حلاً فى أذهاننا . واقترح بعضنا أن يبقى حوار المسرح القديم مترجماً إلى الفصحى . فكلما بعدت المسرحية عن سلوك الإنسان الحديث - وإن كانت تتضمن معانى خالدة - كان من اللائق نقل حوارها إلى الفصحى التى تتمتع برصانة ووقار يتمشيان مع جدية الأصل . هذا بالنسبة إلى المأساة اليونانية القديمة وبالنسبة إلى ملهاة أرسطوفانيس التى تتميز بالذكاء والظرف فى التعبير . وكذلك الأمر بالنسبة إلى المسرح الكلاسيكى الفرنسى - مأساة كانت أم ملهاة - لأنه يتميز بالاهتمام بالتعبير البليغ شعراً كان أم نثراً .

أما شكسبير فيشكل مسألة خاصة لأنه كثيراً ما يتخلل مشاهدته الوقورة أو المأساوية أو البطولية حوار عامى هزلى ومحلى اللهجة . فالأولى لابد من ترجمتها إلى الفصحى ولكن ما العمل بالنسبة إلى حوار بين فلاحين أو جنديين أو بحارين بلهجة ويلز أو غيرها من مقاطعات

إنجلترا ؟ ألا يجدر بنا أن نقلد الأصل بما يشبه الزجل ؟ وإذا سلمنا بالعامية هنا فآية نختارها ؟ أهى عامية مصر أو المغرب أو المشرق العربى أو شبه الجزيرة العربية ؟ وإذا اختيرت عامية معينة هل يستسيغها غير أهلها ؟ هناك حل آخر اقترحه أحد زملائنا هو أن نلتزم بالفصحى الميسرة على كل حال ؛ كما فعل إبراهيم التزى فى ملاحيه الموفقة أى توفيق مثل « الجزائر الشاعر » !

والمسرحية الشكسبيرية تتميز «بالنسبة إلى المترجم» بأنها تتناول أحداثاً بعيدة فى الزمان والمكان وبأن الإيهام بالواقع الحديث ليس من مستلزماته إلا إذا أراد ذلك مخرج تجريبى جرىء .

أما المشكلة الكبرى فتأتى عند ترجمة المسرح الأوروبى بعد إيسن أى بعد أواخر القرن التاسع عشر . فإن السمة المميزة لأغلب المسرحيات الأوربية فى المئة سنة الأخيرة هى استخدامهما لغة التعامل اليومى بصرف النظر عن موضوع الحكمة المسرحية . فالسؤال إذن

هو : هل يمكن استعمال الفصحى العربية لنقل واقعية الحوار فى الأصل ؟ لاشك أن الفصحى مع جمالها ومع قدرتها على التعبير عن كل المواقف والمشاعر البشرية لها إيقاع وزمن فى النطق بها أبطأ من إيقاع تلقائية الحديث اليومى ، الأمر الذى قد يضيف على الحوار المترجم جواً من التكلف والخطابية. هذا ليس دفاعاً عن العامية التى قد تؤدي إلى نتيجة عكسية غير مقبولة ؛ ألا وهى الخط من جدية الكلام أو نقله إلى مستويات من السوقية قد تثير الضحك والاستهزاء فى غير مقامها . الخيار ليس سهلاً والوضع نفسه غريب عندما يرى ممثلين وممثلات قمحى البشرة يرتدون ملابس أوربى القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين ويخاطب بعضهم بعضاً بألقاب وأسماء غريبة على روح العربية . الواقع أن المسرحية الحديثة قريبة من ذوقنا العام وبعيدة عنها فى آن واحد . والاعترا ب يع م دارك جمهورنا إلا إذا تجردت المسرحية المترجمة عن ظروف المكان والزمان .

هناك بطبيعة الحال فى تقاليد المسرح العربى محاولة للالتزام بما سميت باللغة الوسطى أو الفصحى الميسرة وذلك بخاصة فى حوار شخصيات الطبقة الوسطى أو المثقفين .

ومع كل هذه الصعوبات وهذه التساؤلات المحيرة اقترح أحد زملائنا أن توجد ترجمتان للنص المسرحى الواحد ، ترجمة بالفصحى هى بمثابة الأصل وترجمة أخرى إلى الفصحى الميسرة السائدة فى كل بلد عربى على حدة ؛ وذلك لتقديم المسرحية على خشبة المسرح المحلية بحسب الذوق المقبول محلياً . وقد يعترض على ذلك بأن مسلسلات التليفزيون - وهى النصوص المسرحية الأكثر رواجاً - لا يمكن أن تكون بأسلوب أو بلهجة مختلفة عن تلك التى يستخدمها فعلاً شخصيات الرواية نفسها وإلا تهشم الإيهام بالواقع . فالفلاح الصعيدى غير المعلمة السكندرية وغير الحلوانى القاهرى وغير البحار البورسعيدى ، ولكل من هؤلاء لهجة

وعامية لا تستقيم معها الفصحى ولو كانت ميسرة .

والواقع أننا لم نختلف فى تكييف المشكلة ولا فى منهج البحث عن حلول لها بل استسلمنا لعسرها ، واتفقنا أن نعلقها حتى نتلمس طريقنا إلى مقترحات جديدة قد نهتدى إليها فيما بعد .

ومع اعترافنا بالحيرة فى ذلك الموضوع استأنفنا النقاش فى موضوعات أخرى متعلقة هى أيضاً بصعوبات المناهج المقترحة . وأجمعنا أولاً على أننا فى أشد الحاجة إلى المزيد من المعاجم ثنائية اللغة ، علماً بأن المورد للإنجليزية والمنهل للفرنسية ما زالا خير سلاحين للمترجم من هاتين اللغتين . وإنما الحاجة الملحة هى إلى معاجم تأتى بالمزيد من الأمثلة والعبارات الاصطلاحية والأقوال المأثورة والتركيبات اللغوية مترجمة إلى مقابلاتها العربية . كما أننا فى حاجة إلى معاجم تنقل إلينا مفردات وتركيبات لغات أخرى غير الإنجليزية والفرنسية على أن تكون هذه المعاجم بأقلام العرب أنفسهم .

إن معاجم المستشرقين قيمة ولاشك في ذلك ، ولكن ينقصها عنصر الذوق العربى المتميز فى اختيار الأساليب والعبارات . هذا بالنسبة لترجمة اللغات الأجنبية إلى العربية . أما العكس فلاشك أنه لابد من التسليم بما قام به المستشرقون كل فى حيز لغته الخاصة . وهناك ملاحظة أخرى بالنسبة لأدوات الترجمة إلى العربية هى أنه أصبح من المسلم به فى دوائر المترجمين العرب أن الترجمة لابد أن تكون من اللغة الأصلية مباشرة دون وسيط . ونحمد الله أن العرب الذين تعلموا اللغات الأجنبية غير اللغات الأوربية الغربية قد زاد عددهم زيادة واضحة .

والترجمة فى جملتها فن لا يقتصر على نقل آلى من مجموعة رموز إلى مجموعة أخرى بل هو منهج للبحث عن نقل مفهومات إلى مفهومات مقابلة لها فى

اللغة المنقولة إليها . لذلك هناك ضرورة ملحة أخرى هى تصنيف مجموعة من الموسوعات المتخصصة فى فروع المعرفة المختلفة تعين ماهية المفهومات المتداولة فى النص المطلوب ترجمته تعييناً يضمن دقة الفهم ووضوح التعبير . ولا يكفى تصنيف الموسوعة المتخصصة بل هناك ضرورة كبرى هى ضرورة تصنيف دائرة معارف عربية شاملة وموسعة يمكن الرجوع إليها كلما احتاج إليها الباحث المترجم . فمسئولية المترجم المعرفية قد تسمو بمسئولته فى دقة نقل المفردات من نظام لغوى إلى نظام آخر . وهذا هو الموضوع الذى بدأ أعضاء لجنة الترجمة يتذكرون فيه منذ الآن ، والحوار يستمر وتنقلب المحاورات إلى جدل تارة ، وتتحول المجادلات إلى توفيق بين القضية ونقيضها تارة أخرى . وهذا هو منهجنا فى البحث عن الحقيقة التى نتقبلها .

مجدى وهبة

عضو المجمع

المعارف البيولوجية فى رسائل إخوان الصفا

للدكتور عبد الحافظ حلمى محمد

الأمم ماضٍ وحاضر ومستقبل ،
أصول جذورها مستمدة من ماضيها ،
وجهودها مبذولة لحاضرها ، وتطلعاتها
متوجهة إلى مستقبلها . وهى تضل إن
نسيت أو تناست ماضيها ، وتهلك إن
أهملت مستقبلها ، فالأمة الحية تاريخ
متصل . وقد حظيت دراسة التاريخ
بمكان كريم على مرّ العصور . والتاريخ
الحضارى هو أصدق دراسات التاريخ ،
والعلم من أقوى دعائم الحضارة ، ومن
ثم كانت دراسة تاريخ العلم من أرفع
دراسات التاريخ والعلم جميعاً . بيد أن
لدراسة تاريخ العلم عندنا أهمية خاصة ،
فدراستنا لتاريخ العلم فى الحضارة
العربية والإسلامية ، وإظهار الدور الرائد
لأمتنا فى مسيرة ركب الحضارة
الإنسانية فيهما إقناعٌ لقومنا بانتمائنا
للعلم وانتماء العلم لنا ، ويأن العلم
الغريب الوافد إلينا فى العصر الحاضر
هو بضاعتنا ترد إلينا ، نتناولها فى ألفة

واستيعاب ، ونُسهم فى تقدمها إسهام
الأصلاء ، لا الغرباء الدخلاء . ثم إن
دراسة تاريخ العلم ثقافة ومتعة . ومن
المؤسف حقاً أننا نجد بعض أهل الغرب
أكثر منا احتفاءً بتاريخنا .

بيد أن دارس تاريخ العلم مهدد
بالانزلاق إلى محظورين ، فهو إن كان
محباً لمن يدرس تاريخهم قد يغريه هذا
بالمبالغة والتفاخر الأجوف بهم ، وادعاء
سبقهم غيرهم ، وأما إن كان شائئاً أو
حاسداً إياهم قد يستهويه هذا إلى
التهوين من إنجازاتهم . ولكن الدارس
الموضوعى ينبغى أن يضع لنفسه مقاييس
للحكم دقيقة . فالإنجازات العلمية
الماضية لا بأس بمقارنتها بأحوال
عصرنا ، ولكن ينبغى أن تقوم بمقاييس
عصرها ، مع محاولة تتبع أصولها
السابقة من ناحية ، وآثارها اللاحقة من
ناحية أخرى . ولا أجد أفضل ولا أدل من
كلمة « العدل » لهذا الميزان الدقيق .

واذكر أن ابن الهيثم قد ذكرها وهو
يرسى منهاج الدراسة العلمية الصحيحة.
واليوم أدعوكم إلى أن نغمض أعيننا
عما حولنا ساعةً من الزمان ، ونعود
بأذهاننا إلى مدينة « البصرة » في
النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى
(أو العاشر الميلادى) . وكان فى ذلك
العصر اضطراب سياسى لم يحل دون
ازدهار الحضارة والعلم ، حتى أن القرن
الرابع الهجرى يُعدُّ بحق العصر الذهبى
للحضارة الإسلامية ، الذى كتب عنه آدم
ميتز كتابه العظيم عن حضارة الإسلام ،
وألف أحمد أمين الجزء الأول من كتابه
القيم « ظهر الإسلام » . وهو العصر
الذى أنجب البتانى والرازى والفارابى
والبوزجاني وغيرهم ، وتلاه مباشرة لمعان
النجوم الثلاثة : البيرونى وابن الهيثم
وابن سينا .

فى ذلك الوقت قام صفوة من أهل
الثقافة والعلم ، أو الإنتيليجنتسيا كما
يقال ... جماعة تصافت نفوسهم ،
وتعارفت أرواحهم ، فتآخوا على البر

والتقوى ، ورأوا أن يتعاونوا على نشر
الثقافة العالية ، وأسموا أنفسهم « إخوان
الصفاء ، وخلان الوفاء » . ورتب الإخوان
أنفسهم مراتب أربعاً وفقاً لأعمارهم ،
وآثروا أن يستقروا وأن تكون اجتماعاتهم
قاصرة عليهم خشيةً على أنفسهم من
السلطان أو تعنت الخاصة أو جهالة
العامة . لذلك فنحن لا نعلم شيئاً مؤكداً
عن أشخاصهم . ومع ذلك حرص
الإخوان على أن يذيع علمهم ، فنشروا
ثقافتهم فى اثنتين وخمسين رسالةً
ورسالةٍ حاهمة للإجمال والتلخيص .

ويقول الإخوان إن مصادر علمهم
هى الكتب المنزلة ، وكتب الحكماء فى
الرياضيات والطبيعات ، وكتب الطبيعة
المشاهدة نفسها ، بأفلاكها ومعادنها
ونباتها وحيوانها . وكان الإخوان يهدفون
إلى التوفيق بين القرآن الكريم والعلم
الإغريقى فيما زعموا ، وقالوا إنه متى
انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية
والشريعة العربية الإسلامية ، فقد حصل
الكمال . وهذا من قبيل ما نراه فى أيامنا

هذه من محاولات تتردد بين الشطط والسداد . وكانت دائرة معارف الإخوان واسعة ، فهم فيثاغوريون مُحَدِّثُونَ وجابريُّون (نصر ، ١٩٧٨) . وهم ينسبون بعض ما يقولون إلى «صاحب المنطق» (أى أرسطو) أو إلى «صاحب الحكمة» (أى أفلاطون) أو صاحب العدد (أى فيثاغورس) ، أو إلى نيقوماخوس . ويدل استخدامهم لبعض الألفاظ الفارسية الأصل على مصادر فارسية الثقافة في ذلك العصر . ولا بد أنهم كانوا يستقون ، على أية حال ، من موارد العلم الثرة التي جمعت روافدها في ذلك العصر ، وانصهرت في بوتقة الحضارة الإسلامية التي اكسبته صيغة عالمية جديدة في ظل سماحة الإسلام المؤلّف بين القبائل والشعوب . وكان الإخوان متفتحين غاية التفتّح ، ولعل هذا كان بعض ما أحفظ بعض الناس عليهم ، فهم كانوا يقولون : «وبالجملة ينبغي

لإخواننا ، أيدهم الله تعالى ، أن لا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب ، كلها ويجمع العلوم جميعا ... » (١٠:١)* . ويقول ماجد فخري (١٩٨٣) ،
في كتاب The Genius of Arab Civilization
إن جماعة إخوان الصفا كانت من أكثر الجمعيات الدينية الإسلامية تسامحا .

وكان الإخوان يوافقون الفيثاغوريين في احتقارهم للجسد واعتباره سجنًا للروح يجب تخليصها منه ، ويكون ذلك بالعبادة والتأمل . وهم لا يفتأون ينصحون إخوانهم بأن يزكوا أنفسهم ليعدها للنعيم المقيم . وقد وافقوا الفيثاغوريين في أن للعدد شكلا وهيئة ، وهو أنه جوهر الأشياء كلها . كما أنهم كانوا يتبنون فلسفة الأيونيين عن الطبائع الأربع والأركان أو العناصر أو الأسطقسات الأربعة ، والأخلاط الأربعة . وهم في

* في هذا الموضع والمواضع اللاحقة يشير الرقم الأول إلى رقم المجلد من رسائل الإخوان (من ١ إلى ٤) ويشير الثاني إلى رقم الصفحة (طبعة دار صادر ، ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٧) .

الوقت نفسه يتابعون الأفلاطونيين المحدثين في إضفاءهم قوى نفسية روحانية عليا على الأفلاك السماوية ، وفي أنها موجهة من الخالق للتأثير في الكائنات التي دون فلك القمر ، أى التي على الأرض . وكان هذا كله يوقعهم - عندما يتورطون فيه - فى حبالات من التخييل ومتاهات من الخيال . وهذا هو الجانب السيئ للتراث الإغريقى عندهم ، ولكنه قليل فى المجال العلمى الذى سوف نتعرض له فى حديثنا اليوم ، بل إننا سوف نرى لهم علما نيراً ناصع الوضوح والبرهان .

وقد طُبعت رسائل الإخوان بضع طبعات حديثة نسبيا ، منها ما صدر فى كلكتا وبومباي والقاهرة ، والطبعة التى كانت بين يديّ صادرة فى بيروت عام ١٩٥٧ . وفيها تقع الرسائل فى زهاء ألفى صفحة (١٩٦١ صفحة) موزعة على أربعة مجلدات . والرسائل الاثنان والخمسون مقسمة إلى أربعة أقسام : أولها «الرسائل الرياضية التعليمية» ،

وعدها أربع عشرة رسالة ، فى العدد والحساب والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، والجغرافيا ، وتصنيف العلوم النظرية والعملية ، والأخلاق ، والمنطق . ويشمل القسم الثانى سبع عشرة رسالة فى «الجسمانيات الطبيعيات» . أما القسم الثالث فهو عشر من الرسائل «النفسانية العقلية» . وأخيرا يضم القسم الرابع تسع عشرة رسالة فى «المسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية» ، آخرها رسالة طويلة فى السحر والعزائم والعين . والرسائل متفاوتة كثيرا فى طولها ، وفى كل رسالة عدد متفاوت أيضا من الفصول .

والرسائل عمل متكامل يعرضه الإخوان عرضا تعليميا تربويا . ففى مقدمتها عرض شامل للرسائل كلها ، وكل رسالة تبدأ بمقدمة قد تضم موجزا لما سبق من الأمور المرتبطة بها ، وتنتهى بتمهيد لما بعدها . والإخوان كثيرون الربط والمقابلة فى المواضع المناسبة ، يذكرّون بما يسبق ويشيرون إلى ما هو آت .

ويستتبع هذا بالضرورة تكرارا ملحوظا وشيئا من التداخل ، وكان هذا موضع مؤاخذه من بعض الناقدين . وتعتمد الرسائل على بسط الأمور العلمية وتقريبها للأفهام بالتشبيه والتمثيل وقليل من النوادر والطرف . ويستشهد الإخوان بالقرآن الكريم والحديث الشريف في المواضع المناسبة دون افتعال ، وكما أننا لم نتحقق من شخصيات الإخوان ، لم نتحقق أيضا من أشخاص كاتب رسائلهم أو كاتبها ، والرسائل تجري بصفة عامة على نسق واحد ، ولكن يستبعد أن يكون قد كتبها كلها مؤلف واحد ، وذلك لشدة تنوع علومها وتباين موضوعاتها ، ولعل الرسائل كان لها محرر أو هيئة تحرير ، بلغة العصر ، لتوحيد الأسلوب ، ولو أن هذا لم يمنع بعض التناقض الذي يكشفه القارئ المتمعن .

وينتهز الإخوان الفرص المواتية للانتقال من تقديم المعلومات إلى التأمل والتنويه بالقيم والإشارة إلى العبرة

والمغزى ، وهو أسلوب طالما نادينا باتباعه عند تقديم العلوم ، ولا يحرص كثير من مدرسي العلوم وأساتذتها على اتباعه ، مع أنه يضيف على العلم بعدا إنسانيا حيا ، ويجعله يخاطب العقل والوجدان معا ، كما أنه يعمل على إرساء الاتجاهات والميول الصحيحة ، كما يقول التربويون ، ويؤثر الإخوان أسلوب الخطاب ، فهم لا يفتأون يهمسون إلى قارئهم : " واعلم يا أخى ، أيدك الله بروح منه ، كذا ... وكذا " . وهكذا يعيش قارئهم معهم فى جو أخوى ودود حميم .

ومن مزايا الرسائل أيضا ، لغتها السلسلة المناسبة التى تتفق وتناول العلوم . وإنك لتجدها تشبه أسلوب الكتابة فى عصرنا ، إلا أنها فى عمومها أحلى وأفصح . وإنى لأجدها أطوع وأسلس وأقرب إلى الفهم والمتابعة من حيوان الجاحظ ، مثلا . وقد أصاب طه حسين ، حين قال عن الرسائل : " ليس من الغلو أن يقال إنها قاربت المثل الأعلى فى تذليل اللغة العربية وتيسيرها لقبول ألوان العلم

على اختلافها " (١٩٢٨: ١٥) . وسوف أكثر في حديثي من اقتباس عبارات الإخوان بنصها .

ومما يؤيد إعجابي بمنحى الإخوان التربوي ما جاء في الرسالة السادسة والعشرين من أن ملكا أراد أن يربّي أولاده على العلم والحكمة ، فبنى لهم قصرا ، وصوّر لهم في قبة مجلسهم فيه « صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها ، وأبراج طلوعاتها ، وكذلك الكواكب وتحركاتها ، وأوضح دلائلها وأحكامها » ، فهذه هي القبة السماوية كما نعرفها اليوم . « وصوّر في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم ، وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار ... » ، وهذه هي الأطالس المجسمة . « وصوّر في صدر المجلس علم الطب والطبائع ، وصوّر النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها ، وبين خاصيّتها ومنافعها ومضارها ... إلخ » (٤٦١/٤٦: ٢) ، وهذه هي وسائل الإيضاح التعليمية بأنواعها .

فجماعة الإخوان إذن جماعة علمية تعليمية تثقيفية في المحل الأول ، ويقول هوليارد E. J. Holmyard ، في افتتاحية عدد أبريل ١٩٤٧ من الدورية العالمية اللندنية Endeavour ، إنها واحدة من أقدم الجمعيات العلمية التي تحققنا من وجودها ، وأن اهتمامات أعضائها لتتفق كثيرا واهتمامات الذين أقاموا الجمعية الملكية في لندن بعد قرون ، ويقول المستشرق الهولندي الكبير دي بور (١٩٣٨) إن أعضاء جماعة الإخوان نالوا من الرقي حظاً وافراً . وكان للجمعية فرع في بغداد ، ولا يشك طه حسين في أن أبا العلاء اتصل بذلك الفرع ، ويقول إنه وجد في الرسائل أحسن تفسير لكثير من غوامض لزوميات أبي العلاء . وإذا ألقينا نظرة شاملة على نشاط الهيئات العلمية في مصر الآن ، وجدنا أن المجمع المصري للثقافة العلمية هو الأقرب لنموذج جماعة الإخوان ، فكلتا الهيئتين جماعة علمية تنويرية تثقيفية غير متخصصة ولها رسائل ، مع الفوارق

طبعاً ، وأولها أن المجمع علني مُشهرٌ لا يستتر .

أما رسائل الإخوان فهي ، كما قدمت عمل علمي تثقيفي تربوي فريد . وهي موسوعة أو دائرة معارف لعلوم عصرها من الطراز الأول وبكل معاني الكلمة ، جيدة التأليف والتبويب ، وقد أرادها كاتبوها أن تكون علمية فلسفية خالصة ، فلم يتعرضوا للتخصصات المهنية إلا بإشارات عابرة . فهم مثلاً لم يكتبوا في الطب ، مع أن مصادر الرازي الغنية كانت قريبة المنال منهم . وأوصى الإخوان كل من يحصل على « رسائلهم ألا يضعها إلا في حقها ، ولا يمنعها عن مستحقها ، فإنها جلاء وشفاء ونور وضياء » (١ : ٤٥) ؛ ولكنهم أوصوه بأن يتحرز في حفظها وإسرارها وإعلانها وإظهارها ، ونبهوه إلى أن الضياء لا يصلح إلا لمن صح نظره ، ولا يستريح له من كان عليل الطرف أرمم العين .

فالإخوان إذن قد أرادوا أن تذيع رسائلهم ، ولكن بشروط . وقد تحقق

أملهم بأكثر مما كانوا يقدرّون على أغلب الظن ، فقد ذاعت الرسائل في المشرق ، وانتقلت إلى الأندلس وذاعت في المغرب . وقد تُرجمت الرسائل إلى الفارسية والتركية والهندية (نصر ، ١٩٧٨) .

وكان المستشرق الألماني فريدريك ديتريشي شديد الإعجاب بها ، ولفت إليها الأنظار وقد ألف كتاباً من ثمانية أجزاء ، ونشره منذ أكثر من مئة عام (١٨٥٨ - ١٨٧٩) ، عن العلوم الفلسفية عند العرب في القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري) ، واعتمد في كتابه كله على الرسائل ، ونشر في برلين عام ١٨٨٦ كتاباً بعنوان « خلاصة الوفاء في اختصار رسائل إخوان الصفاء » ، كان قد أعدّه مؤلف عربي مجهول - (أحمد زكي ، ١٩٢٨ ، محمد غلاب ، ١٩٦١) . ويعتقد دي بور ١٩٣٨ أن قراء الرسائل كانوا أكثر على مر العصور وأن آثارها كانت بعيدة المدى ، وأكبر دليل على هذا كثرة مخطوطاتها الحديثة نسبياً التي عُثِرَ عليها في المكتبات ، وأن الرسائل هي

التي افلحت في أن تستوطن الفلسفة الإغريقية الشرق ، وأنه قد رجع إليها كثير من علماء المسلمين اللاحقين ، كابن سينا ، وأن الإمام الغزالي لم يكن يتحرج في أن يقتبس مما فيها من خير . وعندى إحساس كاليقين أن ابن خلدون قد اتخذها من مراجعه . ومع ذلك كله لم تجد الرسائل ما تستحق من عناية العلماء العرب المحدثين ، الذين يتناولونها بالدراسة التحليلية النقدية العادلة . وقد كتب أستاذى الدكتور عبد الحليم منتصر ، فى مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلم عام ١٩٦٣ يقول : " ... وإن دراستها (أى الرسائل) لتحتاج إلى جهد عصبية من أولى العزم من العلماء ، يتوافرون على الغوص فى أعماقها لاستخراج ما بها من كنوز ليس إلى حصرها من سبيل " (عبد الحليم منتصر، ١٩٦٣ : ٢٣) . وهذا هو ما أحاول الآن تحقيق بعضه بجهدى المتواضع .

وقد قيل الكثير عن مذهب الإخوان الدينى ، وعما يحتمل من مراميهـم

السياسية البعيدة ، ولكننى لن أتعرض لهذا بشئ ، فهو ليس موضوع بحثى ، ثم إنه قد أصبح على أية حال تاريخاً من التاريخ ، وإنما سوف ينحصر همى فى عرض المعارف البيولوجية فى رسائل الإخوان ، وهى مبنوثة بصفة أصلية فى القسم الثانى برسائله السبع عشرة ، وبصفحاته التى تناهز السبعمئة (٦٦٣ صفحة) ، موزعة على المجلد الثانى كله وجزء من المجلد الثالث ، ولن يسمح الوقت إلا بالتعرض لأبرز ما اصطفيته من هذا الـجم الكبير .

ولتكن بدايتنا الأرض ، مهد الحياة والأحياء . وهى عند الإخوان كرة معلقة فى الفضاء بجميع ما عليها بإذن الله (٢) : ٢٧ ، ٩١) . ولزيادة إيضاح الصورة يقولون لقارئهم إن الإنسان حيث وقف تكون رجلاه إلى أسفل مما يلى مركز الأرض ، وهو يرى من السماء نصفها .. (١ : ١٦١) . وكروية الأرض هى الاعتقاد السائد عند الفيثاغوريين . وإخوان يتبعون أرسطو وبطليموس فى أن الأرض

هى مركز الكون ، ولذلك يصفون كل ما عليها بأنه دون فلك القمر .

وأهم من هذا أن الرسائل تظهر إحساس الإخوان بالزمن الجيولوجي ، وتقرر أن وجه الأرض متغير ، وتصف التعرية ودورة الترسيب . فهي تشرح كيف تتفتت الجبال ، ثم يحمل المطر والسيل صخورها ورمالها إلى الأودية والأنهار ثم إلى البحار ، « وإن البحار ، لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها ، تبسط تلك الرمال والطين والحصى فى قعرها بيافيا على ساف بطول الزمان والدهور ، ويتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت فى قعور البحار جبالا وتلالا ، كما تتلبد من هبوب الرياح أدماص الرمال فى البرارى والقفار » (٩٤:٢) . وتلفت الرسائل الأنظار إلى أنه لو كانت الأرض مستوية ، لتغطى سطحها كله بالماء ، ولا نعدمت اليابسة (٩٣:٢) .

وأعجب ما لفت نظرى فى هذا الشأن

* العُكْرُش : نبات عشبي من الفصيلة النجيلية ، منبسط مداد .

تصويرهم لما يمكن أن نسميه ظاهرة التتابع succession التى يتكلم عنها الإكولوجيون المعاصرون ، ولو فى صورتها العامة البسيطة . (وسنعود إلى هذا عند الكلام على علاقات الاغتذاء) . فعندما ترتفع أماكن من البحار ، « ينصب عنها الماء حتى تظهر ... وتصير جزائر وبرارى ويصير ما يبقى من الماء فى وهادها وقعورها بحيرات أو آجاما أو غدرانا ، وينبت فيها القصب والأوحال ، فلا تزال السيول تحمل إلى هناك الطين والرمال والوحول ، حتى تجف تلك المواضع وتنبت هناك الأشجار والعكرش* والعشب ، وتصير مواضع للسباع والوحوش ؛ ثم يقصدها الناس لطلب المنافع والمرافق من الحطب والصيد وغيرها ، وتصير مواضع الزروع والغروس والنبات بلدانا وقرى يسكنها الناس » (٩٥:٢) . وهم فى مثل هذا الوضوح يصفون دورة الماء فى الطبيعة (٥٨:٢) .

وكذلك هم يُجَمِّلُون الكلام عن دورة

« الكون والفساد » ، أى دورة البناء ثم التحلل والهدم . « مثال ذلك أن يصير القتراب والماء نباتا ، ويصير النبات حبا وثمارا ، والثمار والحب يصيران غذاء ، والغذاء يصير دما ولحما وعظما ، فيكون من ذلك حيوان . والفساد أن يحترق النبات فيصير رمادا ، ويموت الحيوان فيصير ترابا » (٥٩: ٢) . ويتبع الإخوان أمبيدوكلس وأرسطو ، وغيرهما من الفلاسفة الأيونيين ، فى رد الموجودات على الأرض كلها إلى الأركان أو العناصر أو الأسطقسات الأربعة : النار والهواء والأرض والماء ، فبعد التحلل تعود الكائنات إلى عناصرها الأولى ، لتصبح صالحة للدخول فى دورة كون أو بناء جديدة .

وفى الرسالة الواحدة والعشرين « فى أجناس النبات » ، فكرة جلية واضحة عن ثبات خصائص النوع ، وأصول الوحدة والتنوع بين الأحياء . وهذه من أهم المبادئ الجوهرية فى علم الأحياء . فتقول الرسالة إنه إذا تأملنا أحوال النباتات لم

نجد « شيئا منها يخرج عن صورة جنسه أو يتجاوز عن أشكال نوعه ، وذلك أنه مارئيت قط ورقة زيتون خرجت من شجرة جوز ، ولا حبة شعير خرجت من سنبله حنطة (١٥٣: ٢) . وكذلك الحال فى الحيوان ، فما « رُئِيَ قَطُّ خرج مهر من رحم ناقة ، ولا جدى خرج من رحم بقرة ، ولا كركى خرج من بيض نعامة ، ولا فروج خرج من بيض حمامة » (١٥٣: ٢) .

وفى بحثهم عن علة ثبات خصائص النوع يقولون : " واعلم يا أخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه : بأن لكل نوع من النبات أصلا ، فما أصله لكيموس ما ، ولكيموسه مزاج ما ، لا يتكون من ذلك المزاج إلا ذلك الكيموس ، ولا يتكون من ذلك الكيموس إلا ذلك النوع من النبات ، وإن كان يُسقى بماء واحد ، وينبت فى تربة واحدة ، ويلحقها نسيم هواء واحد ، وتنضجها حرارة شمس واحدة . فالهيولى الأولى موضوعة لقبول جميع الصور ، ولكن الهيوالات الثوانى كل واحدة منها لا تقبل الصور إلا بأعيان مخصوصة " (١٥٤: ٢) .

وهذا كلام جميل ودقيق ، ولكنه محتاج منا إلى شئ من التأمل فمن معانى « كيموس » الإغريقية المعربة ، معنى شائع فى كتبنا الدراسية فى هذه الأيام : وهو الطعام بعد فعل المعدة فيه . وهذا ليس المعنى هنا بكل تأكيد . ومن معانيه أيضا : عصارة النبات . وهذا المعنى وارد هنا . ولكننا نفهم أن هذا الكيموس له مزاج معين ، أو خصائص لازمة به ، تختلف عما فى غيره من أنواع النبات ، وهى التى تجعل النبات ينشأ وينمو فى صورة بنيانه الخاص به . فهذا الكيموس ذو الخصائص النوعية هو الذى يظهر خصائص النوع الموروثة التى تحدد هويته ، على الرغم من أنه ينمو فى بيئة ينمو فيها غيره من النبات ، وهو ليس البروتوبلازما بمعناها العام . و « المزاج الخاص » أشبه هنا بما أسماه فايزمان البلازما الجرثومية فى أواخر القرن التاسع عشر (عام ١٨٨٥) ، والتى تمخضت فى النهاية عن تشخيص جهاز الوراثة ومادتها فيما بعد . ونحن نفهم

من كلام الإخوان أن « الهيولى الأولى » جوهر عام ، وفيه أصل الوحدة ، أما « الهيولات الثوانى » فهى جواهر نوعية متخصصة ، وفيها أصول التنوع . وتاريخ العلم هو تاريخ أفكار ، ويقول جورج سارتون ، مؤرخ العلم العظيم ، إن الأفكار تتساب عبر التاريخ فى لطف وخفاء ، ولو تحت الأرض ، على حد تعبيره (Sarton, 1937) .

وفى موضع آخر من هذه الرسالة ، يقول الإخوان : « واعلم ياأخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، بأن البارى ، جل ثناؤه ، لما أبدع الموجودات ، واخترع الكائنات ، جعل أصلها كلها من هيولى واحدة ، وخالف بينها بالصور المختلفة ، وجعلها أجناسا وأنواعا مختلفة متفنة متباينة ، وقوى ما بين أطرافها ، وربط أوائلها وأواخرها بما قبلها رباطا واحدا على ترنيب ونظام ، لما فيه من إتقان الحكمة وإحكام الصنعة ، لتكون الموجودات كلها عالما واحدا منتظما نظاما واحدا وترتيبيا واحدا ، لتدل على

صانع واحد » (١٦٦:٢/١٦٧) . « ويرى الإخوان أن ما يقال إنه من فعل الطبيعة، إنما هو ، فى الواقع وفى غاية الأمر ، من فعل الله » (٣٩٤:٢) .

ويرى الإخوان فى هذا التنوع دليلا على قدرة الخالق البارئ ، سبحانه وتعالى . وفى موضع متأخر من الرسالة التالية يقولون إن الرحمن « لما احتجب عن رؤية الأبصار بحجب الأنوار ، وجل وعلا عن تصور الأوهام والأفكار، أظهر مصنوعاته إلى مشاهدة الأبصار ، وأخرج ما فى مكنون غيبه إلى الكشف والإظهار والبيان ، ليدركه العيان ويستغنى عن الدليل والبرهان » (٢٧٦:٢) . وهذا الكلام الصوفى الجميل يردده المؤمنون فى كل العصور ، بل إن هذه المعانى محور رئيسى فى أسلوب القرآن الكريم لهداية الناس إلى الإيمان بالله .

والمناشط الفيزيولوجية فى النبات (وفى الحيوان أيضا) يصفها الإخوان بأنها « قُوًى » ، ويقولون إن هناك ملائكة موكلة بهذه القوى ، « وأعلم يا أخى أن

الله، جل ثناؤه ، قد أيد النفس النباتية بسبع قوى فعالة ، وهى القوة الجاذبة ، والقوة الماسكة ، والقوة الهاضمة ، والقوة الدافعة ، والقوة الغازية ، والقوة المصورة، والقوة النامية » (١٥٦:٢/١٥٧) . وفى هذا كلام يطول ، فهم مثلا يقولون عن وظيفة الامتصاص فى النبات إنها تحدث بفعل القوة الجاذبة التى تمتص نداوة الماء بعروق النبات كما يمتص الحجام الدم بالمحجمة ، أو كما تمص النار الدهن بالفتيلة ، ومع الماء الممتص تتجذب الأجزاء الترابية اللطيفة ، أى العناصر الغازية (١٥٧:٢) .

وفى هذه الرسالة (السادية والعشرين) وصف لتوزيع النبات من جهة الأماكن (الفصل الثالث) ومن جهة الأزمان (الفصل الرابع) . وفيها أيضا عرض مُجمل رائع لمورفولوجية الأوراق (١٦٢:٢) وألوانها (١٦٢:٢/١٦٣) ، وشكل الثمار وتركيبها (١٦٣:٢-١٦٦) . وفى هذا الجزء ثروة لغوية من الأسماء والأوصاف .

وحسن فهم علاقات الاغذاء بين
الأحياء من أهم المعارف البيولوجية
المعينة على تصنيف الكائنات وإدراك
العلاقات التطورية بين مجموعاتهما ،
وإخوان يرسمون خطأ واضحاً بين ما
نسميه اليوم الاغذاء الذاتى (autotrophic
nutrition) فى النبات ، وما نسميه
الاغذاء المباين (heterotrophic
nutrition) فى الحيوان . وأبلغ دليل على
ذلك ما سوف اقتبسه لكم مما كتبوه عن
نبات طفيلى ، يسمونه الكشوث ،
ويشخصه النباتيون الآن أنه من جنس
Cuscuta الذى يضم أنواعا من النباتات
المتسلقة المتطفلة على البرسيم وكثير من
نباتات المحاصيل ، ومنها «الحامول» .
وفى هذا يقول الإخوان : « وفى النبات
نوع آخر فعله أيضاً فعل النفس
الحيوانية ، لكن جسمه جسم النبات ،
وهو الكشوث . وذلك أن هذا النوع من
النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما
يكون لسائر النباتات ، ولا له أوراق
كأوراقها ، بل إنها تلتف على الأشجار

والزروع والشوك ، فتمتص من رطوباتها
وتتغذى بها ، كما يتغذى الدود الذى يدب
على ورق الشجر وقضبان النبات ،
ويقرضها فيأكلها ويتغذى بها . وهذا
النوع من النبات ، وإن كان جسمه يشبه
النبات ، فإن فعل نفسه فعل الحيوان .
فقد بان بما وصفنا أن آخر الرتبة
النباتية متصل بأول المرتبة الحيوانية ،
وأما سائر المراتب النباتية فهى بين
هذين » (٢ : ١٦٨) .

وهذه الملاحظة الأخيرة تغرينا بأن
نستقرى الرسائل لنتحسس أى أفكار
تطورية عند الإخوان . وسوف أفعل هذا
فى إيجاز ، لأنه قد يكون ضمن بحث
مستقل عن الفكر التطورى عند العلماء
المسلمين . فما سبق لنا أن اقتبسناه عن
ربط الخالق لأوائل الكائنات وأواخرها
"لتكون الموجودات كلها عالماً واحداً
منتظماً نظاماً واحداً وترتيباً واحداً" ،
قد يؤكد فكرة النظام فى كائنات خلق كل
منها خلقاً مستقلاً ، وأن هذه الروابط لا
تدل إلا على وحدة الخالق . ولكن إشارات

أخرى فى الرسائل قد تجعلنا نُعيد النظر فى هذه النتيجة ، وأنها ليست كلُّ ما فى الأمر .

والواقع أن أول توثق عهـدى بالرسائل كان عندما كنت أعد بحثاً عن الأفكار التطورية عند علماء المسلمين فى القرون الوسطى للمؤتمر السادس عشر لتاريخ العلم وفلسفته الذى عقد فى بوخارست عام ١٩٨١ .

فالإخوان يقولون فى موضع من الرسالة الثانية والعشرين : " ثم اعلم يا أخى بأن النبات متقدم الكون والوجود على الحيوان بالزمان ، لأنه مادة لها كُلهـا، وهيولى لصورها ، وغذاء لأجسادها، وهو كالوالدة للحيوان ، أعنى النبات " (٢ : ١٨٠) . وفى موضع متأخر من الرسالة السادسة والعشرين يقول كاتب الرسالة : " فالمعادنُ أُسبِقُ فى الكون ، ثم النباتُ ، ثم الحيوانُ ، ثم الإنسان " (٢ : ٤٧٣) . وهنا ، « ثم » - التى تفيد الترتيب مع التراخى ، كما يقول النحاة - تؤكد معنى الخلق المتدرج.

وهناك أيضاً ما سبق أن اقتبسناه من أن آخر المرتبة الأدنى متصل بأول المرتبة الأعلى . ويذكر الإخوان أيضاً " أن الحيواناتِ الناقصةُ الخلقة [أى : الدنيا] متقدمةُ الوجود على التامة الخلقة بالزمان فى بدء الخلق " ويقولون أيضاً : " إن حيوانَ الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان " (٢ : ١٨١) . ويقولون فى موضع آخر : " ثم اعلم يا أخى بأن الحيواناتِ كُلُّها متقدمة الوجود على الإنسان بالزمان ، لأنها له ولأجله . وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه " (٢ : ١٨٢) . وهذا الكلام سوف يؤكدُه ابنُ خلدون فى مقدمته العظيمة ببعض ألفاظه ، ولكن بصورة أوضح ، بعد الإخوان بأربعة قرون .

وإنى لا أبعد فى الإستنتاج أكثر من هذا ، فالإخوان أنفُسُهم مترددون بين ما ذكرته من آرائهم ، وبين قولهم فى موضع آخر إن " الحيواناتِ التامةُ الخلقة كُلُّها كان بدءُ كونها من الطين أولاً من ذكر وأنثى توالدت وتناسلت وانتشرت فى

الأرض سهلاً وجبلاً ، وبراً وبحراً ... " (٢ : ١٨١) . وأنا لا أزعم ، على أية حال ، أنه قد كان للإخوان « نظرية للتطور » قبل لامارك أو دارون أو غيرهما ، وإنما قُصارى ما أقوله إن ثقافة الإخوان كانت تتقبل الفكر التطوري ، عندما كانت أوربا فى عصورها المظلمة ، والأفكار التطورية ضاربة فى القدم منذ المصريين القدامى ، ومنذ أناكسيماندر وإمبيدوكلس وغيرهما من فلاسفة الإغريق ، أساتذة الإخوان . وفى هذا الصدد يقول سارتون (١٩٤٣) : " إن علماء اللاهوت المسيحيين فى أوربا كانوا أقلّ ترحيباً بالأفكار التطورية عن سابقهم من المسلمين .

والرسالة الثانية والعشرون " فى كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها " تشغل مئتين صفحة وتضم اثنتين وستين فصلاً . ويقول الإخوان إن الحيوان يشارك النبات فى الغذاء والنمو (ولا ننسى تفرقتهم بين أسلوبى الاغتذاء فى النبات والحيوان) ، ويزيد عليه وينفصل

عنه بأنه جسم متحرك حساس . أما الإنسان فإنه يجمع خصائص النبات والحيوان ولكنه يزيد عليها وينفصل عنها بأنه ناطق مميز { أى : عاقل } (٢ : ١٨٠ ، ١٨٤) . وهم يصنفون الحيوان مراتب ، مرة على أساس عدد الحواس المتمتع بها ، ومرة وفقاً لأعضاء الحركة أو إصدار الأصوات ، ومرة على أساس مورفولوجى ، ومرة وفقاً لطريقة التكاثر . وهذه ليست تصانيف كالتى وضعها أرسطو أو الجاحظ ، وإنما هى تبدو كمداخل لعرض التنوع الواسع فى عالم الحيوان ، وبصورة مقارنة .

وأعضاء الحيوان كلها متكاملة متعاونة (٢ : ١٩١) ، وكلما كان الحيوان أتمّ بنية وأكمل صورة ، كان أكثر حاجة إلى أعضاء كثيرة لبقاء شخصه ونتاج نسله (٢ : ١٩٢) . ولكن الإخوان يلتفتون إلى مبدأ بيولوجى قد يفوت بعض مدرسى هذه الأيام إفهام تلاميذهم إياه . وذلك أن الحيوانات الصغيرة الأجسام الخالية من الجلد

السميك ومشتقات الجلد الواقية كالشعر والوبر والصدف والفلوس ، لا تحتاج إلى الرئة وكثير من الأعضاء الأخرى ، لأن نسيم الهواء يتصل إلى عمق أبدانها (١٩٢:٢). ولكن ينبغي أن ننتبه إلى أن الإخوان لم يعرفوا الكائنات المجهرية ، أو تشريح الكائنات الدقيقة ، ولو أننى أبادر فأقول إنهم ذكروا فى موضع آخر أن البقرة " مع صغر جثتها ، لها ست أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لا يدركها البصر " (١٨٨ : ٢) .

ويصف الإخوان التكيفات المورفولوجية والوظيفية فى الحيوانات المائية وفى الطيور ، والعواشب ، والمجترات ، والسباع . ويكفى أن أشير هنا إلى قولهم عن الطيور إن الباريء الحكيم ، جل ثناؤه ، جعل أبدانها "مختصرة" ليخفف عليها النهوض فى الهواء والطيران فيه (١٩٣ : ٢) . ولفظة " مختصرة " هى أدق ما يقوله علماء التشريح المقارن فى هذا الشأن .

وقد اختص الإخوان الطيور بفصل فيه عرض مقارن رائع عن تشريح الطيور ، وصور طيرانها وهبوطها ، وهيئتها فى أثناء طيرانها ، وطرق توازن أجسامها عند الطيران ، وعن أوقات نشاطها ، وغذائها ، وطرق صيد الطيور الجوارح فرائسها ، وعن دورات تكاثرها وأنواع عشاشها وطرق تغذيتها لأفراخها . ويذكرون نظرية فى الملاحة الجوية للطيور وهجرتها ، فهم يقولون إن : " الحمام الهادى يعرف سمت البلد المقصود بالنظر فى جو الهواء إلى جريان الأنهار وميل الأودية ، ثم السوادات ، ويتيامن عن الجبال ، ويتياسر عنها وعن مهب الرياح فى تصاريفها . وهكذا تعرف الطيور التى تشتت فى البلاد الدفيئة وتصيف فى البلدان الباردة مواقعها " (٢٠١ : ٢) . ومازالت هذه النظرية قائمة بين النظريات المقبولة اليوم لتفسير أسرار الملاحة الجوية للطيور . وعند الكلام عن الطيران يجمع الإخوان بين الحشرات والطيور ولكنهم لا يخلطون بين المجموعتين فى غير ذلك .

ويستعرض الإخوان تعريف الحشرات على نحو مُرضٍ ، فيقولون : " ومما يطير من الحشرات ماله جناحان ، ومنها ماله أربعة أجنحة ، ومنها ماله ست أرجل وأربعة أجنحة ومَشْفَر ومخالب وقرون كالجراد ، ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ، ومنها ماله مشفر وحمة كالزنابير " (١٨٥ : ٢) . (المشفر : الشفة) .

وفي موضع متأخر يقدم الإخوان وصفاً صحيحاً لدورة حياة الجراد ، فيقولون إنها إذا سمئت أيام الربيع تطلب أرضاً طيبة التربة ، رخوة الحفرة ، وتنزل هناك وتحفر بأرجلها ومخالبها ، وتدخل أذناها في تلك الحفرة ، وتطرح بيضها فيها ، وتدفنه ثم تطير ، وتعيش أياماً ثم تأكلها الطيور ، ويموت من يبقى منها من حر ومن برد . فإذا دار الحول ، وأقبل الربيع ، انتشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض ، وأكلت من ورق الشجر ، وسمئت وباضت مثل العام السابق ، وهذا دأبها ، " وذلك تقدير العزيز العليم " (٢ : ٣١٢) .

وهذا الكلام ليس إغريقياً بطبيعته . ولم أجده في كتاب " أجزاء الحيوان " لأرسطو (الذي ترجمه يوحنا بن البطريق وحققه عبد الرحمن بدوي) . ولم أجده أيضاً في منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب " الحيوان " ، التي حصرتها الباحثة العراقية وديعة طه نجم . ولكنني وجدت شيئاً منه في حيوان الجاحظ (السابق على الإخوان) ، ولكن في صورة غير معقولة ، فالجاحظ يذكر " انفراج الصخور لأذنا الجراد " (الجاحظ ، جزء ٥ : ٥٥٠) . ثم وجدت الدميري يتعرض للموضوع في " حياة الحيوان الكبرى " بعد الإخوان بأربعة قرون ، فينقل عن الجاحظ ، ويقدم صورة أسطورية غير معقولة ، فيقول : " وهو إذا أراد أن يبيض التمس لبيضه الموضع الصلدة والصخور الصلبة التي لا تعمل فيها المعاول ، فيضربها بذنبه فتفترج له فيلقى بيضه في ذلك الصدع ، فيكون له حاضناً ومربياً " (الدميري ، جزء ١ : ٣١٥) . فما جاء في رسائل الإخوان هو

الصحيح ، أو أقربها إلى الصواب ولكن
إنصافاً للجاحظ أذكر أنه أبدى تعجبه من
هذا الأمر : " لأن ذنب الجرادة ليس في
خَلْقَةِ المسمار ، ولا طرف ذنبها كحدِ
السَّنان " (٥٤٩) .

وقد أفرد الإخوان جزءاً كبيراً من
رسالة الحيوان يضم أربعة وأربعين
فصلاً تقع في مئة وخمس وسبعين
صفحة، لسلسلة من المناظرات الشائقة
بين الإنسان وشتى طوائف الحيوان ، بل
مع الجن أيضاً . والسيناريو الذي يُعده
الإخوان يتألف من جزيرة " صافون " في
" البحر الأخضر " ويحكمها " بيرات
الحكيم " ملكُ الجن . وكانت الجزيرة
عامرة بالأشجار والفواكه والثمار والبقول
والرياحين وأنواع الزرع والحب مما تنبته
أمطارُ السماء . وكان في الجزيرة
أصنافُ الحيوانات من البهائم والأنعام
والطيور والسباع والوحوش والهوام
والحشرات ، تعيش كلها في وئام وسلام .
أو هي ، كما نقول في هذه الأيام ، البيئة
الطبيعية المتوازنة .

ثم رمى القدر سفينة جانحة إلى
شاطئ الجزيرة وفيها قوم من الإنس .
وهؤلاء سرعان ما تناسلوا وكثروا ،
واستأنسوا الأنعام والبهائم واستعبدوها ،
وفرت منهم طوائف الحيوان البرى .
وهكذا اختل التوازن الطبيعي بفعل
الإنسان . وهذا يذكرنا ببیت أبی العلاء
المرير :

والأرضُ ليس بمرجُو طهارتُها

إلا إذا زال عن آفاقها الإنس

وراحت الأنعام والبهائم تشكو إلى
ملك الجزيرة ظلم الإنسان لها . وهنا تبدأ
سلسلة طويلة من المناظرات بين الإنسان
وتلك الحيوانات . ثم تطوّر أمرُ هذه
المحاكمة ، فأراد الملك أن يستشير
الحيوانات البرية أيضاً ، فأرسلت كلُّ
جماعة منها مندوباً ، بعد حوار ممتع
يدور بينها* . وفي جلسة الحكم الأخيرة ،
يحضر الجميع ، ويوضع الإنسان في
مواقف محرّجة كثيرة ، ولكنه في النهاية
ينتصر بحجة أنه موعود بالبعث والنشور ،

* وكان ابنُ أوى ، كليله أخدمته ، هو مندوبُ السباع .

والخلود في الجنة إن كان من المتقين ومن أولي الأبواب والأبصار والنهي ، ومن عباد الله الصالحين ، وبشرط أن يراعى واجبات خلافته لله في الأرض .

وفي هذا الجزء من رسالة الحيوان عرضٌ شامل لأنواع من الحيوانات وخصائصها وطبائعها ، غنيٌّ بأسماء الحيوانات وكُنُهاها ، وفيه كثير من النقد للمجتمعات البشرية بما فيها من نفاق ورشوة وفساد . ويبدو أن الإخوان قد أنطقوا الحيوانات بكل ما كان يجيش في نفوسهم عن المجتمع من حولهم . والأسلوب جاحظٌ مُقَفَّعٌ . فاستخذ أنواع الحيوان شخوصاً للحوار يجرى على طريقة كلية ودمنة لابن المقفع ، وكثرة الاستطراد وأسلوب المناظرة يذكراننا باستطرادات الجاحظ والمناظرة الطويلة التي أوردها في كتابه بين صاحب الكلب وصاحب الديك . ويشعر الإخوان أنهم خرجوا في هذا الجزء عن أسلوبهم الرصين ، فيدافعون عن أنفسهم، وينبهون قارئهم قائلين : " لا

تظنُّ بنا ظن السوء ، ولا تعدُّ هذه الرسالة من ملاءبة الصبيان ، ومخارفة الإخوان ... " (٢ : ٣٣٧) .

ولكن ليهنأ الإخوان في مضاجعهم ، فهذا الجزء قد استهوى الكثيرين ونال تقديرهم . فأحمد زكي باشا ، في مقدمة طبعة القاهرة من الرسائل (١٩٢٨) يوصي القارئ بالاهتمام بها ، ويشير إلى أن العلامة ديتريخى الألماني قد طبعها على حديثها . وقد نشر J. Platts في لندن ، عام ١٨٦٩ ، ترجمة لها بالإنجليزية . ويبدى الباحث الإيراني سيد حسين نصر (Nasr, 1976) في كتابه Islamic Science ، إعجابه الشديد بجمالها ، ويقول إن وقتنا الحاضر هو أوان نشرها لتفاقم الكارثة البيئية المعاصرة . وليس ثمة مجال في حديثنا الليلة لعرض هذا الجزء ، مهما كان العرض موجزاً ، وإنما سوف أقتطف منها لقطات .

لما افتخر العراقي ببلده وقومه وتاريخهم ، اعترض حكيم من الجن ،

يُقال له " صاحب العزيمة والصرامة " ،
 فإنه كان لا يحابى أحداً ، وقال : إنه (أى
 العراقى) لم يَقُلْ : ومن عندنا خرج
 الطوفان ، وفى بلادنا اختلفت الألبس ،
 وتبليت العقول ، وتحيرت الأبواب . ومنا
 كان نمرود الجبار ، ونحن طرحنا إبراهيم
 فى النار . ومنا كان بخت نصر مخرب
 إيليا (أى القدس) ومحرق التوراة ،
 وقاتل أولاد سليمان ، عليه السلام ، وآل
 إسرائيل ، وهو الذى طرد آل عدنان من
 شط الفرات إلى بلاد الحجاز ، المتمرد
 الجبار ، الفتاك السفاك للدماء (٢: ٢٨٠)
 وهكذا كان الحال مع الهندي ، والعبراني
 والشسامي ، والسرياني ، والقُرشي ،
 واليوناني ، والخُراساني ، والأعرابي
 والفارسي ، والحجازي .

ولما افتخر اليوناني بعلوم قومه
 وحكمتهم وفلسفتهم ، ذكره صاحب
 العزيمة بأنهم أخذوا بعضها من آل
 إسرائيل أيام بطليموس ، وبعضها من
 علماء أهل مصر أيام مسيطوس ،
 ونقلوها إلى يلادهم ونسبوها إلى أنفسهم .

ولكن اليوناني يقر بهذا ويقول : إن
 علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من
 بعض ، وإنما تكثر العلوم فى أمة دون
 أمة ، وفى وقت دون وقت ، عندما يكون
 لها السلطان ، فتغلب سائر الأمم وتأخذ
 فضلها وفضائلها ، وعلومها وكتبها (٢ :
 ٢٢٨) . وهذا بعض ما سوف يقوله ابن
 خلدون فى مقدمته الشهيرة فيما بعد .

وقد تناولت البيغاء بالنقد اللاذع
 طوائف البشر جميعاً ، من الخطباء
 والشعراء والمتكلمين ، والمنجمين ، ومن
 الفلاسفة ، والمهندسين والمساح ،
 والأطباء ، والتجار ، وأرباب النعم ، والكتاب
 والعمال وأصحاب الدواوين أى الموظفين ،
 بل حتى القراء والعُباد ، والفقهاء والعلماء ،
 والقضاة ، والخلفاء . فالأطباء ، مثلاً ، ما
 كُثِّروا إلا لشراهة الناس وانغماسهم فى
 الشهوات ، ولا يقف على بابهم إلا كلُّ
 عليلٍ مريضٍ سقيم ، كما لا يُرى على باب
 المنجم إلا كلُّ منحوس أو منكوب أو
 خائف ، فلا يزيده المنجم إلا نحساً على
 نحس (٢ : ٣٥٧) . أما المهندس فإنه

يعمل في معرفة ارتفاع رعوس الجبال ، وعمق قعر البحر ، وتفسير البراري والقفار ، وتركيب الأفلاك ومراكز الأثقال، وما شاكل ذلك ، وهو مع ذلك جاهلٌ بخيفية تركيب جسده ، ومساحة جثته ، ومعرفة طول مصاريه ، وسعة تجويف صدره وقلبه ورئتيه ودماعه ، وخلقة معدته وأشكال عظامه ، وتركيب مفاصله ، وما شاكل ذلك مما معرفته به أسهل ، وفهمه لها أقرب ، وعلمه بها أوجب ، والتفكر فيها أنفع ، والاعتبار بها أهدى وأرشد إلى معرفة ربه وخالقه ومصوره (٢ : ٣٥٧) .

وهذه المهارات الأدبية الجاحظية ممتعة ولكنها غريبة على أسلوب الرسائل، ولعلها مجازاة لبدعة كانت رائجة في ذلك العصر ، لاجتذاب القراء إلى الموضوعات العلمية الجافة . وهي ، على أية حال ، لا تخلو من فائدة وحكمة ، وتنبؤ فيها معارف بيولوجية ، قدمت بعضها في مواضع سابقة ، ولكنني أزيد عليها ملاحظة أو ملاحظتين . أولاهما ذكر

الحيوانات التي نسميها الآن " الحيوانات المعيشة للإنسان " ، كالكلاب والسنانير والفئران والجرذان وبنات عرس ، وأن إليها تنتقل شراة الإنسان فتصابُ بأدوائه . وهم لم يذكروا طبعاً انتقال الأمراض من تلك الحيوانات إلى الإنسان . وقد غضبت السباع من الكلاب والسنانير لأنها تنكرت لأقاربها ومالات الإنسان . فيقول الذئب إن الله قد نزع البركة منها لهذا السبب ووضعها في الغنم . وهنا يعقد الكاتب مقارنة بين جماعات الكلاب وجماعات الغنم . فمع أن الكلبة تلد عدداً كبيراً من الجراء لا يرى منها في البر قطيع . وذلك لأن الآفات والعلل تسرع إلى صغار الكلاب والسنانير قبل الفطام، فيعرض لها من الأمراض المختلفة ما لا يعرض للسباع البرية منها شيء . وهذا صورة مما نسميه اليوم دراسة لدينامية الجماعات (population dynamics) .

والملاحظة البارعة الثانية هي عن تخصص الطفيليات ونحوها وتكيفاتها ،

وقد قالها الصُّرُصُرُ ، مندوب الهوام .
فهذه الكائنات الضعيفة كفاها الله مشقة
الطلب وأسباب الهرب ، وذلك أنه جعلها
في مواضع كنيئة وأماكن حريزة ، مثلاً
في حب النبات أو أجواف الحيوانات
الكبار ، وجعل غذاءها مختصاً بها
ومحيطاً لها ، فهي تمتصه امتصاصاً .
فمن أجل هذا لم يخلق الله لها رجلين ولا
يدين ولا فماً ولا أسناناً ولا معدة ولا
أمعاء ، وما إلى ذلك مما هي في غنى عنه
(٢ : ٢٧١) . والملاحظة في جواهرها
صادقة ذكية بارعة .

ومثل ذلك حديثهم عن القشاشات
والترمات ، فهي هوامٌ تنشأ من المواد
الفاسدة والعفونات الكائنة ، ليصفو الجو
وحتى لا تتسبب العفونات في الأوبئة
وهلاك الحيوانات كلها . ثم تكون تلك
الحيوانات الصغار مأكولة وأغذية لما هو
أكبر منها ، وذلك من حكمة الخالق جل
جلاله ، أنه لا يصنع شيئاً بلا نفع ولا
فائدة (٢ : ٢٧٥) . وينبغي علينا أن
نتغاضى عن فكرة نشأة الكائنات من

العفونات ، فإنها لم تُصَحَّح إلا بعد قرون
وكذلك عن " الغائية " التي كانت سائدة في
فلسفة ذلك العصر . فيما عدا هذا
فالملاحظة من القواعد الإكولوجية
الصحيحة عن دور القشاشات وسلاسل
الغذاء .

والذي ختم المناظرات والمحاكمة ،
وكان في قوله فصل الخطاب ، إنسان
عالمى فائق ، أو سوپرمان ، صاغه
الإخوان هكذا : " العالم الخبير ، الفاضل
الذكي ، المستبصر ، الفارسي النسبة ،
العربي الدين ، الحنفي المذهب ، العراقي
الآداب ، العبراني المخبر ، المسيحي
المنهج ، الشامي النسك ، الرباني الرأي ،
الإلهي المعارف ، الصمداني " (٢ : ٣٧٦) .

وأما الرسالة الثالثة والعشرون (في
تركيب الجسد) ، فليس فيها كثير غناء .
وهم يشبهون جسم الإنسان مرة بالمدينة ،
ومرة بالدار ، ومرة بديكان الصانع . وهم
يغرقون في اتجاه فيثاغوري بتكلف إيجاد
روابط بين الأعداد ومكونات جسم
الإنسان . وسوف أتجاوزها إلى الرسالة

التي بعدها ، وهي فى نظرى دُرَّةٌ فى هذه المجموعة من الرسائل ، وهى الرسالة الرابعة والعشرون " فى الحاس والمحسوس " ، وهى رسالة قصيرة محكمة ، صفحاتها ثلاث وعشرون . وهى تفضل من نواحٍ " مقالتين فى الحواس " ، كتبهما عبد اللطيف البغدادى بعد أكثر من قرنين .

ويبدأ الإخوان هذه الرسالة بمقدمة أرسطية فى تحليل المحسوسات ، وهى أجسام طبيعية تتألف من جوهر مركب من الهيولى والصورة . والصورة إما مقومة وإما متممة . والصورة المقومة هى الطول والعرض والعمق ، أى هى الجِرم أو الحجم والشكل ، وأما الصورة المتممة فهى ما يعرض لهذا الجسم من حركة وإضاءة وحرارة وثقل وملمس ، وما إلى ذلك . وبالنسبة للإضاءة قد يكون الجسم مظلماً أو نيراً أو مُشَقّاً . وهم يفرقون بين اللون الطبيعى الملازم للجسم ، كسواد العين وخضرة النبات ، واللون العَرَضى ، كالزرقة التى تُرى فى الجو وفى عمق الماء القعير . وهذه ملاحظة دقيقة بارعة .

وفى وضوح بين يحلل الإخوان عملية الإحساس إلى ثلاثة عناصر . أولها : المحسوسات ، وهى أعراض حالة فى الأجسام الطبيعية مؤثرة فى الحواس . أى أنها بلغة عصرنا ظواهر طبيعية أو مؤثرات stimuli . وثانيها : الحس ، وهو تغيير مزاج الحواس بسبب مباشرة المحسوس لها ، أى أنها ، بلغة عصرنا ، هى العملية الفيزيولوجية التى تحدث تغيراً فيزيائياً كيميائياً فى عضو الحس . وثالثها : الإحساس ، وهو شعور القوى الحساسة لتغيرات كيفية أمزجة الحواس ، أى أنها عملية الإدراك العقلية ، التى تحدث فى مراكز الدماغ (٤٠١:٢) . وهذا التحليل دقيق وصادق حتى اليوم .

وهم يُعرِّفون الحواس الخمس أيضاً تعريفاً دقيقاً ، ويقسمون المحسوسات تقسيماً مستوعباً متقصياً . ويؤسفن أن الوقت يضيق عن تفصيل ذلك ، ولكننى أكتفى بالإشارة إلى بعض القضايا البارزة فيه . منها أن القوة اللامسة مجراها فى عامة " سطح بدن الحيوان

الرقيق الجلد ، ولكنها فى الإنسان أظهر وبخاصة فى الأنامل . وحاسة اللمس نسبية تتفاوت بحسب اختلاف مزاج أعضاء البدن . فشعور الإنسان بحرارة غرفته يختلف عنده قبل دخول الحمام الحار وبعدده . وإذا وضع الإنسان يده على ثوب فوجده ليناً ، ثم مسحه على خده ، وجده خشناً ، " لأن خد الإنسان أبداً ألين لمساً من يده فى أكثر الأوقات " (٢ : ٤٠٤) . تأمل دقة التعبير .

والشئ الذى أذهلنى أنهم جمعوا حاستى الذوق والشم فى فصل واحد ، على أساس تشابه أساسهما الفيزيولوجى . وهذا ما لا نجده فى بعض المؤلفات الحديثة . فالطعوم هى الحلاوة والمرارة والملوحة والدسومة والحموضة والحرافة والعفونة والعذوبة والقبوضة . وإدراك مذاقها « هو أن تتصل رطوبة هذه الطعوم [أى محاليلها] برطوبة اللسان فتمتزجان [كذا] فيعتبر [صحتها : فيتغير] مزاج اللسان بحسب ذلك الطعم » (٢ : ٤٠٥) . أما الشم

«فهو أن الأجسام نوات الروائح يتحلل منها فى دائم الأوقات بخارات لطيفة تمتزج مع الهواء مزاجاً روحانياً ، ويصير الهواء مثلها فى الكيفية ، إن كان طيباً فطيباً ، وإن مُنْتِناً فمُنْتِناً . والمسألة هنا أيضاً نسبية ، فمن الحيوانات ما يستلذ رائحة السماد والجيف ، ومن الناس أيضاً من هو بهذا الوصف مثل السُمَّادين والكناسين » (٢ : ٤٠٥ - ٤٠٦) .

والأمر الأعجب أنهم يُعَلِّقُونَ على الحواس الثاثة ، اللمس والذوق والشم ، بأنها " تُدْرِكُ إدراكاً جسمانياً بالماسية " ، وكونهم يقولون إن الشم حاسة بالمماسية غاية فى حسن الفهم . و" أما القوة السامعة والقوة الباصرة ، فإنهما تُدْرِكَان محسوساتهما إدراكاً روحانياً فقط " (٢ : ٤٠٧) . وسوف يتضح أنهم يدركون أنهم فى السمع والبصر بصدد موجات . فكلمة (روحانى) هنا تعنى (موجياً) أو هى مقابل ما نسميه (طاقة) ، أو تعنى شيئاً لطيفاً لا يُرى .

والأصوات قسمان : حيوانية وغير حيوانية . والأصوات الحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية . وغير الحيوانية نوعان : طبيعية وآلية . " وكلُّ هذه الأصوات إنما هي قَرَعٌ يحدث في الهواء من تصادم الأجسام . وذلك أن الهواء لشدة لطافته وخفة حركته وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها . فإذا صادم جسمٌ جسماً انسلَّ ذلك الهواء من بينهما بحمية وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، فحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزُّجاج [صحتها : الزجاج ، أى صانع الزجاج] فيها ، أو الماء الساكن إذا أُلقي فيه حجر فيتزاحم الماء حتى يبلغ إلى أطراف الغدير . وكلما اتسع ذلك الشكل ضُعُفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل . فمن كان حاضراً من الناس وسائر الحيوانات التي لها أذن بالقرب من ذلك المكان ، تموج ذلك الهواء الذي هناك ، فأحسست عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة والتغير " (٢ : ٤٠٧ - ٤٠٨) .

وبهذه المناسبة أعود إلى أوائل هذا القسم من الرسائل ، عندما ذكر الإخوان أن الهواء يمنع النيران برطوبته أن تيبس وتجف ، أى أن فيه ما يساعد على دوام الاشتعال ، وأنه يمنع الأصوات بسيلانه أن تثبت زماناً طويلاً ، فهي لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها منها ، ثم تضمحل . " ولو ثبتت الأصوات في الهواء زماناً طويلاً ، لامتلا الهواء من الأصوات ولعظم الضرر منها ، حتى لا يمكن أن يُسمع ما يُحتاج إليه من الكلام والأقاويل " (٢ : ٥٣ / ٥٤) .

ولا أقول إن فكرة موجية الأصوات من ابتكار الإخوان ، فقد وصف أرسطو (في العقد الرابع قبل الميلاد) الحركة الموجية ، وإن لم يستعمل لفظة "الموجة" ، أما زينو Zeno ، مؤسس المدرسة الرواقية في القرن الثالث قبل الميلاد ، فقد استعمل لفظة "موجة" ووصف الحركة بأنها كرية ، وشبهاها بالدوائر التي تظهر في خزان إذا أُلقي فيه بحجر (پول غليونجي ، وسعيد عبده ، ١٩٧٢ : ١٨٥ ، هامش ٧) .

أما القوة الباصرة فهي تحس
بالأنوار والظلم والألوان والسطوح
والأجسام أنفسها وأشكالها وأبعادها
وحركاتها وسكونها وأوضاعها . والضوء
هو الذى يحمل معه ألوان الأجسام
وأوصافها التى تقدم ذكرها حملاً
روحانياً ، وحفظها بهيئتها ، حتى لا
يختلط بعضها ببعض ، فيفسد هيأتها ،
كما حمل الهواء الأصوات بهيأتها ، كما
وصفنا قبل ... " فإذا اتصل الضوء "
بحدقتى الحيوان الحاضر هناك ، وسرى
فيهما كسريانه فى سائر الأجسام
المشفة، انطبعت الجليدية بتلك الألوان ،
كما ينطبع الهواء بالضياء ، فعند ذلك
تحسُّ القوة الباصرة بذلك التغيير ،
فتؤدِّي خبره إلى القوة المتخيلة ... "
(٤٠٩:٢).

ويُفندُ الإخوان النظرية التى قال بها
أفلاطون وظلت سائدة فى كثير من
الأوساط حتى ذلك العصر ، فيقولون :
" وقد ظن كثير من أهل العلم أن إدراك
البصرِ المُبصراتِ إنما يكون بشعاعين

يخرجان من العينين ، وينفذان فى الهواء
والأجسام المشفة ، ويدركان هذه
المبصرات . وهذا ظنٌّ من لا رياضة له
بالأمور الروحانية ، ولا بالأمور الطبيعية ،
ولو ارتاض بها ، لبانَ له صحة ما قلنا
ووصفنا " (٢ : ٤٠٩) . فالإخوان إذن
يتبنون النظرية الصحيحة التى سوف
يرسى ابن الهيثم دعائمها بشكل قاطع
فى كتابه الأشهر " المناظر " .

ثم يقدم الإخوان صورة دقيقة لعمل
الجهاز العصبى ، فهم يقولون : " إنه
ينتشر من مقدم الدماغ عصبات لطيفة
لينة تتصل بأصول الحواس ، وتتفرق
هناك وتنسج فى أجزاء الدماغ كنسج
العنكبوت ، وهذا الوصف غاية فى الدقة .
« وتجتمع آثار المحسوسات كلها عند
القوة المتخيلة كما تجتمع رسائل أصحاب
الأخبار عند صاحب الخريطة ، فيوصل
تلك الرسائل إلى حضرة الملك ، ثم إن
الملك يقرؤها ويفهم معانيها ، ثم يسلمها
إلى خازنه ليحفظها [الذاكرة] ،
فيحفظها إلى وقت الحاجة إليها

[التذكُّر]» (٢ : ٤١١) . وهم يقولون إذا رأى الناظر السراب فظنه ماء ، فهذا ليس خطأ القوة الباصرة ، وإنما هو خطأ القوة المفكرة . وهم هنا يشيرون إلى ما يسمونه قوى النفس الخمس الروحانية . وهى : المتخيلة ، والمفكرة ، والحافظة ، والناطقة ، والصانعة .

وتقدير الإخوان أن الحواس الخمس كلها منتهاها إلى الدماغ (أى المخ) من مفاخر هذه الرسالة ، فإن أرسطو قال فى موضع من كتاب "أجزاء الحيوان" إن الحواس كلها مبدؤها القلب ، وفى موضع آخر قال إن اللمس والذوق مبدأهما القلب ، وأما الثلاثة الأخرى فهى فى الرأس (أجزاء الحيوان ، ص ١٠٠ ، هامش ١) . ولم يتعرض عبد اللطيف البغدادي فى مقالتيه عن الحواس ، بعد الإخوان بنحو قرنين ، إلى هذه النقطة . ولكن للأسف لقد أصبت ببعض خيبة الأمل ، عندما وجدت فى الجزء الثالث من الرسائل ، بعد نحو ١٧٥ صفحة ، أن الكاتب يقول : " ثم اعلم أن منتهى كل حاسة إلى القلب

مقرها ، وعنده موئلها " (٣ : ١٠٥) . ولعل الكاتب يشير إلى القلب هنا بمدلول مجازى . وهذا دليل على أن الرسائل من تأليف عدد من الكاتبين لا كاتب واحد ، ومثل أيضاً على ما ندُّ عن التفات من قام أو من قاموا ، بالتحريير والإخراج .

وقد كان كلام الإخوان عن "مسقط النطفة" ، أو النمو الجنينى للإنسان ، فى الرسالة الخامسة والعشرين ، على نقيض وضوحهم ودقتهم فى الكلام عن الحواس . فهم هنا تائهون بين الطبائع والأركان الأيونية القديمة ، ويجعلون نمو الجنين فى كل شهر واقعاً تحت تأثير نفس أحد الأجرام السماوية . فهو فى الشهر الرابع ، مثلاً ، واقع تحت تأثير الشمس ، ورئيسة الكواكب ، ولذلك يحدث فيه تخلُّق كثير . ومتابعاتهم لتطورات نمو الجنين فى شهور الحمل لا تطابق أو تقارب الواقع الذى يعرفه العلم الآن . ومن أوهامهم أنه كلما طال مكث الجنين فى رحم أمه قصر عمره بعد الولادة ، وأن مدة الحمل الطبيعى ثمانية أشهر أو ٢٤٠

يوماً (٢ : ٤١٧) ، وما زاد عن ذلك أو نقص فهو شذوذ . ويبدو أن هذا من تسلط الفكرة الفلسفية عن تأثير الأفلاك عليهم . (ولو أنهم في موضع متأخر - ص ٤٤٢ - يقولون إن مكث الجنين في الرحم تسعة أشهر كي تتم بنيته وتُستكمل صورته) . ومن أوهامهم أيضاً أن سرُّ الجنين تكون متصلة بسرة أمه . ولم أجد هذا الوهم عند أرسطو في كتاب "طبائع الحيوان" (ص ٤٧٨) .

ويقرر الإخوان أن نطفة الإنسان هي "زبدة دم الرجال" (٢ : ٤٢٠) اتباعاً لنظرة سقراط من أن نطفة الرجل تنتج في الدم من خلال عملية "إنضاج" ، ومن ثم فهي تتلقى أنقى العناصر وأقدرها على الإنشاء (35 : 1979 ، Magnier) . وهذه الفكرة هي التي سوف يحييها ويطورها تشارلس دارون عام ١٨٦٨ ، في نظريته (المؤقتة) عن "النشوء من كل موضع Pangenesis" عندما أراد أن يتدارك نقطة الضعف الجوهرية في نظريته عن الانتخاب الطبيعي ، وهي إيجاد تفسير للوراثة وظهور الصور

المغايرة للوالدين . بل إن مؤرخة العلوم البيولوجية Magnier (المصدر السابق) تقول إن البيولوجي الأمريكي المعاصر Delbruck يتمادى باعتقاده إن فكرة أرسطو هذه هي بشارة اكتشاف دور الـ DNA في الوراثة !

ولا أحب أن أحرمكم سماع هذه الطرفة اللطيفة . يقول الإخوان إن الله ، عز وجل ، قد وزع رزق الإنسان من السعادة ، فجعل قسماً منها لطول العمر ، وقسماً لرغد العيش . " فمن أجل هذا ترى كثيراً من سعداء أبناء الدنيا الرغدى العيش يكونون قصيري الأعمار ، وترى كثيراً طويلى الأعمار ناقصي رَغْدِ العيش " (٢ : ٤٥٢) . ومما يُحكى في ذلك أن ملكاً رأى في داره شيخاً كبيراً يعمل سقاءً ، فقال له : كم تُعَدُّ من الخلفاء ؟

فقال له : كثير !

فقال له متعجباً : ما بالكم تطول أعماركم، وتنقص أعمارنا ؟

فقال له السقاء : لأن أرزاكم تجيئكم مثل أفواه القرب ، وإن أرزاقتنا تجيء مثل قطر المطر .

فاستحسن الملك قوله ، وضحك ، وأمر له
بجائزة حسنة أغناه بها . ثم تفقده بعد
قليل ، فسأل عنه فعرف بموته ، فقال :
صدق ، لما جاء الرزق مثل أفواه القرب
فَصُرَّ عمره !

والرسائل الباقية من رسائل
"الجسمانيات الطبيعيات" ، وعددها ست ،
فيها تكرار كثير لما سبق عرضه ، وفيها
استطرادات لا أجد لها ارتباطاً وثيقاً
بموضوع الحاضرة ولا وقتاً . وهي
تشمل نحو مئتي صفحة من آخر المجلد
الثاني وأول المجلد الثالث .

وبعد ، أرجو أن تغفروا لى أننى قد
أطلت وأثقلت ، ولكن عذرى هو أننى كنت
قد آليت على نفسى أن أقدم لكم عن
مجموعة الرسائل التى عرضتها صورة
وافية فكأنكم قرأتموها ، أو لعلها تغرى
بعضكم بالرجوع إليها . ولعلكم توافقوننى
على أن فى تلك الرسائل ثروة من
المعارف البيولوجية الصحيحة ، فضلاً
عما فيها من جمال وامتاع . وأعتقد أن
القيمة الحقيقية لرسائل الإخوان أنها
موسوعة للمعارف العامة فى عصرها ،

عظيمة الفائدة للتاريخ العلمى لذلك الوقت
من تاريخ الحضارة الإسلامية ، بل
للحضارة الإنسانية كلها ، لأن الحضارة
الإسلامية كانت وقتئذ هى جبهتها
المتقدمة . أو أن قيمتها على وجه التحديد
هى أنها تقدم ما رآه صفوة من علماء
ذلك العصر الحد المناسب للثقافة العلمية
فى الموضوعات التى طرقتها ، فهى
ليست كل علم عصرها ، فإنك سوف
تجد ، مثلاً ، أن البيرونى وابن الهيثم ،
الذين عاصرا الإخوان بعض الوقت ،
يكتبان فى تخصصاتهما أكثر جداً مما
قدمه الإخوان . وهذا المقدار الأساسى
من الثقافة العلمية فى القرن الرابع
الهجرى يجعلنا ندرك إمكانات التقدم
الهائلة التى كانت كامنة فى تلك
الحضارة ، ولكن حالت أحداث دون بلوغها
غاياتها ، ولو أنها كانت المرتكز الأسمى
لحضارة الغرب التى نعيشها فى هذا
الزمان .

ويقول أحمد زكى باشا (١٩٢٨) إن
رسائل الإخوان ، كغيرها من الأعمال
العظام ، كانت وستكون فى جميع

الأزمان والبلاد ، عرضة لسهام الطعن والانتقاد . وهذا حق ، فمعاصر الإخوان، أبو حيان التوحيدى ، صاحب "الإمتاع والمؤانسة" ، يقول عن الرسائل ، فيما رواه ابن القفطى ، « قد رأيت جملة منها، وهى ميثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية . وهى خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات » . ولعل أبا حيان كان يمالئ الوزير صمصام الدولة فى رده هذا عليه عندما أحس ارتياب الوزير فى الإخوان ، أو لعله كان يدفع عن نفسه الريبة لأنه كان متصلا ببعضهم . ولا نعرف ما الذى اطلع عليه من رسائل الإخوان ، ولو أنها كانت القسم الذى استعرضناه الليلة ، وكان أبو حيان بيولوجيا ، حتى من بيولوجى هذا الزمان ، لما قال صادقا ما قال .

أما عن اتهامهم بالتلفيق والتلزيق ، فهو أيضا تهمة باطلة فيها شىء من الحقيقة ، ولعلها راجعة لطبيعة العمل الموسوعى ، من ناحية ، ولسعة اطلاع الإخوان وعزمهم على التوفيق بين

المذاهب المختلفة من جهة أخرى . ومع ذلك ، تبدو الرسائل فى جملة أعمال متكاملة كما رأينا . ويرى محمد غلاب (١٩٦١) أن الإخوان أحسنوا مزج الفلسفات المختلفة ، وأن شخصيتهم قد برزت فى جميع ما ذهبوا إليه ، سواء أكان ذلك فى تدليلهم على آرائهم بما لم يدلل به صاحب النظرية الأصلية ، أم بتوجيه مذهبهم وجهة لم تخطر له على بال. ويرى سيد حسين نصر (1978 , Nasr) أن عمل الإخوان لم يكن مجرد الجمع والتوفيق ، نهم لا يجمعون المعلومات فى متحف وإنما يقيمون منها بناء متكاملة متماسكا .

وأما اتهامهم بالسطحية فأعتقد أن مرده هو أنهم كانوا يكتبون للتثقيف العام، وإن كان ذلك بمستوى رفيع . فهم بكل تأكيد لم يقولوا كل ما عندهم، كما كانوا يشيرون كثيرا . وإليك دليلا آخر على ذلك ، هو اقتباسى الأخير من كلامهم ، أسوقه أيضا نموذجا لتأنقهم أحيانا فى العبارة ، ولم أقتبس مثله فى

حديثي ، حرصا على وقتكم ، أوضنا
بالوقت المحسوب على .

وذلك أن الإخوان شَبَّهوا أنفسهم
برجل حكيم جواد كريم ، له بستان خَضِرٍ
نَضِرٍ ... بهج مَونِقٍ مَعجِبٍ طيب
الثمرات ... فدعا الناس لدخول بستانه
والتنعم بما فيه ، فما استجاب له أحد ،
فرأى من سداد الرأي "أن وقف على باب
البستان وأخرج مما فيه تحفا ، وطُرفاً
وأطفاً ، من كل ثمرة طيبة ، وفاكهة
لذيذة ، وريحان زكى ، وورد جنى ، ونور
أنيق ، وجوهر بهى ، وطيَر غَرِدٍ ، وشراب
عذب . فكل من مر به عرضها عليه ،
وشبَّهاها إليه ، وذوَّقها منها وحيَّاه بها ،

وأشمه من فوائِح الرياحين ، وأسمعه من
بدائع التلحين . حتى إذا ذاق وشم وفرح
به ، وطرب منه ، وارتاح إليه واهتز ،
وعلم أنه قد وقف على جميع ما فى
البستان ، ومالت إليه نفسه ، واشتاق إلى
دخول البستان وتمناه ، وقلق إليه ولم
يصبر عنه ، قال له عند ذلك : ادخل
البستان ، وكل ماشئت ، وشم ما شئت ،
واختر ما شئت ، وانظر كيف شئت ،
وتتزه أين شئت ، وجئ من أين شئت ،
وتلذذ وتنعم وتطيب وتنسم !"
(٤٤/٤٣:١).

فالسائل إذن ليست إلا نماذج
وعينات ! .

عبد الحافظ حلمي محمد
عضو المجمع

المراجع

- ١- أحمد زكى باشا ، ١٩٢٨ . خلاصة تاريخيه فى تذييل كتاب "رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء" - تصحيح خير الدين الزركلى . المطبعة التجارية الكبرى ، القاهرة .
- ٢- إخوان الصفا . "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء" ، أربعة مجلدات، (طبعة ١٩٥٧) . دار صادر ودار بيروت ، بيروت .
- ٣ - أرسطوطاليس . طبائع الحيوان ترجمة : يوحنا بن البطريق ، تحقيق وشرح وتقديم : عبد الرحمن بدوى ، (طبعة ١٩٧٧) . وكالة المطبوعات الكويت .
- ٤ - أرسطوطاليس . "أجزاء الحيوان" . ترجمة يوحنا بن البطريق ، تحقيق وشرح وتقديم : عبد الرحمن بدوى ، (طبعة ١٩٧٨) . وكالة المطبوعات الكويت .
- ٥ - بول غليونجى ، وسعيد عبده ، ١٩٧٢ . "مقالتان فى الحواس ، ومسائل طبيعية - لعبد اللطيف البغدادي : دراسة وتحقيق" . وزارة الإعلام ، الكويت .
- ٦ - الجاحظ . "الحيوان" ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، (طبعة ١٩٦٥) . مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة .
- ٧ - الدميرى . حياة الحيوان الكبرى ، (طبعة ١٩٦٥) . دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة .
- ٨ - دى بور ، ت . ج ، ١٩٣٨ . "تاريخ الفلسفة الإسلامية" ، ترجمة : محمد عبد الهادى أبوريدة . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
- ٩ - طه حسين ، ١٩٢٨ . تقديم لكتاب "رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء" ، تصحيح : خير الدين الزركلى ، المطبعة التجارية الكبرى ، القاهرة .

- 14 - Magner, L.N. 1979. "A History of the Life Sciences". Marcel Dekker, Inc. , New York.
- 15 - Nasr, S.H. 1976. "Islamic Science - An Illustrated Study" . World of Islam Festival Publishing Co. London .
- 16 - Nasr, S. H. 1978. "An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines" - Revised Edition. Thames and Hudson, Bath.
- 17 - Sarton, G. 1947. "Introduction to the History of Science", vol, 3. Williams and Wilkins, Baltimore.
- ١٠ - محمد غلاب ، ١٩٦١ . "إخوان الصفاء . " دائرة معارف الشعب ، ٣:٥ - ٣٤ . دار الشعب ، القاهرة.
- ١١ - وديعة طه نجم ، ١٩٨٥ . "منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب الحيوان - نصوص ودراسة" . معهد المخطوطات العربية ، الكويت .
- 12 - Fakhry , Magid. 1983 . Philosophy and Histroy , in: "The Genius of Arab Civilization - Source of Renaissance". John R. Hayes (ed). 2 nd ed. Eurabia Ltd., London.
- 13 - Holmyard, E.J. 1947. The role of the scientific society . Endeavour, 6 (22) : 49-50 .

تأملات

لغة فى حاجة إلى قاموس

للدكتور محمد عزيز الحبابى

أنواع الخطاب :

يحمل أى خطاب رسالة يحاول إيصالها عن طريق جمل تلفظ لتخلق قارة تتماوج فيها معان تتجاوز كثافة ومضمون الألفاظ وكميتها . فكل مخاطب لا يتكلم أو يكتب من أجل المنطوق والمكتوب فى ذاته ، بل ليشحن جملة تفكيراً ، أو وصفاً أو حكاية ، أو انفعالات وجدانية ، ... ، فينزل السكينة على القلوب ، أو قد يزعج المطمئنين ، هكذا الخطاب يحزن أحياناً ويقلق ويسر أحياناً ، قد يبلغ أخباراً صحيحة ، وقد يشيع أخطاءً ، ... اعتماداً على كل أنواع لغات التواصل .

والتأمل يتم بكلام مجهور ، كما يكون بصمت عميق ، أى بحوار داخلى يوصل أحياناً إلى اكتشاف جوانب من الواقع . فالأكوان موجودة والصعوبة فى كيفية التعبير عنها كلما اقتربنا من وجه من أوجهها . يقوم الخطاب العلمى على

ملاحظات ، فنظرة ناتجة ومعبرة عن الملحوظ . إن العلم لا يقضى على الغموض والأسرار ، وإنما يقرب منها .
١- الخطاب الفلسفى فيحاول عقلنة العالم ، بما فيه من معطيات علمية وفنية . والفن لا يُجمل الطبيعة ، ولكنه يحاول التعبير عن أسرارها للاقترب منها . فكل أصناف المعرفة تعمل بتكامل ، على إخراج الإنسان من المنفى فى الكون وداخل الذات . تحت ضغوط الصيرورة التاريخية . تشعبت الألسنة واللغات المختلفة وهى تنزع جميعها فى تعاون على تحرير المنفى فى عالم الإبهام والالتباس وعدم الدقة بهتك الحجب عسى الإنسانية تكتشف الحقيقة / الحقائق . بيد أن الحوار مع الطبيعة / الكون يكسر التعابير المختلفة ، لأن كيائها غير قادر على المقاومة . فإذا هى تحالفت اكتسبت قدرات خلاقية .

مناعة اللغة :

تكسرت اللغات الميتة لضالة مناعتها ،
أما اللغات الحية فتصارع ، لأنها تتطور
فتتكيف ، كالشجر الصلب الذى تميل
غصونه مع الرياح ، ولكن الجذور تبقى
ثابتة . اللغات الحية تؤمن بقدسية التطور
والصراع ، أما الأخرى فتظن أنها
مقدسة فى ذاتها ، وتبقى تجتر الماضى ،
وتستطلع الأساطير . إن البدائى وحده
ما يزال يتعبد بالحروف والألفاظ ، فى
ذاتها ، محاولا بلا جدوى ، فك الرموز
والتواجد (1) مع الألفاظ .

اللغات الحية تجعل من الألفاظ
نجوماً تضيئ الواحدة الأخرى
وتستنطقها . فنور مجموع النجوم ليس
جمعا رياضيا لأضوائها ، بل تركيبا
جدليا تفوق قواه أنوار الوحدات المتفرقة .
وعلى عكس ذلك اللغات التى تحب الألفاظ
لرئائتها وتقديسها لكونها إرثا قديما -
كيف لها أن ترزف دينامية كل لفظ كي
يخلق عوالم يتعاون داخل الجملة ؟

أليس هذا تفقيرا للفكر وتجميدا
للإمكانات الخلاقة فى الخطاب ؟

إن البصر والسمع وبقية الحواس لا
يمكنها أن تفهم العالم وتدفع بالعقل
ومجموع الملكات للإسهام فى تغييره إذا
لم تتوفر على لغات تعبر عن الانفعالات
الجوانية ، وتبلور كل إحساس لتصنع
شعورا ، ثم ترفع الشعور إلى درجة
الوعى .



فما جاز للألفاظ أن تحرك الأجساد ،
وتمتزج بالوجدان ، وتصقل الأذهان ،
وتدفع العقول للعمل ، لو لم تكن ملتزمة
مباشرة بحياة الإنسان وبنحلته من
المعاش ، أى لو لم يحصل مسبقا التزام
فعلى بين الإنسان واللغة / اللغات التى
يستعملها . فالألفاظ لم توضع لتسمع ، بل
لتنحرك وتحرك . فهناك تلازم بين المنطوق
- المسموع وبين ما ينتج عن ذلك . فإن
لم يحدث أى رد فعل عن ألفاظ مسموعة
، كانت مثل رصاصة مغشوشة ، لا فعل
لها ولا رائحة ، بل مجرد لعب عبثى ...

(1) تواجد فى مقابل Coexistence تواجد شيان = كلما أوجد كل منهما فى نفس الآن أو فى نفس المكان .

- فكيف يحصل الترابط بين شئ ما
والاسم الذى يطلق عليه (بالنسبة
للمحسوسات) ؟

- وكيف يطلق لفظ مجرد ، كـ "عدل"
و "مساواة" ... فيحصل تصور
معان عامة مجردة ، أى مفاهيم ؟
إن الأجوبة صعبة ، لأن "عدل" مثلا ،
رغم شموليته ، كمفهوم ، يقتضى التسليم
بنسبيته ، لأن الدساتير كلها تتحدث عن
العدل وإن اختلفت ، عمليا ، عند
التطبيق ، بل وحتى فى التأمل .

أنواع القاموس :

الحاجة ملحة للرجوع ، أولا ، إلى
قواميس تأصيلية وإلى قواميس تاريخية
فكثير من الالتباس ومن التناقض يلاحق
الألفاظ .

لذلك ، إن وظيفة القاموس التأصيلي
أن يحدد جذر اللفظ ، ومشتقاته ، كما
يعطى لونيّات المعانى ، والمدلول الحقيقى
والمدلول المجازى ، وأن يحدد المحيط
الخاص بكل لفظ لكى لا يختلط بما

سواه ، إذاً لكل لفظ حقل سيميائى
خاص به ، وعندما تتداخل الحقول تفقد
الألفاظ معانيها المخصصة وتختلط
المفاهيم ، وبالتالي يحصل إبهام فى فكر
المتحدث ، وبالطبع فى فكر المستمع ،
فيتكسر التواصل .

أما وظيفة القاموس التاريخى فهى
أن يتتبع المراحل التى مر بها اللفظ ،
وتراكم الأحوال التى اعترته فتضخمت
معانيه الواقعية والاصطلاحية ، فأدوار
القواميس أساسية ، ومن الضرورى
تأليفها طبقا لمناهج عقلانية وموضوعية
وتربوية ، وإلا تسبب القاموس فى فوضى
لغوية وفى عرقلة التفكير السليم .



القواميس العربية ، والمنهج :

إن جل القواميس العربية تنقصها
المنهجية .

١ - كيف يمكن لتلميذ بالإعدادى ،
فأحرى بالابتدائى ، أن يتعامل
مع قاموس يقدم له الألفاظ

بحسب الجذور ، لا بحسب
المنطوق والمكتوب . وهذا ما
يرغم الباحث أن يكون عارفا
بالنحو والصرف ، يعنى أن
العربية تلزم بالفهم قبل القراءة.

لذلك ، لا يفيد القاموس إلا من
لهم دراية مسبقة بالقواعد
العربية ... يسأل تلميذ أباه :
كيف أكتب نما / نمي ، بألف
ممدودة ، أم بياء معرفة مثل
رمى ؟

الأب : ابحث فى القاموس عن
جذر اللفظة . فالمصدر هو الذى
سيدلك على الجواب .

الأبن : وكيف أبحث عن مصدر
هو أيضا مجهول عندى ؟

٢ - جل الاستشهادات تؤخذ عن
تأليف قديمة ، وإن الأساليب
القديمة غير متداولة كثيرا ،
وغير سهلة بالنسبة لغير
المختصين فى اللغويات ، وغالبا
ما يكون جل الاستشهادات

أبياتا شعرية مما يزيد فى
الصعوبة . أليس من اللائق أن
تكون الاستشهادات مخضمة ،
ومن أسهل النصوص القديمة
والحديثه ، نثرا وشعرا ، وأن
تراعى فيها مصلحة الأكثرية من
القراء فتقترب أكثر ما يمكن من
الحياة اليومية ، ومن الأدبيات
المرموقة حاليا التى يقبل عليها
الجمهور ؟

٣ - يهمل صانعو القواميس تأصيل
الألفاظ ، فباستثناء مقاييس
اللغة ، لأبى الحسن أحمد بن
فارس ، لا أعرف كتابا فى
الموضوع .

٤ - كما يهملون تاريخ الألفاظ ،
فالدخيل ، متى دخل ، ولماذا ؟
والمقتبس من اقتبسه ؟

إن تاريخ حركية العربية مجهول
فى القواميس حتى المعاصرة
منها ، اللهم ما كان من الجهد
الذى بذله المرحوم (فيشر ، رغم

أنه مات قبل إتمامه) والذي يرجع الفضل لمجمعنا الموقر في إخراج ونشر الكراسة التي تركها الباحث الألماني .

ه - كثيرا ما تحدد اللفظة التي يراجع من أجلها القاموس . بألفاظ مشتقة من نفس جذرها ، أو بمفاهيم أيضا مجهولة وهي نفسها في حاجة إلى شرح وتحديد ، أى بالرجوع إلى القواميس ! ...

فمثلا بالصفحة ٦ من المنجد في اللغة والآداب والعلوم ، نبحث عن "اُتتدم" فنجد الشرح الآتي :

"أكل الخبز مع الإدام" .

الإدام = كل موافق وملائم .

فالذي يبحث عن اُتتدم يجب أن يكون عارفا بمعنى إدام ، وهذا تعريف مجهول بمجهول ، إذن ، لا بد من البحث عن لفظة إدام .
فهل تعريف لفظ إدام بـ "كل

موافق وملائم" يوصلنا إلى التعرف على ما نبحث عنه ؟
إن الطائفة توافق وتلائم السفر من المغرب إلى القاهرة . فهل هي إدام ؟

يضيف صاحب المنجد : إدام الطعام هو ما يجعل مع الخبز فيطيبه" ، اليانسون يجعل مع الخبز ، فهل هو إدام ؟ والسّمك أو البيض يجعل مع الخبز فمن منهما إدام ؟ ...

ماذا سيستفيد التلميذ من المنجد بالنسبة للمادة السابقة ؟
- أما في الصفحة ١٧٥ في نفس القاموس ، فتقرأ في تعريف أخس = فعل فعلا خسيسا ، وأخسه = وجده خسيسا .

كما نجد : استخسه = وجده خسيسا .

وفي صفحة أخرى (٣٧٨) :

ساغ الشراب = ساغة يسوغه
سوغا ، والسوغ من الشراب =
السائغ .

أمثال هاته "التحريف !" كثيرة
جدا فى نفس القاموس .

نفس الطريقة تتسبع فى
القواميس الحديثة كما اتبعت
فى القديمة . فما رأينا قاموسا
عربيا من القواميس المتداولة
أعطانا تعريفا للإدام من حيث
التركيب الكيماوى للمادة ،
ومقارنات مع مواد شبيهة
بالإدام ، ليعرف التلميذ الفرق
الدقيق بين الإدام والزبدة
والزيت .

٦ - تحدثنا عن الألفاظ ، وكأن
اللغة كل لغة هى الألفاظ .
والواقع أن لكل لفظ حقلا دلاليا .
فمن المفيد أن تعنى القواميس
الموجهة للشباب ، ولعامة الناس ،
بالحقول ، إذ أن أى عنصر فيها
يعين على فهم العناصر

الأخرى ، ويخصب المخيلات ،
ويحرض الفكر الانتقائى والفكر
السليم على التحرك .

فإذا تعاون التفكير مع التخيل ،
وجند الحدس والذاكرة ، دخل
الباحث درب اللعبة واستوحى
ما يقوى لديه القدرات المبدعة .

٧ - نصل إلى نقطة أكثر خطورة ،
بل إنها الخطر المحيق باللسان
العربى : إنها قضية الحركات .
نبدأ بسؤال :

ما هو نوع الارتباط بين حدث
والتعبير عنه ؟

فلنتصور تلميذا أمام هذه
الجملة : "قتل موسى الذئب"
مادامت الحركات غير ثابتة
سيحار الطفل فى معرفة من
القاتل ومن المقتول ، فموسى
كالذئب لكل منهما قابلية القتل ،
وكلاهما مؤهل ليكون المقتول .
وأمام خلو الجملة من الحركات
سيتردد القارئ بلا جدوى بين

الإثبات والنفي . فرفع الفاعل
ونصب المفعول به هما العلامتان
المميزتان للقاتل والمقتول .
فيكفى تحريك باء ذنب بضم أو
فتح ليحل المشكل .

إن لكل لغة تراكيب لا تُجرد ألفاظ ،
وبالحركات النحوية والصرفية تأخذ
المفردات وظائفها في الجملة . فكيف
يستطيع التلميذ التفرقة بين الفعل المبني
للمعلوم والمبني للمجهول ؟ "كتب" أهو
كتب أم كُتب أم كتِب أم كَتَب ؟ إن غياب
الحركات يدخل عملية الفهم في ذبذبة ،
فينشأ خلط كثير . فقراءة "كتب" مشكل
بالنسبة للتلميذ ، (وحتى للأستاذ) .

حقا ، إن اللسان العربي محكم
القواعد ، واضح المعالم . لكن إغفال
الحركات يحدث عطبا في تلك القواعد
وينزع عنها الفعالية التي توخاها
واضعوها كضوابط لصيانة اللسان عن
الخطأ ، والفهم عن التيه ، وإزاحة
الحركات عن الحروف إهمال وتهميش
لدينامية اللغة .

أن الثورة الثقافية المنتظرة مطالبة
بأن تحدث ثورة داخل اللغة العربية تجعل
الكتابة غير مبتورة وغير معرضة ، على
الدوام ، للالتباس ، فكل جهاز بلا حركات
يعد جامدا . أليس الموت في انعدام
الحركات ؟



إن التاريخ ملئ بالدروس والعبر لمن
يتدبر فهذا الغرب الذي صفى الحساب
مع التخلف الثقافي ، بدأ بتطوير لغاته
مع حفاظها على حركيتها بالحركات ،
فتغلب على المعوقات الأخرى ، في ميدان
الاقتصاد والتصنيع ، وفي ميدان
الإصلاحات والتنظيمات المجتمعية . مثلا،
إن الغرب استعاض عن الآلات الحجرية
واليدوية ، وصار يستعمل الآلات المصنفة،
منذ ١٨٨٠ ، أما العالم العربي فلم يعرف
هذه الآلات إلا في عام ١٩٣٥ . ويفضل
الآلات المصنفة ، توفيق الغربيون إلى ٩٠
من مضربات الملمس ، مقابل ١٣٧ في
الآلة العربية .

من هنا نرى كم يضيع من وقت وكم

ترتفع أثمان المطبوعات ، فى حين أن
القراء فى شعوب العربية قليلون وجد
فقراء .

★ ★ ★

كما أن الألف بلا ذاتية مستقلة ،
فالذى هو موجود ، عمليا ، هو : ءأ ، با..
فالكتابة العربية تعاكس الواقع ، ولا
تعترف إلا بالهمزة والباء ، والألف ، أى
بأوهام ، ولما تضم هذه الأوهام بعضها
ببعض تنشأ عنها أشباح ، أى ألفاظ لا
شخصية لها . لأن ما / من افتقد
حركاته لا يوجد إلا فى مستشفى ومقبرة.

أُريد معاملة لساننا كما تعامل اللغات الميتة ، أم نتركه يحيا طبيعيا ، كبقية اللغات الحية في هيرورة ؟

إن كل لفظ بلا حركات لا يحدث

مشاكل فحسب ، بل هو نفسه مشكل ،
وكل حرف منه يخبيء مفاجآت للتلميذ .
فلنضرب على ذلك مثلاً بـ "يكلم" :
الحروف إذن ، ٤ حركات ممكنة لكل
حرف: $٤ \times ٤ = ١٦$

ثم إن التلميذ إذا رفع الياء تحورت
حركة الكاف ... وهكذا . ولو أريد
استقصاء الحالات الشكلية التي يمكن أن
تعتري كل حرف من تلك اللفظة لخرج
التلميذ بعدد باهظ .

★ ★ ★

تلك نظرة عابرة عن الشكليات ،
شكليات اللغة التى هى مجرد أداة للتعبير
والتفكير والإبداع .

فلنخرج الآن ، مسرعين ، بالغاية
المتوخاة من اللغة .

يعاب على مثقفينا نقصانهم في عالم
الاختراع والاكتشاف ، إلا أن العائين لا
يجرؤن على تشجيع الفكر في ثورته على
الأوضاع التي تعوقه عن ابتكار وسائل

الوصول إلى التجديد ، بطرق جديدة
فكما أنه لا حرث بدون محراث ، كذلك
لا فهم ولا إفهام بدون لغة .

اللغة هي الوساطة بين الناس ، من
أمر ونه ، عند التقارب والتباعد ، فى
السرور والحزن . إنها محور كل أنواع
التواصل مع الغير ومع الأشياء . أساس
حيوى لكل مجتمع بشرى .

وإن المخترع الحق فى الطبيعة هو
القادر على التعبير عن ظواهرها بدقة
ووضوح ، فيضفى على محيطه مسحة
غير عادية ، وينفج فى جملة نبضات
فكرية تنعش الحوار مع الأشياء ومع
الأحياء ، فى ميادين المحسوس والفكر ،
وفى ميدان الوجدان . فما بين الألفاظ من
إيقاع وتجارب ، وما بين الصور من
تكامل يعطى الكلام حياة غنية التنوع ،
فيسطيع المخاطب أو الكاتب أن ينقل
المفردات عن اللفظية إلى المدلول الشامل
المشترك .

معنى هذا أنه سيغلب على الأحاديث
أن تكون تكرارا لما سبق أن قاله آخرون

بنفس الألفاظ ، ولكن التراكيب والشحنات
المفهومية هي التى تكون اللمسات
الإبداعية . فهناك ميادين ثقافية
مشتركة ، وهناك التعبير عنها بأساليب
مختلفة ، وإن فى الاختلاف الغنى
والتجديد . فكل أسلوب يمتاز بطابع
خاص ، فاللفظ إما أن يراد به وصف أو
تحليل ، وإما إحياء أو خلق إحساسات ،
أو تكييف جديد للمذهنية . فالكلام كما
يقول (هانرى برغسون) : "كالثياب التى
تباع مخيطة . إنها لا تلائم الملازمة
الكاملة أى أحد لأنها تلائم ، إلى حد ما ،
جميع الناس " .

بناء على ما تقدم ، نرى أن اللغة
قالب تفرغ فيه معان وحالات نفسية ، كما
أنها أداة للاتصال الفكرى المسمى
بالمسميات وبين العلاقة المباشرة ومجموع
أفراد المجتمع . فملكية تسمية الأشياء
ملكة أصيلة مميزة للجنس البشرى :
"وعلم آدم الأسماء كلها " (قرآن كريم) .
فكل ما يخل بسير لغة من اللغات يؤثر ،
إلزاميا ، فى علاقات الأفراد المتكلمين بها
وفى علاقاتهم بعالم الأحياء وبالكون .

لطالما حاول أقوام تفسير أسباب تأخرنا في الإنتاج العلمى ، والفكرى بكيفية عامة ، فحصروها فى أحداث تاريخية مختلفة ، دون أن يعطوا لأداة التفكير (اللسان) حظا من المسؤولية فى هذا التخلف رغم مشاكلها العديدة ، ورغم كون تلك المشاكل قابلة لأن تتجاوز دون تفكير للضوابط الأساسية أو مس بعقريّة العربيّة .



حصار على اللسان العربى :

فنتساءل ، إذن ، لماذا نتعامل مع اللغة العربية تعاملًا يحاصرها حصارا مجمداً، كأنها لغة ميتة ، فنحاصر الفكر والتخيل ؟

فعلى اعتبار ما تقدم : إنها ليست ميتة ، إلا أنها لا تتمتع بكل مميزات الحياة ؛ ففي الوقت الذى نشاهد ما اكسبها الصحفيون المجدون من مرونة ، وما اكتسبت من تطور بفضل أمثال أحمد شوقى وشعراء المهجر ونزار قباني ومحمود درويش وسعاد الصباح

وميخائيل نعيمة وكامل حسين وعبد الجبار السحيمى ... ، فى هذا الوقت بالذات نشاهد كذلك من يعلنها حربا شعواء محاولاً الرجوع إلى بكاء أمرئ القيس ومقامات الحريرى ... يريد أقوام إيقاف المسيرة . فمنذ مقدمة ابن خلدون لا نعثر على مستوى فطاحل التفكير الإسلامى . إن الفكر العربى - الإسلامى تجمد لأن أدواته الإجرائية الأولى تجمدت، فحيوية الفكر منوطة بحيوية اللغة .

ورغم كل شئ ، إن تأشيرات تبعث على الأمل ، فجهود مجامع اللغة بالقاهرة ودمشق وبغداد تطور ، إلى حد ما ، العربية محاولة تعميمها . وبفضل الصحافة والإذاعات والتلفزات التى تستعمل الفصحى الميسرة ، كما بدأنا نشاهده فى بعض البلدان (كالمغرب ، مثلاً) عوضاً عن الدارجات ، اقتربت من القراء والمستمعين وأثّرت فيهم . فلغة الاستعمال اليومي ، لدى العامة ، لغة وسطى لا هى "زنقوية" كذى قبل ، ولا هى لغة فصحى ... إننا فى مرحلة تبعث على

الأمل ، والفضل الأعظم يرجع قبل كل شئ إلى المدارس الابتدائية .

فالمسافة بين مشاغل ومشاعر شعوب العربية وحاجياتها حاليا ، ليست هي مشاغل ومشاعر أجدادهم وحاجاتهم .

لذا يجب أن تكون لغة الأحفاد معبرة عن عصرهم وعصرنتهم ، لا عن ماضٍ تليد ، على أن من الماضي ما يبقى تراثا يتمتع بحرمة الإرث على قدر ما يغذى الحاضر ، الحال ، ويسهم في تشييد المستقبل . فلا فائدة في أية حقبة من الماضي إذا كانت لا تستثمر حاليا ولا تغذى الثقافة وتفتح الآفاق أمام المستقبل . نعم ، لكل جيل حاجات وتعابير لا نستغنى عنها في عالم المعرفة وفي عالم الفنون وعالم التصنيع . والعربية ملزمة بأن تسير عصرها ، كما سائرت عصور الثقافات السابقة . إنها مطالبة بأن تكون اليوم في مستوى ماضيها حين تفتحت بفضل الاحتكاك بالثقافات الأجنبية ، فترجمت ، ونقحت وأولت وشرحت وكيفت وأضافت .

فكلما أخذت لغة على نفسها أن تعيش متفتحة على التجديد لا يمكن اعتبارها ميتة . قد تعاني بعض الانحرافات ، فيقال عنها إنها عليلة يجب علاجها ، من ذلك توقف العربية على قواميس تتحرى المنهجية . وتلتزم ، هي كذلك بالحركة والسرعة في المواجهة .



توجد لغتان وكتاهما عربية . أولا لغة تاريخية (لم يعد أحد يستعمل أساليب الجاهلية والمقامات) ، وثانيا ، لغة التخاطب المعاصر بين الدول العربية ، في مختلف المبادلات ، وهي أيضا لغة الصحافة .

العربية تتطور ، رغم كل شئ ، وفي غالب الأحوال ، وإن كانت لا تواتيها دائما الظروف . فهي واقفة في الأغنية والمسرح والسينما حيث الفنانون الكسالى مازالوا يستعملون العاميات ، وهذا استعمال يجب مقاومته .



ولتنسجم اللغتان ، تقدم كثير من
الغويين بمقترحات ، منها الاقتراح الذى
طالب به عبد العزيز فهمى ، وهو اتخاذ
الحروف اللاتينية محل الحروف العربية .
لكن هذا الحل لم يقبل لما قد يحدث من
مسخ .

وهناك محاولة يحيى بن العباس
المغربى الذى أراد تسهيل الخط العربى
بابتكار حروف مطبعية حديثة مضبوطة .
وتتلخص طريقته فى ثلاث نقط :

أولاً : فصل الحروف بعضها عن بعض .

ثانياً : إبدال الخط المستدير بخط
مستقيم .

ثالثاً : كتابة علامات الضبط إزاء
الحروف ، لا فوقها أو تحتها (لؤلؤ
= لوءلوء) محاولة ابن العباس
مجهود إصلاحى ، بيد أنه صعب
التطبيق ، وقد يزيد المشكلة تعقيدا .



وهناك محاولة أخرى . قدمها محمود
تيمور فى كتيب طبع بالقاهرة عام
١٩٥١ ، سماه "ضبط الكتابة العربية"

يتلخص مقترح تيمور فى :

أولاً : أن تكون صورة الحرف التى تقبل
الاتصال من بدء الكلمات (حاء
واحدة) "حـ" عوضاً عن "ح" و عن
الـ و "مـ" عوضاً عن "م" .

ثانياً : أن يحتفظ على الكاف المبسوطة .

ثالثاً : تظل حروف : ء ، ا ، د ، ذ ، ر ، ز ،
و ، ة ، على صورتها فى حالة
إفرادها .

رابعاً : أما فيما يخص علامات الضبط
فتقع على الحروف بأعيانها .

بهذا سيتغلب أصحاب المطابع على
المصاعب التى يتجشمونها ، سيتحرر
صندوق الحروف من الكثير مما يثقله ،
حتى لو أضفنا إلى هذا الصندوق المنقح ،
علامات الضبط ، فلن يضيق بها ،
وسيصبح لا يزيد على خمسين عينا ،
وفى حين أن صندوق الحروف غير
المضبوطة فى حالتها الراهنة المتجددة
الصور يربو على ثلاثمائة .

ويجدر بنا أن نشير إلى محاولة أخرى

من هذا القبيل دخلت حيز التطبيق ،
بفضل صاحبها الأستاذ أحمد الأخضر
غزال . وبما أنه طال الحديث عنها في كل
المؤتمرات العربية وباتت معروفة ، لا نرى
حاجة لعرضها من جديد . وعلينا أن
نتنظر ما ستظهره التجارب لنحكم لها أو
عليها .



لم نورد كل المقترحات التي عرضت
لحل هذه المشاكل ، واكتفينا بنماذج
منها ، واخترنا من هذه النماذج
أحدثها . فلماذا الاقدمون قد فطنوا إلى
ضرورة تغيير الخط وتسهيله ، فوضعوا
النقط تحت وفوق الحروف ، بعد أن كانت
خالية منها ، حتى عصر الأمويين وفي
نفس الزمن ألم يخترعوا علامات لضبط
الحروف ؟ أما المعاصرون فبقوا
يتأرجحون أمام الإصلاحات الملحة التي
يقتضيها العصر ...

هكذا ، بمجرد ما انخرط العرب في
حظيرة التمدن ، اندفعوا إلى التدوين بلغة

مجددة "عصرية" بالنسبة لعصرهم ، في
حين نحيا اليوم بلسان ليس معاصرا لنا .
وبما أنه لم تكن علامات الضبط توضع
دائما على الحروف ، لجأ الأقدمون إلى
خطة بلغت بالنسبة إليهم درجة تقدمية .
فكلما خشى أحدهم أن يقع تحريف أو
القباس في لفظة ، كتب بعدها كيف يجب
ضبط حروفها ، مثلا : ضرب (ضم
الضاد وكسر الراء ...) . تلك
احتياطات ، أصبحت اليوم الحاجة إليها
ماسة أكثر من ذي قبل ، ووجب التعبير
عنها لكن بطرق مختصرة ودقيقة ، إنه
تغيير لن يتم إلا عندما يشرع في تغيير
الذهنيات ، محاربة ما بأنفسنا من
مركبات ، مركب النقص الذي يجعل أقلية
مستلبة تزدري لغتها وثقافتها ، وتميل
أكثر من اللازم إلى الإضراب في التغرب .
كما يجب محاربة مركب الكبرياء الذي
يعوقنا عن أن ننظر للحقائق كما هي ،
علينا ألا نحتقر كل ما ليس بقديم وعربي
صميم ، محاولين إغلاق الأبواب أمام
التطور الذي لا حياة إلا به .

خامسا : اللغة العربية ذخيرة ثمينة

ورثناها عن أجداد نمجد كثيرا

منهم ، فأصبحت من أنفسنا :

عاطفة قوية ، وسكنا ، ومقوما

أصيلا لكياننا المادى والمعنوى

لكنها ليست سليقية ، لأن فطريتها

اضمحت من جراء مزاحمت غير

شرعية تشنها العاميات التى

تضايقها فى المسرح والسينما

والأغنية . لأجل تلك الرابطة الوثيقة

(وهى الرابطة الأولى) وجب علينا

أن نرعى لغتنا العربية بعناية جدية

خالصة .

أما العلاقة الثانية التى تربطنا

باللغة العربية فهى علاقة بين إنتاج

ومستهلكين . نقول إنتاجاً

ومستهلكين لا إنتاجاً لمستهلكين ،

لأن اللغة العربية ماضيا عتيقا .

فهى لذلك إنتاج مشترك بين

القدماء والمحدثين ، بين الأساتذة

والتلاميذ ، بين من يحترف التعليم

ومن لا يحترفه ، فاللغة العربية ،

ككل لغة ، إنتاج جماعى يشارك

فيه أفراد كل الطبقات فيعتبرون

بالنسبة للغتهم القومية منتجين

ومستهلكين ، فى نفس الآن ،

(وأحيانا يلعب بعض الأفراد نفس

هذا الدور بالنسبة للغات أجنبية ،

لكن هذا لا يعنينا هنا) .

أما أسرة التعليم ، فتمتاز روابطها

باللغة العربية من حيث العمق والوثاق ،

لأن اللغة هى الأداة التى تستعمل فى كل

آن وحين . فالصحافيون والمعلمون -

بصفتهم بائعى حروف وكلام - تصبح

اللغة عنصراً أساسياً فى حياتهم اليومية،

يخالطونها مخالطة متينة دائمة ، أكثر

مما يفعل غيرهم . يمكن أن يعبر عن هذه

الرابطة بلفظة مقتبسة ، هى أيضا من

علم الاقتصاد السياسى ، فنقول : إنها

رابطة بين المنتج وإنتاجه .



هكذا سيقوقف نفور الأجانب من

لغتنا ، ونحفز شبابنا على الاعتراف من ثقافته القومية ولغته . فلا بد من أن نبشر، كما يقول الحديث ، ولا ننفر .

كلنا نعلم الضججات التي يحدثها الرجعيون كلما دخلت في اللغة العربية مصطلحات جديدة ، ويسمون ذلك بالبدع، والوطانة والأعجمية ، كأنهم لا يستعملون الأدوية الأجنبية ، ولا يركبون السيارات الأجنبية ، ولا يلبسون اللباس المصنوع في الخارج ، وطبقا للصناعات الأجنبية .

بعضنا يتعلق بالغرابة فيسقط بين تراكم الألفاظ المبعثرة كأوراق على الرصيف ، في فصل الخريف ، وقد اعوج عنقنا فلا نرى فواكه المعانى على أغصان الشجرة . إنها تتراعى لمن يستطيع أن يرفع الرأس ، ولا يعاكس النظر ، لا بالبصر ولا بالبصيرة ، ويتأمل وينظر . فمن يُرد أن يقضى على التقليد "الأعمى" فلا بد له أن يبدأ بالجرأة والتفتح على العصر . فالحياة وتطوراتها لا يمكن أن تجمد في القواميس . المقدس هو الكل :

الكون في الكلام ، وحضور في العالم ، حضور فاعل في عالم حي متفاعل . الكلام "يحدث" و "يحدث" ويشير إلى ما في العالم ، يلفت إليه النظر ، يجليه ، وهو في ذات الوقت قالب للفكر والوعى وحتى لما هو غامض ومبهم . الكلام ، أصلا ، ليس مطلق إشارات ، بل حركة نمو وتقدم على مسيرة كل كائن بشري ، ومن مهده إلى لحدده ، أو على الأصح ، من البداية (الولادة) إلى ما لا حد له من الأجيال المتعاقبة ، من آدم إلى فناء الأرض ومن عليها .



لغتي من صميم كينونتي وكياني ، إنها مجموع شفعاى عند التاريخ ، وستدوم ، هي مسلكى في الحياة وموردى من وجدان الآخرين ، مابقيت حية في التاريخ ، كالتاريخ . الكلام ليس إلا علاقة بين من وما أنا ومن وما أريد أن أصير . إنه صيرورة الأفكار التي انسجم بها في العالم ، لا مجرد وصفات مختلفة ، ولكنها وصفات تنعش الأحياء ، إلا أنها ليست

مرهونة بزمانى أنا ، أو زمان أى عربى
آخر ، إنها للعرب أجمعين ، من مضوا ،
ومن سيأتون ومن سوف يأتون ، إنها ملك
للمحدثين ، كما كانت ملكا للسابقين ،
ومن هنا ، فللمحدثين الحق أن يتصرفوا
فى اللغة ، لأنها ملك لهم ، أن يتصرفوا
فيها تلبية لمقتضيات حاجاتهم التعبيرية .
إن اللغة هى الذاكرة القومية للشعوب ،
تدون تاريخها ، وتلوّنه عاطفياً
واعتقادياً... اللغة هى حياتنا المنطوقة ،
تاريخنا من وجهيه الباطنى والخارجى .

بـ "Arabic Numerals" وعند
الفرنسيين "Chiffres arabes" ، يتنكر لها
بعض العرب لما ينسب إلى العرب
ويستعملون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ..
ويستعيضون عن ٥ بالصفر (٥ = ٠) ،
وعن الصفر بنقطة (.) ، مع أن zéro (0)
أت من لفظ إيطالى منقول عن العرب
(صفر) الذين نقلوه عن الهنود .



إن اللغة العربية فى أشد الحاجة إلى
التحرر من التحجير الزمانى الذى تعانيه

فالمحجرون يظلموننا ويظلمون اللغة
العربية التى ينصبون أنفسهم أولياء
عليها ، باسم الدفاع عن الماضى .

يظهر أن التحجير المشار إليه آت من
ضيق فى الأفق الثقافى ، ومن نزعة
أرستقراطية يمتاز بها المحجرون .

فلغة كل أمة هى ملك مجموع طبقات
الأمة ، على اختلاف أجيالها . فالعربية
هى ما أخذ عن العرب بإضافة كل ما
زاده المتكلمون والكاتبون بها فى مختلف
العصور .



إن كانت العربية هى ما قدمنا ،
تتطور وتحيا مع حياة الأجيال المتتابة ،
جاز أن نقول : " إنها لغة حية وإنها
تشمل ما قاله الأسلاف ، وأسلاف
الأسلاف ، ومجموع من خلفهم ، وما
نقلوه نحن أو نريد أن نقلوه « وسنعد
كذلك من الأسلاف ، بالنسبة لأخلافنا » .
فلو كانت اللغة وقفاً على القدماء
لاتقرضت وقبرت معهم .

يقول البعض إن العربية لغة القرآن لذلك يجب أن نحافظ على صيغتها الأولى وأن تكون وقفاً . الجواب هو أن الإسلام أجاز الاجتهاد في الفقه والأصول ، فلم لا يجيزه في اللغة ، خصوصاً في لغة التداول ، كيلا يستديم التعامل بالأسنة أعجمية ، كما هو الحال اليوم ، مما يبعد عن لغة القرآن وعن اللهجات العربية كلها .

إن الاجتهاد ثورة فكرية عظيمة تنبئ عن ذهنية وثابة إلى التقدم . فما يجوز لذهنية الرجعيين المقلدين أن تعرقل الاجتهاد في ميدان اللغة ، أى فيما يخص الآلة ، بعد أن أغلقت بابه في ميدان الأصول ؟

نعم إن « باب الاجتهاد قد أغلق » . نعم ، ولكن الذين أغلقوه لم يعتمدوا أسساً إسلامية متينة ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فبإغلاق باب الاجتهاد قد أغلقت في وجه المسلمين جميع أبواب الثقافة والمعرفة . من ذلك الوقت ، والعالم الإسلامي في تقهقر ، فكان ما كان من

استعمار وتخلف ، إن حتمية الاجتهاد في الفقه وفي اللغة وفي كل ميدان من الميادين أمر لا مرد له فويل للمقلدين من عقم التفكير ، وعقم الثقافة ، وعقم الاقتصاد . فالعاقبة للتطور والرقى والحياة . فلا منبغ لهما إلا التوتر نحو التغيير إنه عنصر طبيعي يفرض نفسه إلزاماً ، لأنه سنة الوجود وقانون الطبيعة .

ثم هناك ، إلى جانب الاجتهاد ، قاعدة أخرى أساسية هي « الإجماع » . قد أجمعت الأمة العربية ، من أقصاها إلى أقصاها ، على إدخال كلمات وتعابير من أصول أجنبية استعملها الأولون ، وأخرى أضافها اللاحقون وهكذا ...

ففي الفهرست ، مثلاً ، يستعمل ابن النديم : أنالوطيقا (analytique) وأرطوريقا (rethorique) ، وسوفسطيقا (sophistique) ... كما يعطى أخبار المهندسين و « الأرثماطيقين » ...

فهل من حرج إذا احتفظنا بأسماء

المخترعات كما سماها أصحابها ، تفادياً
لكثرة المترادفات والتناقضات ؟



والمصدر الثالث فى علم الأصول هو
القياس . وبما أننا أجمعنا على تقليد
الغربيين ، فى كثير من حركاتهم
وتنظيماتهم « التجارية والصناعية
والإدارية » ، فلم لا نقلدهم أيضاً فيما
يرجع إلى أسماء الآلات المعبرة عن هذه
الحركات والأنظمة التى أبدعوها وسموها ؟

إن باب الاجتهاد قد فتح ، وليس فى
القرآن والسنة ما يبيح إغلاق بابه .
فالتنكر العبثى للاجتهاد ليس من الإسلام
الحق ، بل من الإسلام المفترى عليه الذى
يعادى الإسلام الصحيح ، إسلام إجماع
الجماعة ، وإسلام مبدأ القياس .

نعم ، للسلف علينا حق المحافظة
والصيانة لما أبدعوا ولما قدسوا ، ولكن لا
محافظة إلا بالترميم ، ولا صيانة إلا
بالتجديد . لذلك كان لنا من الحق فى
اللغة مثل مالهم . لقد اوفت بحاجاتهم ،

ونريد أن تفى بحاجتنا ، وما أكثرها فى
هذا القرن . فلنا حق الإبداع ، وحق
الاقتباس من لغات أخرى « كما فعل
الأولون : بلاط ، أستاذ ، تلميذ ، ناموس
، قاموس ، قصر ، ... » .

وقالوا : الأين ، والكيف ، والكم ،
والعننة ، واستعملوا شخص ، وتطور ،
وحمام ، والمحتسب ، وديوان ، وباشا ،
وكاهية ...

بذلك لم تمت العربية ، بل على
العكس .



راجت بالمغرب لفظة Ordinatour ،
أما بالمشرق العربى فهو Computer ثم
سماه أخيراً الدكتور الأخضر غزال بـ
« الحاسوب » ، مع أنه ليس الآلة الحاسبة
التي عرفت منذ B.Pascal فى القرن 17 .
إنه يقوم ، قبل كل شىء ، بعمليات
رياضية عليا ، ويحل نصوصاً ، ويخزن
معلومات « فهو ذاكرة » ، ويحل مشاكل
منطقية « فهو فكر متحرك » . فماذا نريح
من إزاحة اسمه الأصيل ؟

لماذا كان العرب الأولون لا يخافون من
أخذ الأشياء بأسمائها ؟

قلنا إن لغتنا لم تمت ، رغم ما
أصابها من علل ، واستنتجنا كذلك أنها
لا تحيا الحياة الكاملة ، كما يوده
ويرضاه لها محبوبها ، لأنها حياة واقفة
فى كثير من الميادين . يقول فيكتور هيجو
بأن اللغات « شبيهة بالبحر فى رج
دائم... فمن العبث محاولة إيقافها . وبما
أنه ليس فى مقدور أحد أن يوقف
الشمس ، كذلك لا يوجد من يقدر على
إيقاف اللغات عن التطور . فعندما تجمد
لغة ما يسرى فى جسمها الموت » (2) .

نحن لا نقصد بالجمود عدم الخضوع
إلى القواعد النحوية والصرفية « أى
الأسس الموروثة » ، ولكننا نود لو رفع
الحجر عن الكتاب لينفخوا أنفاساً جديدة
ويدخلوا على العربية تنقيحات للقضاء
على الإبهام والالتباس كى يتم الفهم
بوضوح والتفاهم الدقيق .



نسافر إلى بلدان عربية ، ندخل
مطاعم ، فتقدم لنا قائمة الطعام ، ولكن
غالباً ما يصعب علينا فهمها ، فنأكل على
غير هدى ، أو نسأل كيف تقرأ مسميات
الأكلات ، كما نسأل عن معناها
وتركيبتها ، أو نتغلب على الصعوبة بقراءة
القائمة بلغة أجنبية « عندما توجد قوائم
مزبوجة » فمثلاً :

« رقائق بتلو » لولا المقابل Piccata "
" de veau لما فهمت ... وكذلك « بطاطس
بورهة » " Puree " ، و « ملبا » " Melba " .
هذه لائحة من قائمة بمطعم « فلفة »
بالقاهرة . وعندما يذهب مصرى إلى
المغرب يبقى هو كذلك حائراً إلى أن
يطلب الإغاثة من النادل .

إن لغويينا لم يوحسوا ، ولو
مصطلحات العيش الأولية التى يقوم
عليها كياننا الفردى والمجتمعى ! فأول
خطوة فى سبيل توحيد الغرب
هى التفاهم فيما يتعلق بـ « الحياة
النباتية » .

(2) V. Hugo, Preface de Gromwell.

وما دمنّا لم نخرج من تضارب
الكلمات وما تحدّثه في أفكارنا من بليلة ،
وفي جهودنا الثقافية من تقصير ، فلن
نتغلب على التخلف . فلا بد أن نفتح باب
التجديد والاجتهاد لنستطيع أن نقول مع
الشاعر :

وإن قوادي بين جنبي عالم
بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وفضلني في القول والشعر أننى
أقول بما أهوى ، وأعرف ما أعنى⁽³⁾
محمد عزيز الحبابي
عضو المجمع المراسل من المغرب

(3) البيان والتبيين ، ص ٢١٤ .

فى التركيب اللغوى (*)

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

(٤)

تراكيب بين القبول والرفض

أولاً:

كان يجوز التركيب الواحد فى لهجة دون لهجة أخرى (٢) ، وفى عرضه التراكيب يهدم بالسماح عن الخليل ويونس ، ثم يعرض ما سمعه على كلام العرب ، ومن ذلك قوله : ليس فى الدنيا عربى يرفع (٤) ... أو قوله : ولا يكاد عربى يقول (٥) ... أو قوله : وليس كل العرب تتكلم بها (٦) ، " وليس كل العرب تعرف هذا (٧) " ، أو قوله : ولم نسمع عربياً يقوله (٨) .

وأرى أن سيبويه عندما رفض بعض هذه التراكيب كان ينظر إليها من مستوى الفصحى « لكن لو نظر إليها من

أشار سيبويه إلى بعض التراكيب القبلية غير الصحيحة نحويًا ، وحكم عليها بأنها قليلة أو خطأ أو قبيحة ، أو قليلة خبيثة ، فيقول بعد عرضه لبعض التراكيب " وهذا بعيد لا تكلم به العرب ولا يستعمله منهم ناس كثير " (١) وقوله معلقاً على بعض التراكيب " أعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون (٢) ... " وكان سيبويه يرى أنه من الضرورى تحكيم سنن العرب فى كلامها حين النظر إلى اللغة ، كما

(١) الكتاب ٢ / ٤١١ ط : هارون .

(٢) ٢ / ١٥٥ وانظر : التراكيب غير الصحيحة نحويًا فى الكتاب د . محمود ياقوت . دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية .

(٣) الكتاب ٢ / ٣١٧ ط : هارون . (٤) الكتاب ٣ / ٢١ هارون . (٥) الكتاب ٢ / ٤٠٠ هارون .

(٦) الكتاب ١ / ٤٧٤ بولاق . (٧) الكتاب ٢ / ١٠٣ بولاق .

(٨) انظر : فهرس سيبويه ٦٣ فما بعدها للشيخ عزيمة .

(*) نشر القسم الأول فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة . الجزء ٧٢ من ذى الحجة ١٤١٣ هـ - مايو ١٩٩٢ .

«مستوى لغات العرب» فلا يصح أن يحكم بخطئها ، وكان هدف سيبويه وغيره التقنين لفصحى ، كما أن الحكم على هذا التركيب بالخطأ وغيره أنها لم ترتق عندهم إلى درجة اللهجات القوية في الجزيرة العربية حتى تثبت أقدامها جنباً إلى جنب مع اللهجات القوية للقبائل المشهورة .

وأحياناً كثيرة يقبل التراكيب كقوله :
سمعنا العرب الفصحاء ، سمعت رجلاً
من أهل البادية ، قال قوم ترضى
عربيّتهم ، سمعنا ناساً من العرب (١) .

وقد مال سيبويه حين تكلم عن الخلاف النحوى فى بعض التراكيب بين الحجاز وتميم إلى أن التميمية أقيس الوجهين (٢)
وقد تابعه فى ذلك طائفة من اللغويين (٣) .

أما ابن جنى فيقول : " ألا ترى أن لغة

التميميين فى ترك أعمال « ما » يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين فى أعمالها - كذلك - لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ، ويخلد إلى مثله ، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين لصاحبتهما ، لأنها ليست أحق بذلك من رسلتها ، لكن غاية مالك فى هذا أن تتخير إحداهما فتقدمها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين ، أقبل لها وأشد أنسابها فأما ردّ إحداهما بالأخرى فلا " (٤) . فابن جنى يرى أن كل اللغات حجة ، مهما اختلفت ، وإذا تكلم إنسان على قياس لغة منهما أصاب ولم يخطئ ، ويرى أبو حيان الأندلسى : أن كل لغة منها يقاس عليها (٥) ، ويقول أبو عثمان المازنى " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم " (٦) ومع ذلك ، فهناك لغة أقوى قياساً ، وهناك لغة أضعف قياساً يقول ابن جنى :

(١) انظر : فهارس كتاب سيبويه للشيخ عضيمة .

(٢) الكتاب ١ / ٤٠٣ و ٢٨ ط . بولاق .

(٣) الخصائص ١ / ١٢٥ و ١٦٧ وابن يعيش : شرح المفصل ١٣٢ فما بعدها .

(٤) الخصائص ٢ / ١٠ .

(٥) المزهر : ١ / ٢٥٨ .

(٦) المنصف : ١ / ١٨٢ .

فأما أن تقل إحداهما وتكثر الأخرى -
جداً فإنك تأخذ بأوسعهما رواية ،
وأقواهما قياساً (١) . فלغات القبائل يمكن
القياس عليها جميعاً وبناء الأحكام على
نصوصها ، غير أن هناك لغة أجود في
القياس من لغة ، وأفصح في الاستعمال،
وأشيع في القبائل .

ولهذا لا يكاد يختلف التركيب في
القبائل عنه في اللغات العربية الأخرى ،
إلا في نزر يسير ، لأن ظواهر التركيب
فيها أقل الظواهر اللغوية تطوراً وتغيراً .
فالتراكيب في لغات القبائل متقاربة من
«حيث أنماطها وأشكالها» . ويقول ابن
جنى في معنى ذلك " ومع هذا فليس
شيء مما يختلفون فيه - على قلته وخفته
- إلا له من القياس وجه يؤخذ به ، ولو
كانت هذه اللغة حشواً مكيلاً ، وحشواً
مهياً لكثير خلافتها وتعادت أوصافها (٢) " .
بل من الصعب أن نحكم على تركيب ما
بالخطأ ، لأن المعاجم ربما أغفلت هذا

التركيب والنص عليه ، رغم وروده في
كلام عربي أو في لهجة قبيلة عربية ، أو
قد نجد له وجهاً في العربية يخرج عليه .

والدكتور تمام يلفت النظر إلى حقيقة
منهجية يتضمنها موقف النحو العربي من
التصويب والتخطئة ، فيشير إلى الصواب
والخطأ في عرف النحاة لا ينبغي أن
يفهما على إطلاقهما ، ولا أن يتم الانتقال
من الحكم بأحداهما إلى الحكم بالآخر
فجأة ، ولا أن يفصل بينهما خط مستقيم
على أحد جانبيه الصواب ، وعلى الآخر
الخطأ ، ذلك أن موقف النحو العربي من
ذلك يبدو من حيث التداخل في الفهم
كألوان الطيف ، لا يدري المرء أين يبدأ
لون منها وأين ينتهي ، وربما تعارض
اللونان منها ، وربما أبطأ لون أثر لون ،
بل ربما وقف البصر عند نقطة بين لونين
فلا يدري أينسبها إلى هذا اللون أو ذاك،
ومرجع هذا كله إلى طبيعة البناء النظري
لنظام النحو العربي ، ففيه أصول مجردة

(١) الخصائص : ٢ / ١٠ .

(٢) الخصائص : ١ / ٢٤٣ فما بعدها .

هى دائماً نقطة البداية فى التحليل ، سواء منها ما كان أصل وضع وما كان أصل قاعدة ، وإذا كانت هذه الأصول النظرية بحكم مفارقتها للاستعمال تتسم بالاطراد التام ، فإن الاستعمال لا يمكن أن يستقيم على سمتها ، ومن هنا يأتى الاستثناء من الأصول حيناً والاستدراك عليه حيناً آخر ، ليكون من هذا وذاك قواعد فرعية تتسم بالعدول عن الأصل ، فتنشأ بها درجة من درجات الصواب لا تتفق مع أصول اللغة ، فتكون هذه الدرجة كلون جديد من ألوان الطيف ، يختلف عما جاوره ويتداخل معه " (١) .

ومن هنا يمكن أن يباح الترخص فى تركيب بعض القبائل العربية التى اختلفت مع الفصحى والعرف الشائع فى التراث ، كما أن لها مستوى يختلف عن مستوى الفصحى ، وقد ورد الترخص عن العرب فى استعمالها اللغوى فهو إذن درجة من درجات الصواب ، وما دام كذلك فلا

يصح أن يوصف بالخطأ لأن المترخص صاحب لغة ، وإذا كان بعض النحاة قد رمى بعض تراكيب القبائل بالندرة والقلّة والشذوذ ، فلا يعنى هذا أن التركيب غير فصيح ، وذلك استناداً على أصل شامل من أصول النحاة أنفسهم حين يقررون — أن " الشذوذ لا ينافى الفصاحة " (٢) فلم يعد مقبولاً الآن أن نخطئ التراكيب القبلية اللغوية التى جرت على السنة القبائل ، لمجرد مخالفتها للغة المشهورة ، فكل ما يشيع من وجوه التراكيب يكفى فى قبوله أن نجد شاهداً أو نجد له تخريجاً وإن كان مرجوحاً ، ومن الخطأ أن يخطئ النحاة أصحاب اللغة ، ولو كان كلام أهل هذه اللغة خارجاً عن القياس ، فالقواعد النحوية لاحقة للنص لا سابقة عليه ، يقول ابن ولاد : " الذى للنحوى أن يفعله أن يمثل ويعتّل لما جاء عن العرب فأما أن يردّه فليس ذلك له " (٣) ويقول أيضاً " لابد من متابعتهم " أى العرب « إذا كان » النحوى « يريد التكلم

(١) بحوث لغوية وأدبية ٨ فما بعدها و ٢١ فما بعدها ، معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى .

(٢) الأصول : ٢٢٤ د . تمام ، طه الدار البيضاء .

(٣) الانتصار لابن ولاد : ١٢٠ فما بعدها .

بلغتهم دون ما يطرد لنا ويحسن من مقاييسنا (١) قال أبو منصور الحمشاذي ليس لأحد منا أن يعيب على الآخر فيما هو خلاف لغته ، كذلك لغات العرب في اختلافها " (٢) .

كما أن التراكيب الشاذة عند الغرب ليست منبوذة ، بل هي صيغ قوية بقيت خارج القاعدة ولم تستسلم لقوة القياس ، بل فرضت نفسها بخصائصها الفردية ، وهي وإن شذت بالمفهوم الصحيح ، إلا أنها تحفظ ولا يقاس عليها ، على أن قبول التراكيب أو رفضها يخضع للمستوى الصوابي فهو الذي يقوم على أساسه الحكم بالصحة والخطأ ، وسبب الاختلاف بين اللغويين فيما يجوز من التراكيب وما لا يجوز يعود سببه إلى تحديد المستوى الصوابي ، فالأصمعي كان يقول أفصح اللغات ويلغى ما سواها

• ، أما أبو زيد فيجعل الشاذ والفصيح واحداً فيجيز كل شيء قيل ، كما كان يتسع في اللغات (٣) ، وقد كان البصريون لا يقيسون إلا على المشهور الشائع ، أما النادر فلا يقاس عليه ، والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً ويؤبوا عليه (٤) ، وهكذا لم يتفق كثير من اللغويين على مقياس محدد يقوم على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ ، فمنهم من سلك مسلكاً متشدداً بالوقوف على ما سمع ، وعدم الاعتراف إلا بالأفصح ، ومنهم من يرى أن من يتكلم بلهجة من لهجات العرب ، أو يقيس عليها ، ولو كانت نادرة أو رديئة فهو مصيب غير مخطيء (٥) .

فمقياس الصواب والخطأ مختلف عند المتشددين وعند المتساهلين كما أن

(١) الانتصار : ٣٢٧ فما بعدها .

(٢) الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة ٦٠ للبيهقي ، تحقيق ، د. عبد الكريم بكار . ط. بريدة / السعودية .

(٣) انظر : المزهري ١ / ٢٣٣ وطبقات النحويين واللغويين ١٨٢ للزبيدي .

(٤) الاقتراح ٨٤ ط حيدر آباد .

(٥) لحن العامة ٤٧ د. عبد العزيز مطر .

القدماء ربطوا الصواب والخطأ بفكرة
البداءة والحضارة ، وطالعونا بقوائم
القبائل التي يؤخذ عنها ، والتي لا يؤخذ
عنها ، وحين جاسوا إلى تطبيق هذه
الأسس كانت لهم مواقف غريبة مثل :
تخطئة بعض القراءات التي لم تتفق مع
قواعدهم ، وتخطئة بعض الشعراء الذين
عاشوا في عصور الاستشهاد ، وأخيراً
إجازتهم في العربية ما ليس منها اعتماداً
على القياس النظري الذي لا تسنده مادة
لغوية أو استقراء .

والحق أن مقاييس الصواب والخطأ
مقاييس متغيرة متجددة ، فما هو خطأ
اليوم قد يكون صواباً غداً والعكس
صحيح ، فمجمع اللغة في القاهرة قد أقر
كثيراً من التراكيب والألفاظ فأصبح
صواباً ما كان بالأمس خطأ ، وكثير من
الأساليب الخاطئة قد تحقق لها النصر
إذا بدأ في استعمالها عالم مرموق ، أو
ممن لهم مكانتهم الاجتماعية والثقافية ،
بل إن كثيراً من الاستعمالات والتراكيب

الخاطئة دخلت اللغة عن طريق القياس
الخاطيء ، ويشفع لها أنها انحراف نحو
منطقة نفوذ الكثرة ، وتحوّل إلى اتجاه
جديد (١) ، ولابد في الصواب والخطأ من
ربطهما بالعرف اللغوي للجماعة اللغوية ،
فلا يصح أن نتكلم عن الصواب والخطأ
دون أن نربطها بالمستوى الكلامي الذي
ينتمي إليه المتكلم ، وما يروى عن الشيخ
حمزة فتح اله حين غادر قطار السكة
الحديدية نادى أحد المكارين قائلاً له : يا
مكارى ! إيتنى بحمارٍ جَمَزَى ! فلم يفهم
الرجل مراده ، وتركه وانصرف ، وهنا
حلّت العقوبة بالشيخ حين هروا إلى داره
ماشياً قائلاً :

مشيناها خطأً كُتِبَ علينا

ومنْ كُتِبَ عليه خطأً مشاها

فالشيخ قد جانب الصواب اللغوي
بهذا المقياس ، وإن كان قد تكلم باللغة
الفصحى لأن المستوى الصوابي معيار
لغوي يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ
في الاستعمال في ظل مقياس اجتماعي

(١) محاضرات في علم اللغة ١٢٩ ، د. أحمد مختار ١٩٦٨ .

يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام في الاستعمال (١) .

على أن الأخطاء اللغوية تفيدنا كثيراً عند دراستها ، لأن بعضها يصور لهجات قبلية ، فقد رمى الإمام الشافعي بالخروج عن استعمال العربية الفصحى في بعض التراكيب ، وغاب عن ناقيه أن الفصاحة ليست على درجة واحدة ، فمنها ما هو خلاف بين العرب أنفسهم ، فاستعمل الشافعي لغة وعدل عن الأخرى وأحياناً يستعمل اللغتين معاً ، كما عيب عليه أشياء لغوية لأنها لم ترد في كتاب العين للخليل بن أحمد ، ظناً منهم أن ما لم يذكره الخليل ليس من لغة العرب ، كما استعمل الشافعي لغات قليلة ولما كانت أصول العربية مرنة ولهجاتها مختلفة ، فقد سمح للشافعي أن يتنقل في استعماله بين الفصيح والأفصح والكثير والقليل والغالب والنادر ، وإذ كنا وجدنا من يعترض على بعض استعمالات

الشافعي اللغوية فإننا وجدنا كثيراً من دافع عن لغة الشافعي مؤيداً دفاعه بأقوال أئمة العربية وعلمائها ، واللغة لا شك أدق من قواعدها والذوق أصدق من أجروميتها ، واللغة أولاً وأخيراً هي أوسع من معجماتها ، ولا تعدو المسألة في النهاية أن يكون الشافعي قد استعمل لغة قومه في الحجاز وهي في بعض استعمالاتها مخالفة لما عليه الجمهور أحياناً ، فالشافعي مصيب ، لأنه صور لغته ، والمغلط غلط . وممن رد على منتقدي الإمام في مسائل العربية الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٢) .

وقد غاب على المنتقدين للشافعي في لغته : أنه أقام في بطون العرب عشرين سنة يأخذ أشعارها ولغاتها ، ولزم هذياً وهي من أفصح العرب فتعلم كلامها ولغتها ، وأصبح كلامه حجة في اللغة كما يقول ابن حنبل ، ويقول الأصمعي : صححت أشعار الهذليين على شاب من

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ٦٧ ، د. تمام حسان .

(٢) وذلك في كتاب « الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة » تحقيق د. عبد الكريم بكار ط : بريدة . السعودية .

قريش يقال له : محمد بن إدريس ، وقال غلام ثعلب : سمعت ثعلبا يقول : إنما توحد الشافعي باللغة لأنه من أهلها ، وإذا كانت هذه نشأة الشافعي بين أقحاح العرب هي التي جعلته من أفصح العرب بيانا وأنداهم لساناً ، أفصح أن يجعل قول من هو دون الشافعي حجة عليه (١) ! وإذا نظرنا إلى الشريعة وعلاقتها باللغة معروفة - عرفنا أن كل ما ليس قطعياً من الأحكام هو أمر قابل للاجتهاد ، وإذا كان يقبل الاجتهاد فهو يقبل الاختلاف ، وقد روى عن الشافعي قوله : " رأى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب ، وهذا الاحتمال من الجانبين - احتمال الخطأ في رأى المجتهد واحتمال الصواب في رأى غيره - هو الذى يقرب المسافة بين الطرفين ، وهذا من إنصاف الشافعي وسعة علمه ورحابة أفقه ، ومن هنا يمكن أن نقول : بإمكان تعدد الصواب - لكن ابن جنى له

(١) انظر : المصدر السابق « مقدمة المحقق » .

(٢) انظر : المفضل في شرح أبيات المفصل ٣٣٣ للسيد بدر الدين الحلبي .

(٣) الخلاف بين النحويين ٢٥٢ د . السيد رزق الطويل ، الفيصلية ، مكة ، ط ١ .

(٤) المرجع السابق ٢٦٠ .

مقولة أخرى حين يرى " أن العربى الخالص لا يجرى على لسانه لحنٌ وكل ما تسمع منه فهو اللغة العربية ... فلا يخطأ واللغة ما نطق به " (٢) والحكم بالخطأ أو اللحن فى الإعراب أو التركيب لابد أن يسبق بمعرفة تامة بلغات العرب ، فأغلب ما نسب إلى الخطأ وجد له نظير من لغات العرب ، أو سند من قواعد بعض النحاة ، وكثير من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين يرجع إلى أن أحد الفريقين إنما يعتمد فى رأيه على لغة من لغات العرب لم يعتمدها الفريق الآخر ، فمن ذلك :

(١) التعجب من البياض والسواد دون غيرهما من الألوان والخلاف فى ذلك بين البصريين والكوفيين (٣) .

(٢) تقديم حرف الاستثناء فى أول الكلام (٤) .

(٣) إهمال « أنْ » مع استحقاقها
العمل - لهجة عربية ، ورأى
المدرستين (١) .

(٤) فى نداء الاسم المحلى بآل ،
والخلاف فى ذلك بين البصريين
والكوفيين (٢) .

(٥) حذف « أنْ » فى خبر عسى ، من
الضرورات عند البصريين وكلام
سيبويه جوازه (٣) فى الكلام .

(٦) إلغاء « كان وظن » مع التقديم ،
فقد نقل عن الكسائى أن « كان »
ملغاة ولا عمل لها ، ووافقه ابن
الطراوة .

(٧) كما أن ابن الطراوة أجاز حذف
الجار إذا تعين وأجاز : برئت (٤)
القلم السكين .

٨ « كما أجاز ابن الطراوة تعريف
التمييز (٥) .

(٩) كما أجاز ابن الطراوة نصب
الجزأين بعد : إن وأخواتها ، بل
جعله مقيساً (٦) .

(١٠) ومنع نصب المفعولين متقدمين
فى باب « ظننت » ولا مفر من
رفعهما على الابتداء والخبر
وإلغاء العامل . ويقابل آراء ابن
الطراوة أخرى معارضة (٧) .

(١١) قال الأزهري : وخطأ بعضهم
قول من يقول : فلان يستأهل أن
يكرم أو يهان ، بمعنى يستحق
وأضاف " أما أنا فلا أنكره ولا
أخطئ من قاله ، لأننى سمعت
أعرابياً فصيحاً من بنى أسد
يقول لرجل شكر عنده يداً أوليها :
تستأهل يا أبا حازم ما أوليت ،
وحضر ذلك جماعة من الأعراب
فما أنكروا قوله " (٨) . وما يزال

(٣) المرجع السابق ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ٢٦٤ .

(٤) أبو الحسين بن الطراوة ٩٠ د. محمد البنا . ط. دار الاعتصام . ط. الأولى - القاهرة .

(٥) المرجع السابق ٩٣ .

(٦) المرجع السابق ٩٧ .

(٧) التهذيب ٦ / ٤١٨ « أهل » ، اللسان ١١ / ٣٠ « أهل » ط. بيروت .

(٨) العربية الصحيحة ١٥٦ .

هذا التركيب يعيش فى اللهجات المعاصرة المصرية والعراقية وغيرها مع تسهيل الهمزة وكسر حرف المضارعة .

(١٢) منع بعضهم تركيب « هب أنى فعلت كذا » والصواب صحته وسمع ولا مانع منه قياساً واستعمالاً ، والدليل : ما روى فى الحديث من مسائل الميراث المسماة «الحجرية أو الحمارية»^(١) فقد اعترض أحدهم على عمر بن الخطاب لعدم توريثه من أبيه بقوله : هب أن أبانا كان حماراً ، هب أن أبانا كان حجراً .

وفى العصر الحديث يذهب مجمع اللغة المصرى إلى التيسير والترخص والأخذ ببعض الآراء المرجوحة ، والاعتماد على بعض اللهجات القديمة لتجوين ما منعه النحاة أو توسيع ما

ضيقوه ، ومن قراراته فى النحو والتركيب :

(أ) يجوز أن يقال : عطشانة وغضبانة وأشباهاها ، ومن ثم يصرف (فعلان) وصفا ، ويجمع على (فعلان) ومؤنثه (فعلانة) جمعى تصحيح ، فيقال : سكرانون وسكرانات . وقد اعتمد المجمع فى إجازته على تأنيث (فعلان) لبنى أسد^(٢) .

(ب) قياسية النعت بالمصدر ، وكان النحاة يذهبون إلى أنه - مع كثرتة - مقصور على السماع^(٣)

(ج) يجيز المجمع ما يجرى على الألسنة من حذف (ابن) من الأعلام المتتابة مثل (سافر محمد على حسن) وتضبط على أحد وجهين :

١ - يعرب الأول بحسب موقعه ويجر ما يليه بالإضافة .

(١) فى أصول اللغة ١ / ٨٠ مجمع اللغة العربية . القاهرة .

(٢) فى أصول اللغة ٢ / ١٦٠ .

٢ - تسكن الأعلام كلها إجراء
للوصل مجرى الوقف^(١) .

ومن خلال ما سبق نرى تطور
التركيب من القديم إلى الحديث وفي
أثناء مسيرتها نرى بناء الجملة العربية
يشتمل على ظواهر لاتكاد توجد في
الضوابط التي استخرجها النحاة من لغة
القرون الأولى ، بل نجد ظواهر شائعة
في النثر العربي الحديث لا يكاد يعرفها
الاستخدام القديم ، مما يؤكد تطور هذه
التركيب عبر القرون^(٢) .

ثانياً :

ويجب أن نشير هنا إلى تعدد الوجوه
الإعرابية في التركيب ، وسنجد أنماطا
منه كثيرة في الحديث عن لهجات القبائل
على مستوى النحو والتركيب ، وتعدد
الأوجه الإعرابية يستمد صحته من جهل
بالموقف اللغوي ، وقد كان بعض النحاة
يحاولون بتوجيهاتهم المختلفة أن يقدموا

عدة احتمالات افتقدت الموقف اللغوي في
حال النطق ، فمثل قوله تعالى : " وإن
تخالطوهم فأخوانكم "^(٣) . حيث ترفع
كلمة (إخوانكم) على تقدير ضمير (فهم)
كأنك قلت : فهم إخوانكم ، يقول الفراء :
ولو نصبته كان صوابا ، يريد : فأخوانكم
تخاطبون^(٤) ، تكون كلمة (فأخوانكم)
جملة فعلية ، وعلى التقدير الأول - جملة
اسمية ، ولكن لابد أن يختلف المعنى على
كل : فإذا كان التركيب (فهم إخوانكم)
فالمعنى أن هذا شيء ثابت مقرر ، وإذا
كانت (فأخوانكم تخاطبون) فالمعنى أن
لابأس من استحداث هذه السقة الحميدة
مع إخوانكم .

ومن التراكيب السطحية التي لها
ثلاثة معان مختلفة قوله تعالى :

" يُريكم البرق خوفاً وطمعاً "^(٥) ،
فيحتمل :

١ - المصدرية : يريكم البرق
فتخافون خوفاً وطمعون طمعا .

(١) المرجع السابق ٣ / ١٧٠

(٢) اللغة العربية عبر القرون ٧٧ فما بعد ها د / محمود حجازي ، دار الكاتب العربي ١٩٦٨ (القاهرة) .

(٣) البقرة آية : ٢٢٠

(٤) معاني القرآن : ١ / ١٤١ فما بعدها للفراء .

(٥) الرعد ١٣ .

٢ - الحالية : يريكم البرق خائفين
وطامعين .

٣ - المفعول لأجله : يريكم البرق
لأجل الخوف والطمع .

وهناك تراكيب كثيرة فى التراث لها
أكثر من معنى وأكثر من بنية عميقة (١) ،

وقد أثبت علم اللغة النفسى أن فهم
الجملة ذات المعانى المتعددة يستغرق وقتا
أكثر من الجمل ذات المعنى الواحد على
الرغم من أن السامع قد لايلحظ إلا معنى
واحدا من معانيها ، لأن السامع حين
يستخلص معنى الجملة فإنه يقوم بعملية
تحليل لهذه الجملة كى يتوصل إلى بنيتها
العميقة ومن ثم إلى معناها . (٢)

من ذلك قول المتنبى :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت ...

... لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلًا

١ - ف (لها) جار ومجرور متعلق

بوجدت ، لكن فيه تعدى فعل الظاهر
إلى ضميره المتصل كقوك (ضربه
زيد) وذلك ممتنع .

٢ - أو يكون صفة فى الأصل لسبُلا فلما
قدم عليه صار حالا منه ، كما أن
قوله (إلى أرواحنا) كذلك ، إذ
المعنى : سبلا مسلوكة إلى أرواحنا .

٣ - أما الإعراب الثالث فهو أن تقدره
جمعا للهاء كحصاة وحصى ، ويكون
(لها) فاعلا بوجدت ، والمنايا
مضافا إليه ، ويكون إثبات اللهوات
للمنايا استعارة ، شبهت بشئ يبتلع
الناس ، ويكون أقام (الله) مقام
الأفواه لجأورة اللهوات للقم ،
ويصف ابن هشام الإعراب الأخير
بأنه غريب (٣) .

فإذا كانت الاحتمالات الإعرابية
تسير وراء المعنى وتخدمه فلا بأس بحيث
لا تتعداه إلى الشكل والصنعة إذ
المحافظة على المعنى أولى (٤) .

(٢) المرجع السابق ٢٢١

(١) العربية والغموض ٢٢٠ د . حلمى خليل . ط أولى

(٣) معنى اللبيب ١ / ٢٢٢ فما بعدها . تحقيق محيى الدين . ط المدنى . القاهرة .

(٤) الهمع ١ / ٨

وغياب الموقف والمقام وما يصاحب الكلام المنطوق من علو الصوت أو انخفاضه أو الضغط على بعض الكلمات دون بعض ، مظهر تشكك وخط واضطراب وتميع في أداء التركيب ، بل يحول تعدد الوجوه بين مضمون الفكر ، وبين الإبانة عن ذلك المضمون ، ولهجات القبائل التي قمنا بدراستها جاعتنا مكتوبة لامنطوقة غاب فيها ما سبق أن ذكرناه من المواقف والسياقات وما يصاحبهما ، ولذلك يحاول بعض النحاة عرض احتمالات إعرابية في التركيب الواحد من غير مقتضى لتعدد المواقف ، وسترى أمثلة لهذا ^(١) ، أما إذا كان الموقف محددا ، فإن التركيب يقتضى وجها واحدا لا غير .

وتطالعنا الاحتمالات الإعرابية المسرفة في التركيب ، وهي لا تفرق بين وجه قوى أو ضعيف أو قريب أو بعيد ، ثم ترى التوالد العجيب للاحتتمالات

الإعرابية يدور في عمليات حسابية مجردة لا حس فيها ولا حياة ، وهي أشبه بالتجريدات العقلية والافتراضات الذهنية والتمحلات التي لا تمس الواقع اللغوي وأحيلك إلى مصدرين :

أولهما : رسالة لأبي جعفر النحاس ^(٢) . (ت ٣٣٨ هـ) في إعراب قول سيبويه (هذا باب علم ما الكلم من العربية) وقد أوصل النحاس احتمال وجوه الإعراب في قول سيبويه السابق إلى بضعة وأربعين احتمالا ، أما أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) فقد أوصل ^(٣) . احتمالات وجوه الإعراب في قول سيبويه السابق إلى خمسة عشر احتمالا .

وأما الآخر : فهو أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) في (أقسام الأخبار) ^(٤) . وسترى فيها عجا للاحتمالات الإعرابية في التركيب وهي

(١) انظر : الباب الثاني (التركيب) في كتابنا (اللهجات العربية في التراث) ج ٣ ط : تونس

(٢) مخطوطة ضمن مجموعة في مكتبة شهيد على باشا بتركيا تحت رقم ٢٧٤٠

(٣) شرح السيرافي سيبويه ١٣٧ نحو مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) نشرت في مجلة المورد العراقية المجلد ٧ عدد ٣ / ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

ذهنية عقلية مجردة ليس وراءها معنى .
أما إعرابه لقول سيبويه السابق فقد
أوصله إلى خمسين وجها ، ثم يقول فى
آخرها : وقد تبلغ هذه الوجوه ستين
وتزيد على السبعين إذا استقصى التفرع
فيها ... وإيثار الاختصار أولى ...

أما ابن العريف : ففى مسألة واحدة
خرجها بلغت من وجوه الإعراب ألفى ألف
وجه وسبعمائة ألف وجه وأحدا وعشرين
ألف وجه وستمائة وجه فى جملة واحد (١)
ولا أريد أن أجعل من استشهادى
هذا منبرا للتشهير بالقدماء لكن الجهود
التي بذلوها - وهم فيها مشكورون -
ستظل خاضعة للنظر ، كما أننا لا نريد
أن نزن مناهجهم بمعايير القرن الذى
نعيش فيه الآن ، وإلا ظلمناهم .

وقد يجلب التعدد والاحتمالات صورا

من صور الغموض الذى ينشأ من
استغلاق المعنى بسبب عدد الجمل
الأساسية والفرعية وطولها ووقوع
مكوناتها فى غير موضعها الطبيعى من
التركيب نتيجة للتقديم والتأخير والتعريف
والتنكير الحذف (٢) . والإضافة والفصل
والوصل واضطراب عوة الضمائر وموقع
الكلمات والأدوات وترتيبها ، كما وردت
نماذج فى التركيب ذات أنواع وأنماط
عدة ، بعضها أمكن تفسيره أو تأويله على
وجه الوجوه غير المشهورة فى عرف
الأقدمين كالتبادل بين الحروف ،
واستعمال حرف مكان آخر ، واستعمال
الفعل اللازم متعديا ، أو جعل المتعدى
إلى واحد متعديا لاثنتين ، أو يكون
المتعدى لاثنتين متعديا لواحد بنفسه
ولآخر بحرف الجر .

وكما يكون التركيب بين الجمل يكون

(١) الأشباه والنظائر ٣ / ١٣٥ . طه عبد الرؤوف سعد . مصر .

(٢) انظر : الحذف فى المثل العربى . د . عبد الفتاح الحموز . دار عمان الأردن ط ١ وفى كتب (الأمثال) يكثر : الحذف
فى كثرة غامرة فقد تحذف بعض المرفوعات أو المنصوبات أو المجرورات ، وكذلك الجمل ، كما يكثر فى (الأمثال)
التقدير والتأويل والحمل على المعنى ، وترجع أهميتها فى التركيب إلى أن كثيرا منها جرى به لخروجه عما يقتضيه
الأصل النحوى وقياسه . وهى فى ذلك تشبه التراكيب اللغوية فى القبائل العربية . إلا أنها وردت فى (الأمثال) خالية
من العزو .

كذلك فى المفردات والأدوات ، فالتركيب فى الأدوات النحوية يزيل المعنى الاستقلالى لكل منها ، ويكسبها بعد التركيب حكما (١) . جديدا ، وكما يغنى التركيب عن العطف والتكرار فإنه كذلك يبطل عمل الأداة مثل (إن وأخواتها ورب) إذا تركبت مع (ما) ، وينقل بعض الأدوات من حال إلى حال مثل (إذ) فهى ظرف ، ولما تركبت مع (ما) أصبحت حرفا من حروف الجزاء ، و(عليك وإليك) حرفا جر ، وبعد التركيب انتقلا إلى حيز (اسم الفعل) و (مكانك ودونك) ظرفان ، وبعد التركيب انتقلا إلى اسم الفعل .

وغموض التركيب كما وقع فى الفصحى المكتوبة - وقع فى اللهجات العربية القديمة منطوقة ومكتوبة ، وتمثل هذا فى ظاهرتى الوقف والابتداء والفواصل والإعراب وما يصاحب التركيب من تنغيم وتلوين صوتى فى أدائه ، وقد وقع فى اللهجات القديمة هذا

الغموض أيضا بسبب الاحتمال فى الدلالة فلا يعرف القارئ أى الدلالات المقصودة ، كما يقع بسبب الصور المجازية وخفاء دلالتها لمخالفتها لما جرى عليه العرب أو العرف اللغوى ، ومن هذا الباب : التعريض بمعنى عدم التصريح المباشر بأمر معين واللجوء ليس فقط إلى لفظ مغاير أو تحسين اللفظ بل إلى الكذب المباح ، ومن ذلك أن الخليفة زياد بن عبد الملك قد مرض ، ودخل عليه القاضى شريح فلما خرج سأل أحدهم : كيف تركت الأمير : قال : تركته يأمر وينهى . فقال : إن شريحا صاحب عويس ، فسأله ، فقال : تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء ، يعنى : أنه يحتضر (٢) كما أن (القوصرة) إناء من قصب يرفع فيه التمر إلى البوادرى ، وهناك رجز يقول : أفلح من كانت له قوصره . . يأكل منها كل يوم تمره .

أراد بالقوصرة هنا : المرأة ، وبالأكل : النكاح (٣) .

(١) انظر : الأدوات : كائن وحيدا ، وكذا ، حيهل ، فى كتب : حروف المعانى .

(٢) المحظورات اللغوية ٧٢ د . كريم جسام الدين . ط ١ / الانجلو المصرية .

(٣) السابق ٧٨

كما وقع الغموض نتيجة للترادف والمشارك اللفظي والأضداد وغيرها ، لأنها تؤدي إلى التعدد والاحتمال في المعاني (١) .

وظهر الغموض أيضا في التركيب النحوي بسبب (اللبس) ، وكثيرا ما تسلت ظاهرة اللبس إلى التركيب ، لأن العربية تواجه كثيرا من المعاني النحوية بالقليل من القرائن اللفظية ، وتواجه العديد من معاني الجمل بثلاثة أنواع من التراكيب (الخبر والإنشاء والشرط) وتواجه الكثير من العلاقات النحوية بالقليل من صور التضام (كالوصوف وصفته والمضاف والمضاف إليه ، وإذا كثرت المعاني وقلت وسائل التعبير عنها أصبح المعنى عرضة للتعدد بالنسبة للمبنى الواحد ، وإذا لم يكن هناك قرينة من لفظ أو معنى أو حال تعين أحد المعاني المحتملة وذلك هو (اللبس) (٢) .

وإذا قال النحوي : فيها إعرابان ،

فهو يعنى بقوله (فيها لبس) ومن حق كل نص أن يكون فيه إعراب واحد ، كما تصلح الأداة لأكثر من معنى من ذلك أن تقول : ما أسعدنى هذه الليلة . فهو صالح للاستفهام والتعجب ولكن العربية قادرة على مراوغة اللبس ، ولهذا زادت حرف الجر (من) للفرق بين الحال والتمييز في نحوقولهم : لله دره من فارس ، فالموضع التبس فيه التمييز بالحال فأتوا (بمن) لتخصيصه للتمييز ، فإذا قلت : لله دره فارسا - جاز أن تعنى في هذه الحال ، فلما كان يقع فيه لبس مشتبهين فصل بينهما بدخول (من) .

كما تحذف الفاء مع معطوفها للدلالة إذ لا لبس كقول الحق : فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر (٣) . أى : فأفطر فعليه عدة من أيام أخر ، فحذف (أفطر) والفاء الداخلة عليه وابن مالك أشار إلى ذلك بقوله :

(١) العربية والغموض ٢٢٩ ، د . حلمي خليل . ط . الأولى .

(٢) مقالات في اللغة والأدب ٢٠٤ فما بعدها ، د . تمام حسان ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م جامعة أم القرى .

(٣) البقرة / ١٨٤

والفاء قد تحذف مع ما عطففت .
والواو إذ لا لبس وهي انفردت (١) .

فالعربية ولهجاتها أمكنت التغلب على
هذا اللبس في التراكييب بالقرائن لفظية

كانت أو معنوية أو حالية . فنوضح
المعنى في التركيب أو أمن اللبس غاية
لا يمكن التفريط فيه ، لأن اللغة الملبسة لا
تصلح واسطة للفهم والإفهام .

للبحث بقية

أحمد علم الدين الجندى
الخبير بالمجمع

(١) انظر أمثلة أخرى في (مواضع اللبس عند النحاه والصرفين ١٨ فما بعدها) د. زين كامل الخويسكى . ط أولى .
اسكندرية .

جموع التكسير والعرف اللغوي

للدكتور محمود محمد الطناحي

وكذلك أسماء الجموع ، وأسماء الجنس
معروفة محصورة .

أما جمع التكسير (٢) . فبحر
لا سبيل له ، لأن منه القياسي ومنه
السماعي ، والقياسي تكفلت ببيانه كتب
الصرف ومعاجم اللغة ، أما السماعي
فهو موكول إلى الاستعمال .
ولا ضابط له ولا حصر .

وقد ذكرنا لجمع التكسير قسمين :

الأبنية التي تدل على الكثرة في
المفرد ستة : جمع المذكر السالم ، وجمع
المؤنث السالم ، وجمع التكسير ، واسم
الجمع ، واسم الجنس الجمعي ، واسم
الجنس الإفرادي (١) .

والشأن في جمعي المذكر والمؤنث
السالمين قريب ، لأن علامة الجمع فيهما
معروفة : الواو والنون رفعاً ، والياء
والنون نصباً وجراً ، والألف والتاء .

(١) اسم الجمع : مالا واحد له من لفظه ، نحو : قوم ونساء ونسوة ، وقنة - بمعنى جماعة - ونقر ورهط وملا . واسم
الجنس الجمعي : ما يدل على أكثر من اثنين ويفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كبقرة وبقر ، وشجرة وشجر ، وتمر وتمر ،
وكلمة وكلم ، وقد تكون التفرقة بالياء ، نحو : زنج وزنجي ، ودوم ودومي ، وترك وتركي . واسم الجنس الإفرادي : هو
ما يصدق على الكثير والقليل واللفظ واحد ، مثل : ماء وذهب وخل وزيت .

(٢) يأتي الحديث عن جمع التكسير عند الأقدمين في أثناء الحديث عن الجموع كلها . انظر مثلاً كتاب سيبويه ٢ / ٣٩٥ ،
ولعل أقدم من عرف جمع التكسير تعريفاً يميزه عن قسيمي جمع المذكر وجمع المؤنث السالمين هو أبو الفتح بن جني ،
فقد قال في تعريفه : " هو كل جمع تغير فيه نظم الواحد وبنائه ، ويكون لمن يعقل ولما لا يعقل ، وإعرابه جار على آخره ،
كما يجري على الواحد الصحيح ، تقول : هذه دور وقصور ، ورأيت دوراً وقصوراً ، ومروءة بدور وقصور " اللمع ص
١٠٧ ، وانظر أبنيته في ص ٢٤٦ .

ولعل أبا بكر بن السراج هو أول من علل لتسمية هذا الجمع ، فقال : " هذا الجمع يسمى مكسراً ، لأن بناء الواحد فيه
قد غير عما كان عليه ، فكأنه قد كسر ، لأن كسر كل شيء تغيير عما كان عليه " الأصول ٢ / ٤٢٩ ، وتبعه أبو على
الفارسي ، فقال : " هذا الضرب من الجمع يسمى جمعا مكسرا ، على التشبيه بتكسير الآنية ونحوها ، لأن تكسيرها
إنما هو إزالة التثام الأجزاء التي كان لها قبل ، فلما أزيل النظم وفك النضد في هذا الجمع أيضا عما كان عليه واحده
سموه تكسيرا " التكملة ص ١٤٧

جموع القلة ، وهى ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وجموع الكثرة ، وهى ما فوق ذلك ، وحصروا أبنية القسمين ، وتكلموا عليها ، ثم ذكروا أنه يجوز أن يستعمل كل منهما مكان الآخر .

وقضايا جمع التكسير متشعبة ، ومَنَادِحُها واسعة ، وقد اخترت من هذه القضايا قضية واحدة ، هى قضية «العرف اللغوى» عالجت فيها جملة من هذه الجموع يظهر فيها ذلك العرف واضحا فارقا بين الدلالات التى يستعمل لها الجمع ، فإذا كانوا قد قالوا : إن «الشَّعر» هذا الذى ينبت فى الجسم مما ليس بصوف ولا وبر يجمع فى القلة على «أشعار» ، وفى الكثرة على «شعور» فهل استعمل الجمعان استعمالا واحدا ، أم أن الدلالة غلبت أحدهما فى موضع ، وصرفت الثانى إلى موضع آخر ؟

وكذلك «البيت» يجمع فى القلة على «أبيات» وفى الكثرة على «بيوت» فهل

استعمل الجمعان استعمالا واحدا فى جمع «البيت» الذى يسكن فيه ، و «البيت» من الشعر ، ذلك الموزون المقفى ؟

والسهم : معناه النصيب والخط ، وهو أيضا : واحد النبل الذى يرمى به ، ويجمع السهم بمعنييه هذين على : أسهم وسهام ، لكن العرف اللغوى - وبخاصة فى أيامنا هذه - قصر الجمع «الأسهم» على «السهم» الذى هو النصيب والخط ، وخاصة فى مجال البنوك والشركات والجمعيات ، فيقال : أسهم المساهمين على حين صرف الجمع «السهام» إلى النبل الذى يرمى به ، وإن كان هذا قد جاء فى الشعر القديم كثيرا ، ومنه ما أنشده سيبويه :

ولقد علمت لتأتين منيتى

إن المنايا لا تطيش سهامها (١)

وقال المتنبى :

أيا راميا يصمى فؤاد مرامه

تربى عداه ريشها لسهامه (٢)

(١) الكتاب ٣ / ١١٠ ، وعجز البيت فى معلقة ليلى ، ديوانه ص ٣٠٨

(٢) ديوانه ٤ / ٣ ، والخزانة ٩ / ١٢٦

وقد جاء هذا الجمع «السهام» في
«السهم» الذي هو النصيب والحظ ، في
الشعر كثيرا .

ومنه قول مروان بن أبي حفصة من
قصيدته الشهيرة في مدح المهدي
العباسي :

أنى يكون وليس ذاك بكائن

لبنى البنات وراثه الأعمام

ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا

أن يشرعوا فيها بغير سهام (١)

والشاهد الذي يطلع على الشئ

ويعاينه يجمع علي أشهاد وشهود ، وقد

جاء الجمعان في القرآن الكريم مجيئاً

مستويا (٢) ، لكن عرفنا اللغوى الآن

لا يستعمل إلا الشهود ، وبخاصة في
القضايا والمنازعات .

ولا يجرى العرف اللغوى بين جموع
التكسير فقط ، بل يجرى بينها وبين جمع
المذكر السالم أيضا ، فالعامل يجمع جمع
تكسير على «عمال» ، ويجمع جمع مذكر
سالم على «عاملين» ولا فرق في اللغة بين
هذا وذاك ، لكن العرف اللغوى الآن -
وبخاصة في ديارنا المصرية - يطلق
«العمال» على الحرفيين وأصحاب
الصناعات اليدوية ، ويجعل «العاملين»
مرادفة للموظفين ، فهو جمع يبدو أكثر
احتراما ، وهذا ما يعرف بانحطاط
الدلالة ، فإن الألفاظ كاللبشر ، تشقى
وتسعد ، وتعلو وتبهط (٣) .

(١) شعر مروان بن أبي حفصة ص ١٠٤ ، والكامل ص ٦٢٠

(٢) راجع سورة يونس ٦١ ، والمدثر ١٣ ، سورة هود ١٨ ، وغافر ٥١

(٣) و«العامل» نفسه مما جرى عليه العرف اللغوى ، فإنه في اللغة : كل من يعمل ، وفي عرفنا اللغوى الآن غلب علي
الحرفي والصانع ومن يعمل بيديه ، وكان يطلق قديما على ما يسمى الآن «المحافظ» فيقال : إن أبا موسى الأشعري
كان عامل عمر بن الخطاب على البصرة ، وإن الحجاج بن يوسف الثقفي كان عاملا لعبد الملك بن مروان علي العراق
فالعمال قديما هم الولاة والمحافظون ، وكتاب تقى الدين السبكي «فصل المقال في هدايا العمال» يريد به ما يقدم للولاة
من الهدايا والرشى ، وقد نشر مختصره في فتاوى السبكي ١ / ٢١٣ وينبغي التنبيه إلى أن «العامل» لا يزال مستعملا
بهذه الدلالة القديمة الرفيعة في المغرب واليمن ، فيقال : عامل فاس ، وعامل زبيد . وهذا سمعته وعاينته في إقامتي
بالبليدين .

وليس من اليسير تتبع دواعي العرف اللغوى ، ورصد أسبابه التى تؤثر جمعا على جمع ، أو تقصر جمعا على دلالة ، وجمعا آخر على دلالة أخرى ، غاية ما يمكن قوله أنه الاستسهال ، أو الاستحسان ، استسهال بنية دون بنية ، واستحسان وزن دون وزن ، ثم متابعة اللاحق للسابق ، مما يمكن أن يسمى : الكسل اللغوى . وفى كلام بعض اللغويين القدامى ما يؤكد ذلك ، قال الليث بن نصر : «الأحجار : جمع الحجر ، والحجارة : جمع الحجر أيضا ، على غير قياس ، ولكن يجوز الاستحسان فى العربية ، كما أنه يجوز فى الفقه ، وترك القياس له ، كما قال :

لا نا قصى حَسَبٍ ولا

أيد إذا مَدَّتْ قِصَارَةً

ومثله المهارة والبيكاره ، لجمع المهر

والبكر (١) .

فهذا معيار من معايير العرف اللغوى : «الاستحسان» وهو غاية يترك القياس من أجلها ، وعلى سبيل المثال فإن «قرية» تجمع فى القياس على «قراء» بكسر القاف لأن ماكان بوزن فَعْلَةٍ ، بفتح الفاء من المعتل ، فجمعه ممدود ، مثل ركوة وركاء ، وظيفية وظيفاء ، ولكنهم تركوا هذا القياس ، وجمعوها استحسانا على «قُرَى» (٢) . وترك القياس والاحتكام إلى السماع كثير شائع جدا فى أبنية جموع التكسير ، فما أكثر ما استعمل جمع القلة مكان جمع الكثرة ، مثل «البيت» الذى يجمع فى القلة على «أبيات» ويجمع فى الكثرة على «بيوت» ، ومعلوم أن جمع القلة من الثلاثة إلى العشرة - كما سبق - لكن «الأبيات» جاءت دالة على الكثرة الكثيرة ، وذلك فى عنوانات هذه الكتب : شرح أبيات سيبويه لابن السيرافى ، وشرح أبيات إصلاح المنطق ، له أيضا ،

(١) العين ٣ / ٧٣ ، ٧٤ ، حكاية الأزهري فى التهذيب ٤ / ١٣٠ ، وابن منظور فى اللسان (حجر) . والبيت الشاهد للأعشى فى ديوانه ص ١٥٧ . وموضع الشاهد أن «القصيرة» من النساء تجمع على «قصاره» . والكلام عليه وشاهده فى اللسان (قصر) .

(٢) انظر الكتاب ٣ / ٥٩٣ ، والتكملة لأبى على الفارسي ص ١٥٦ ، وأمالى ابن السجري ٢ / ٤٧٣ ، والممتع ص ٥٠٠ ، والمصباح المنير (قرى) . لكن «قُرَى» وإن كانت شاذة فى جمع «قرية» فقد قيسَ عليها ، جاء فى اللسان (رحب) : «والرُحبة : ما اتسع من الأرض ، وجمعها رُحَبٌ ، مثل قرية وقُرَى» .

وشرح أبيات مغنى اللبيب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي ، ومعلوم أن الشواهد الشعرية في هذه الكتب تعد بالمئتين (١) .

ولعل أشهر شاهد على استعمال جمع القلة للكثرة هو قول حسان بن ثابت، في ذلك البيت الذي تداولته كتب الأدب واللغة والنحو :

لنا الجفّات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقول النابغة له : " قَلَّتْ جَفَانُكَ

وسيوفاك " ، حيث وضع « الجفّات »

موضع « الجفان » - لأن جمع المؤنث

السالم يُعدّ جمعَ قلة - ووضع « الأسياف »

موضع « السيوف » (٢) .

ويحلو لبعض الباحثين أن يشكك في

هذه الرواية ، على أساس أن مصطلح

« جمع القلة والكثرة » لم يكن معروفاً أيام

النابغة وحسان ، وأنه لم يُسمع إلا في كتاب سيبويه في أواخر القرن الثاني . ولنا أن نقول : إن النابغة - على ما جاءت به الرواية - لم يستعمل كلمة « جَمْع » أما التفتُّن للقلة والكثرة في أبنية الكلام فقد يكون من السلائق اللغوية القديمة الثابتة عند العرب ، وهي كثيرة معروفة ، قبل أن تستقر علوم اللغة والنحو والصرف ، وتتحدد طرائقها ومصطلحاتها .

وقد يكون المعيار في العرف اللغويّ راجعاً إلى رغبتهم في تثبيت الفروق اللغوية في الدلالات ، كالتفرقة في جمع « العبد » بين عباد الله ، والعبيد المملوكين (٣) .

وقد يكون الأمر في العرف اللغويّ مجرد الاستعمال وتصرف العرب في

(١) انظر مقالتي في الجزء الثاني والسبعين من مجلة المجمع ص ١١٥

(٢) ديوان حسان ص ٣٥ ، والخصائص ٢ / ٢٠٦ ، والمصون ص ٣ ، والموشح ص ٨٢ ، والخزانة ٨ / ١٠٦ . ومن

شواهد جمع « السيف » جمع قلة ، وسياقه للكثرة قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ديوانه ص ٤٦

(٣) سيأتي الحديث عنه مفصلاً إن شاء الله .

كلامها ، يكثر استعمالها لشيء ، ويقل استعمالها لشيء آخر ، مع تساويهما في الصحة والجواز : وجدت في حاشية مخطوطة قديمة من «أمالى ابن الشجرى» منسوخة سنة ٥٨١ ، تعليقاً على قول ابن الشجرى : " والعباد مختص بالله تعالى ، يقولون : نحن عباد الله ، لا يكادون يضيفونه إلى الناس " ، وتقول الحاشية : " قد يكثر الشيء في كلامهم وغيره مثله في الجواز . لكن يقل استعمالهم له ، فأما « العباد » فقد جاء في قوله تعالى : « والصالحين من عبادكم وإمائكم » ، وهذا قاطع لمن خالفه " (١) .



على أن من مساوىء هذا العرف اللغوى أنه يُميت بعضَ الجموع حين يهجرها الناس في استعمالهم ، وقد يتمادى هذا الهجران ويتصل حتى ليُظن أن هذا الجمع خطأ ، وعلى سبيل المثال :

(١) أمالى ابن الشجرى ١ / ٩٩ وسيأتى تفصيل ذلك .

تقول اللغة : « رجلٌ قارئ ، من قومٍ قراء وقراءة - بوزن فعلة - وقارئين » فنحن أمام ثلاثة جموع لقارئ القرآن ، اثنان جمع تكسير والثالث جمع مذكر سالم ، ولم يبق من هذه الثلاثة في عرفنا اللغوى الآن إلا اثنان : القراء والمقرءون (٢) ، أما الثالث وهو قراءة - بالتحريك - مثل كامل وكملة ، وساحر وسحرة ، وكاتب وكتبة ، وهو مطرد منقاس فيما جاء على فاعل ، وصفا لمذكر عاقل ، بشرط أن يكون صحيح اللام : فقد هجره الناس هجراً طويلاً ، حتى إنهم إذا وجدوه في كلام ماثور ظنوه خطأ ، وحرّفوه إلى : قُراء ، وترى التنبيه على هذا كثيراً فيما نشره شيخنا محمود محمد شاكر ، من تفسير الإمام أبى جعفر الطبرى ، فقد وجد كثيراً في طبعة بولاق من ذلك التفسير : « قُراء » ، مكان « قُرأة » ، الثابتة في مخطوطة الكتاب .

(٢) ولعل مما أغرى الناس بالوقوف عند هذين الجمعين وهجر الثالث مجيئهما في عنوانين لكتابين شهيرين : أولهما : طبقات القراء لابن الجزرى ، وثانيهما : منجد المقرئين ، له أيضاً .

ومن العلماء الذين أشاروا صراحةً إلى العرف اللغوي في جموع التكسير : سراج الدين أبو حفص عمر بن عبد الرحمن القزويني المفسر المتوفى سنة ٧٤٥ ، وقد ذكر ذلك في كتابه المسمى «الكشف عن مشكلات الكشاف» للزمخشري ، وحكاه عنه شمس الدين أحمد بن سليمان الرومي ، المعروف بابن كمال باشا ، المتوفى سنة ٩٤٠ ، قال في أثناء حديثه عن الأعراب والعرب : « ولا يرد النقض على قوله ؛ لأنه لو كان جمعاً للعرب لكان مدلوله في الجمعية كمدلوله في حالة الأفراد كالفضولى ، فإنها جمع الفضل ، وقد اختلف مدلولها ، قال المطرزي في المغرب : " الفضل : الزيادة ، وقد غلب جمعه على ما لا خير فيه ، حتى قيل :

فضولٌ بلا فضل وسينٌ بلا سنى
وطولٌ بلا طولٍ وعرضٌ بلا عرضٍ

ثم قيل لمن يشتغل بما لا يعنيه : «فضولى» ؛ لأن ذلك الاختلاف من جملة العرف الطارىء ، على ما أفصح عنه صاحب « الكشف » حيث قال فى شرح قول صاحب « الكشاف » : « وهذا فضولٌ من القول » : هو جمع « فضل » غلب على ما لا خير فيه ، عكس الواحد ، وهو عرف طارىء » (١) .



وهنا بحثٌ ، لا بأس على فى الاستطراد إليه إن شاء الله ؛ لأنه يكشف وهماً ويُزيل لبساً يقع فيه كثيرٌ من الناس فى زماننا هذا :

لقد ثبت أن « الفضل » الذى هو بمعنى الزيادة والخير يُجمع على «فضول» ليس غير ، قال عبيد بن العرندس الكلابي :

حبرٌ ثناء بنى عمرٍ وفإنهم

أولو فضولٍ وأنفالٍ وأخطارٍ (٢)

(١) رسالة فى نسبة الجمع . لابن كمال باشا . تحقيق الدكتور محمود فجال . مجلة عالم الكتب ، المجلد ١٣ - العدد ٦ - الرياض ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م . وقول المطرزي فى كتابه : المغرب فى ترتيب المعرب . مادة « فضل » ٢ / ٩٨ - حيدر آباد الدكن = الهند ١٣٢٨ هـ .

(٢) الحيوان ٢ / ٨٩ ، ٣ / ٩٤ ، والكامل ص ١٠٧ ، وروى الجاحظ أيضاً فى الحيوان ٥ / ١٩٤ : « وقدم عبد الملك - وكان يحب الشعر - فبعثت إلى الرواة ، فما أتت عليّ سنة حتى رويت الشاهد والمثل وفضولاً بعد ذلك » أى زيادات .

وقال جرير :

لكم فَرْعٌ تَفَرَّعَ كُلُّ فَرْعٍ

وفضل لا تُعَادِلُهُ الْفُضُولُ (١)

لكننا نسمع ونقرأ في كلام الناس الآن - خاصَّتْهم وعامَّتْهم - قولهم : له على أفضال كثيرة ، ولن أنسى أفضاله ، ونحو هذا ، فيجمعون « الفضل » على « أفضال » ، بل إن بعضهم يضبط ما جاء منه في الشعر القديم كذلك بفتح الهمزة ، يقيناً منهم بأنه جمع لفضل ، وهذا خطأ ، ولا أصل له ؛ لأمرين :

الأول : أنه غير مسموع ولا مروي ، في كلام العرب وأشعارها .

والثاني : أن جمع « فعل » على « أفعال » خارج عن القياس ، والأمثلة التي جاءت منه مسموعة ومحصورة ، مثل حَبْرٌ وأحبار ، وزَنْدٌ وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، إلى آخر ما ذكره (٢) - ولم

يَعْدُوا من أمثلته « فضلاً وأفضالاً » وذكر ابن الشجري أن القياس في جمع «فَعْلٌ» : «فُعُولٌ» نحو فنّ وفنون ، وصكّ وصكوك ، وعلى ذلك يكون قياس جمع «فضل» على «فُضُولٌ» كما ذكرت كتب اللغة .

ولقد امتدّ هذا الوهم إلى ضبط الشعر في دواوين الشعراء وكتب الأدب ، فرأينا من يضبط «الأفضال» في القوافي وفي أثناء الشعر بفتح الهمزة ، توهماً أنه جمع «فضل» كما سبق .

وحقّ ما جاء من ذلك البناء أن يكون بكسر الهمزة «الإفضال» - وهو الإحسان - على المصدرية من الفعل الرباعي . قال في اللسان : «وأفضل الرجلُ على فلان وتفضلُ بمعنى : إذا أناله من فضله وأحسن إليه» .

فحيثما وجدتَ هذا البناء في شعر أو

(١) ديوانه ص ٧١٨ ، وانظر الديوان أيضاً ، صفحات ٢١٩ ، ٢٩٢ ، ٥٣٥ .

(٢) انظر هذه الأمثلة في الكتاب ٣ / ٥٦٨ ، والمقتضب ٢ / ١٩٥ ، والأصول ٢ / ٤٣٦ ، والخصائص ٣ / ٥٩ ، وأمالى ابن الشجري ٢ / ٧٦ ، والتنبيهات على أغاليط الرواة ص ٩٧ ، والتبصرة ص ٦٤٢ ، وشرح المفصل ٥ / ١٦ ، وانظر قصة طريقة حول هذا الجمع بين أبي حيان التوحيدي والمصاحب بن عباد ، في مثالب الوزيرين ص ١٥٠ ، وحكاها ياقوت في معجم الأدباء ١٥ / ٢٦ « ترجمة أبي حيان » ، وانظر الفیصل فی ألوان الجموع ص ٣٦ - ٣٩ .

نثر ، فاقراءه واضبطه بكسر الهمزة ليس
غير ، ولا تَغْتَرَّ بما تجده فى مثل شعر
الرضى :

قد كنتُ أمل أن أراك فأجتنى

فضلاً إذا غيى جنى أفضالا (١)

فقد ضبطه ناشر الديوان بفتح
الهمزة ، ظناً منه أن الشاعر وضع مفرداً
بإزاء جمع ؛ لأن مثل ذلك جاء فى شعر
البحتري ، وتنبه له محققه الأستاذ حسن
كامل الصيرفى ، رحمه الله ، فضبطه
بالكسر ، على الصواب ، وذلك قول
البحتري :

هَبْرِيٌّ يرى وإن فاضَ غُرّاً

لا متداحى فضلاً على إفضاله (٢)

وقوله أيضاً :

فضلٌ وإفضالٌ وما أخذ المدى

بعد المدى كالفاضل المتفضل (٣)

ومن عجب أن هذا الوهم جاز على
بعض كبار المحققين ، فقد ضبطه
أستاذنا العلامة السيد أحمد صقر ،
بالفتح ، فى قول البحتري :

لو لم أعوضه شكراً عن تطوُّله

إذ لم أقابله أفضالاً بأفضال (٤)

وقد كان هذا فى الطبعة الأولى من
«الموازنة» للامدى ، لكنه أصلحه فى
الطبعة الثانية بالكسر ، على الصواب
«إفضالاً بإفضال» ، لكنه كان ينبغي عليه
التنبية على هذا الإصلاح ، حتى يكون

(١) ديوان الشريف الرضى ٢ / ٢٠٨ .

(٢) ديوان البحتري ص ١٨٤٣ ، وانظر « الإفضال » أيضاً فى الديوان ، صفحات ١٦٣٦ ، ١٧٢١ ، ١٨٠٩ ، ١٨١٢ ، ١٨٢٧ .

(٣) ديوانه ص ١٧٤٩ .

(٤) الموازنة ١ / ٣٢١ ، والطبعتان متفقتان فى الترقيم ، والظاهر أن هذا الإصلاح فى الطبعة الثانية من الموازنة إنما جاء نتيجة واثراً لنشرة الأستاذ الصيرفى لديوان البحتري ، فقد ذكر رحمه الله فى حاشية الديوان ص ١٧٢٠ أن هذه القصيدة التى منها هذا البيت لم يسبق نشرها ، ثم كانت نشرة الأستاذ السيد أحمد صقر للموازنة - فى طبعتها الأولى - سابقة على طبع ذلك الجزء من ديوان البحتري ، بآية ذلك أن الأستاذ صقر لم يذكر موضع شعر البحتري من ديوانه ، فى الطبعة الأولى من الموازنة ، فلما كانت الطبعة الثانية منها ، ذكر فى الحاشية موضع الشعر من الديوان من طبعة الصيرفى ، رحمه الله جميعاً ، فقد كانا من أئمة تحقيق النصوص وقد تعلمتا منهما كثيراً .

القارئ المبتدئ على بينة من وجه الخطأ الذى كان ، وماخذ الصواب الذى ثبت .

ثم يتمكن هذا الوهم عند بعض ناشري الشعر ، فيضبط به ، ويشرح عليه أيضاً : جاء فى شعر الأعشى ، يمدح إياس بن قبيصة الطائي :
أبرّ يمينا إذا أقسموا

وأفضل إن عدّ أفضالها

هكذا « أفضالها » بفتح الهمزة خطأ ، فى الطبعتين الأوربية والمصرية (١) ، وثبت هذا الضبط الخاطيء ناشر الطبعة المصرية ، فقال فى شرحه للبيت : « وإنك لأبرهم باليمين ، وأفضلهم إذا عدت الأفضال » وكأنه رحمه الله لم يتنبه لقول الأعشى : « إن عدّ إفضالها » فلم يلحق الفعل علامة التانيث .

وقد أفادنى شيخى محمود محمد شاكر - حفظه الله - أنه فى نسخة عتيقة مخطوطة من شعر الأعشى فى مكتبته ، مضبوط « إفضالها » بكسر الهمزة .

هذا وقد قضيت وقتاً ليس بالقصير فى تتبع هذا البناء فى بعض مالدئ من دواوين الشعراء ، فوجدته مضبوطاً بالفتح فى بعضها ، على توهم أنه جمع « فضل » ، ومن ذلك : ما جاء فى شعر الفرزدق المطبوع :

بل الجود والأفضال منه عليهم

كغيث ربيع كدر الغيث وابله (٢)

والصواب الكسر « الإفضال » ، وهو بمعنى الإحسان كما سبق ، ويؤكد أنه « الفضل » قد سبق جمعه على حق جمعه فى قول الفرزدق :

متى تلق إبراهيم تعرف فضوله

بنور على خديّه أنجح سائله (٣)

وجاء مهملاً فى قوله :

لا يُنعمون فيستثيوا نعمة

لهم ولا يُجزون بالافضال (٤)

فينبغى ضبطه بالكسر .

وجاء فى شعره على الصواب ، فيما

(١) طبعة رودلف جاير ص ١١٨ ، وطبعة د. محمد محمد حسين ص ١٦٥ .

(٢) وانظر « الفضول » أيضاً فى ديوانه صفحات ٦٧١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٨ .

(٣) ديوانه ص ٦٤٨ .

(٤) ديوانه ص ٧٢٨ .

حكاه ابن قتيبة ، قال : « ودخل الفرزدق

على يزيد بن المهلب فى الحبس ، فقال :

أصبح فى قيدك السَّماحةُ والـ

جودُ وحملُ الديات والإفضالُ

فقال له : « أتمدحنى وأنا على هذه

الحال ؟ » قال : أصبتك رخيصةً

فأسلفْتُكَ « (١) .

وجاء خطأ أيضاً بالفتح فى شعر

ابن الرومى ، وذلك قوله :

وشكُرُ تفضيل الرجال الأفضالُ (٢)

وكذلك جاء فى شعر ابن قلاقس ،

وهو قوله :

لبسوا بالأثير حلَّةً فضِّلُ

طرزَتْها يداه بالأفضالِ (٣)

وفى شعر أبى حيان النحوى ، وهو

قوله :

وتُبَّتْ لله أرجو منه مغفرةً

ورحمةً تُوسِعُ المسكين أفضالاً (٤)

وفيما أنشده الثعالبي :

الحمد لله ليس لى مالُ

ولا لخلقٍ على أفضالُ

الخان بيتى ومِشجبى بدنى

وخازنى والوكيلُ بقالُ (٥)

وضبطناه نحن أيضاً خطأ فى قول

فتح الدين القليوبى :

(١) الشعر والشعراء ص ٤٨٠ ، والعقد الفريد ١ / ٣٠٣ ، وشروح سقط الزند ص ٧٦٠ ، وهذا البيت مما أخل به ديوان الفرزدق المطبوع .

(٢) ديوانه ص ١٩٦١ ، ولكن جاء فيه « الإفضال » بالكسر على الصواب ، فى الصفحات : ١٩١٤ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ ، ١٩٦٢ ، ٢٠٢٨ ، ٢٠٥٨ .

(٣) ديوانه ص ٤٩٥ .

(٤) ديوانه ص ٣٦١ - وأرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بذكر هذه الفائدة : جاء فى أثناء قصيدة أبى حيان هذه ، فى الديوان ، ذلك البيت : فالحمد لله إذ لم ياتنى أجلى حتى اكتسيتُ من الطاعات سريالا

وهذا البيت مقحم لاشك ، فإنه بيت قديم ، وقد تنازعه شعراء ثلاثة : لييد ، والنايعة الجعدى ، وقروة - أو قرودة - بن نفاثة ، انظر ديوان لييد ص ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، وديوان النايعة ص ١٠١ ، والإصابة ٥ / ٤٣٠ « ترجمة قرودة بن نفاثة » .

(٥) التمثيل والمحاضرة ص ٢٠٠ .

يا أيها المولى الوزيرُ الذى

أفضاله أوجب تفضيلاً (١)

وفى شعرنا الحديث ، وهو قول أحمد
شوقى ، من قصيدته فى الاحتفال بالمولد
النبوى الشريف ، يخاطب الخليفة
العثمانى محمد رشاد الخامس :

يجدون دولتك التى سَعِدُوا بها

من رحمة المولى ومن أفضاله (٢)

فهذا كله لا يكون إلا بكسر الهمزة
«الإفضال» على المصدرية ، كما سبق .
وهذا أوان الشروع فى الحديث عن
«العرف اللغوى» فى جموع التكسير .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٩ / ١٢٦ ، وتأمل قوله « أوجب » فلو كان الضمير فيه عائداً على « الأفضال » لكان الفعل « أوجبت » .

(٢) ديوانه (الشوقيات) ١ / ١٦٩ .

الأبيات والبيوت

البيت : المَسْكَن ، معروف ، وجمعه أبيات ، وهو قليل ، ويُيوت ، وهو الأشهر ، وجمع الجمع : أباييت ، وهو جمع تكسير ، كثل أقوال وأقاويل ، ويُيوتات ، وأبياوات ، وهذا نادر (١) .

والبيتُ من الشعر سُمِّيَ بذلك ؛ لأنه يضم الكلام ، كما يضم البيت أهله ، ولذلك سَمَّوْا مَقْطَعَاتِهِ أَسْبَاباً وَأَوْتَاداً ، على التشبيه لها بأسباب البيوت وأوتادها (٢) .

وقال الفيومي : " وبيت الشعر : ما يشتمل على أجزاء معلومة وتُسَمَّى أجزاء التفعيل ، سُمِّيَ بذلك على الاستعارة بضم الأجزاء بعضها إلى بعض على نوع خاص ، كما تضم أجزاء البيت في عمارته على نوع خاص " (٣) .

وبيت الشعر هذا يُجمع على أبيات

وبيوت ، قال ابن دُرَيْد : " وأبيات الشعر ويُيوتته معروفة " (٤) . وقال الزمخشري : " وقلت أبياتاً من الشعر ويُيوتاً " (٥) .

وجاء في اللسان ، بعد الكلام على بيت الشعر : « والجمع أبيات ، وحكى : بويه في جمعه : يُّوت ، فتبعه ابنُ جني ، فقال حين أنشد بيتي العجاج : يا دار سلمى يا سلمى ثم أسلمى فخذِفْ هامةً هذا العالم جاء بالتأسيس ، ولم يجيء بها في شيء من البيوت » (٦) .

وهذا الذي حكاه صاحب اللسان عن سيبويه ، جاء في قوله تعليقاً على شواهد نصَّب « أحقاً » ، قال : " فكلُّ هذه البيوت سمعناها من أهل الثقة هكذا " (٧) .

ولئن كان البيت الذي يُسْكَن فيه والبيت من الشعر يُجمعان كلاهما على

(١) تاج العروس « بيت »

(٣) المصباح المنير « بيت »

(٥) أساس البلاغة « بيت »

(٧) الكتاب ٢ / ١٣٧ (باب من أبواب « أن » تكون « أن » فيه مبنية على ما قبلها) وحكاه عنه البغدادي في الخزانة ١٠

/ ٢٧٧ ، وشرح أبيات المغنى ١ / ٣٤٧

(٢) اللسان « بيت »

(٤) الجمهرة ، ص ١٠١٦

(٦) اللسان « بيت »

بيوت وأبيات ؛ فإن العرف اللغوي يجعل « البيوت » أكثر ما تُستعمل جمعاً للبيت الذي يُسكن فيه ، وعلى ذلك جاء القرآن الكريم ، ويجعل « الأبيات » أكثر ما تستعمل جمعاً لبيت الشعر ، يقول أبو البقاء الكفوي : " والبيت يُجمع على أبيات وبيوت ، لكن البيوت بالمسكن أخص ، والأبيات بالشعر " (١) .

ومع استقرار هذا العرف وتتابع الناس عليه ، فقد استعمل هذا الجمع مكانَ ذاك ، وقد سبق استعمالُ سيبويه للبيوت جمعاً لبيت الشعر ، ومن ذلك قول الشاعر :

وبعضُ بيوت الشعرِ حكمٌ وبعضُها
خَلَى لَفَّه في ظُلْمَةِ الليلِ حَاطِئُهُ (٢)

ثم جاء ذلك مستفيضاً في كلام أهل العلم . قال محمد بن سلام الجُمحي ، في سياقة المفاضلة بين جرير والفرزدق :

(١) الكليات ١ / ٤١٣ ، ٤١٤

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٩٦ ، والخَلَى : الحشيش ، يقال : اختليتُ الحشيش : أي قطعته .

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، وحواشيه ، وانظر ديوان المعاني ١ / ٣١ ، وثمرات الأوراق ص ٧٧

(٤) معاني القرآن ١ / ٢٦٨

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٩

(٦) الحيوان ٦ / ٢٨٤

" وسألتُ الأسيديَّ - أخابني سلامة -
عنهما ، فقال : بيوت الشعر أربعة : فخرٌ ،
ومديحٌ ونسيبٌ وهجاء ، وفي كُلِّها غُلْبٌ
جرير ... " (٣) .

وحكى الفراء : " وقال بعض العرب :
قلتُ أبياتاً جاد أبياتاً " ثم قال : " فوحدُ
فعل البيوت " (٤) .

وقال الجاحظ : " وفي بيوت الشعر
الأمثالُ والأوابدُ ، ومنها الشواهد ومنها
الشوارد " (٥) .

وقال أيضاً في تقدمته لقصيدتين من
شعر بشر بن المعتمر : " وإذا قَسَمْنَا ما
عندنا في هذه الأصناف على بيوت هذين
الشُعَريين وقع ذكرها مصنفّاً ، فيصير
حينئذ أنقَ في الأسماع ، وأشدُّ في
الحفظ " (٦) .

وحكى أبو العباس ثعلب ، قال : " قال
عبد الملك بن مروان للأخطل : أيُّ الناس

أشعر؟ قال : العبدُ العَجَلَانِيّ ، قال : بم
ذاك؟ قال : وجدته قائماً في بطحاء
الشَّعر ، والشَّعراء على الحَرَفَيْن . قال :
أعرف ذاك له كَرُهاً . يعنى ابن مقبل .
فقال ابن مقبل : إني لأرسل البيوتَ عَوْجاً
فتأتى الرواة بها قد أقامتُها " (١) .

ويقول أبو على المرزوقي ، تعليقاً على
بعض روايات أبي تمام لشعر تأبُّط شراً
من الحماسة : " على أنى قد نظرتُ
فوجدتُ أبا تمام قد غيَّر كثيراً من ألفاظ
البيوت التى اشتمل عليها هذا الكتاب ،
ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها
لتبعوه وسلّموا له " (٢) .

ويقول أيضاً فى مقدمة كتابه : شرح
مشكلات ديوان أبي تمام : " ثم سألت أن
أقتبع مشاهير كلماته ، فألتقط من فقرها
ما يفتقر إلى تبين ، ومن بيوتها ما يُحَوِّجُ
إلى تفسير " (٣) .

(١) مجالس ثعلب ص ٤١٣

(٢) شرح مشكلات ديوان أبي تمام ص ٣

ويقول أبو الوليد هشام بن أحمد
الوقّشيّ ، تعليقاً على بيت فى كامل
المبرد : " ووقع البيت فى كتاب سيبويه
لعمر بن معد يكرب ، وقال : « وذا نشب
« بالشين المعجمة ، وعليه شرح فى بيوت
الكتاب لابن النحاس " (٤) .

وكتاب ابن النحاس فى شرح
شواهد سيبويه مشهور ومطبوع باسم
"شرح أبيات سيبويه" ، وإن كان فى
نسبة هذا المطبوع إليه خلاف (٥) .

وقال الوقّشيّ أيضاً تعليقاً على بيتين
أوردهما المبرد لذي الرمة : " بين هذين
البيتين بيوت كثيرة " (٦) .

وحكى الحافظ ابن كثير من عجائب
الحَفْظَةِ ، قال : " لما كان يوم الثلاثاء
العشرين من شعبان دُعيت إلى بستان
العلامة كمال الدين بن الشَّريشي شيخ
الشافعية ، وحضر جماعة من الأعيان ،

(٢) شرح الحماسة ١ / ٨٣ ، ٨٤

(٤) طُرر الوقّشي والبطلاني على كامل المبرد ص ٣٧

(٥) انظر فى ذلك مقالتيين للمرحوم الدكتور محمد خير حلوانى بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد ٥٣ ج ٢ ، ص

٤١١ ، ج ٣ ، ص ٦٤١ .

(٦) طُرر الوقّشي ، ص ٦٥٥

منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلى الشافعى ، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدى وكيل بيت المال ، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ، من ذرية الشيخ أبى إسحاق الفيروز ابادى ، من أئمة اللغويين ، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين بن العز الحنفى أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الإمام العلامة نور الدين على بن الصارم ، أحد القراء المحدثين البلغاء ، وأحضروا نيّفاً وأربعين مجلداً من كتاب المنتهى فى اللغة للتميمى البرمكى (١) ، وقف أناصرية ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشى ، وهو العلامة بدر الدين محمد ، واجتمعنا

كلنا عليه ، وأخذ كلُّ منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها ، فينثر كلاً منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد ، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذّ عنه منها إلا القليل الشاذّ " (٢) .

وذكر الأشمونى فى « باب الصفة المشبهة » أنه صنع جدولاً لصور الصفة المشبهة وقال بعض الطلبة شارحاً هذا الجدول : " وقد جعل فى رأس أبيات النوعين خمس بيوت ... " (٣) .

وفى عصرنا الحديث استعمل هذا الجمع شيخنا أبو فهر محمود محمد

(١) هو محمد بن تميم . أبو المعالى البرمكى ، من أهل مصر ، لم يعرف له تاريخ مولد أو وفاة لكنه ذكر فى مقدمة كتابه : أنه صنّفه سنة ٣٩٧ ، وقد بنى كتابه هذا على كتاب الصحاح للجوهري . معجم الأدباء ١٨ / ٣٤ ، ٣٥ ، وإنباه الرواه ٤ / ١٧٨

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣١٠ « حوادث سنة ٧٦٢ » ، وفيه « كمال الدين بن الشريشى » كما رأيت فى أول النقل ، والذي فى كتب التراجم : « جمال الدين » واسمه محمد بن أحمد بن محمد . راجع الدرر الكامنة ٣ / ٤٤١ ، والدارس فى أخبار المدارس ١ / ١١٧ ، وشذرات الذهب ٦ / ٢٦٣ ، أما ابنه هذا بدر الدين محمد ، فقد وصف بكثرة الحفظ ، قال ابن العماد الحنبلى : " وكان يستحضر الفائق للزمخشري والصحاح والجمهرة والنهاية وغريب أبى عبيد ، والمنتهى فى اللغة للبرمكى ، وهو أكثر من ثلاثين مجلداً ، وقد عقد له مجلس بحضرة أعيان علماء دمشق ، وامتنح فى هذه الكتب فى شعبان سنة ثلاث وستين - وسبعمائة - " شذرات الذهب ٦ / ٢١٨

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشمونى على الألفية ٢ / ١٥

شاكر ، فقال عن أبى الطيب المتنبي :
" واجتماع الذكاء والحسُّ المُرْهَفُ هما آلة
كلِّ شاعر ، وقد ظفر المتنبي من كليهما
بنصيب الأسد الهصور ، ولذلك كان
شعره أروع شعر في العربية وكثير
غيرها ، وكان محبباً إلى أهل عصره ،
متداولاً سائراً بينهم ، لأنه كان يأخذ
بنفسه المرفهة من شعور الناس وآلامهم
وأحداثهم ، ويبني بما يأخذ بيوت شعره ،
وروائع بلاغاته " (١) .

ولعل شيخنا أبا فهر قد أثر هذا
الجمع « البيوت » في ذلك السياق ،
لمشكلة « يبني » ولو كان مكان هذا
الفعل « يقول » أو « ينظم » مثلاً ، لقال :
« أبيات شعره » .

ثم سمعت ذات يوم وأنا بمدينة
الرياض حاضرة المملكة العربية
السعودية ، عام ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م ، من
خلال الراديو ، بدويًا من أهل « الدوادمي »

(١) المتنبي ص ١٩١

(٢) انظر مقدمة تحقيق الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، للدكتور عبد المجيد قطامش دار المعارف بمصر ١٩٧٢ م .

(٣) مسند أحمد ٢٢٢/٥ ، وسنن ابن ماجه (باب الكبير والمريض يجب عليه الحد من كتاب الحدود) ص ٨٥٩ . والمخدج :

الناقص الخلق . والخداج : النقصان . النهاية ١٢/٢ / ١٣

ومنه ما أخرجه أحمدُ أيضاً ، من حديث أبي الدرداء : «ويحك يا معدان ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من خمسة أهل أبيات لا يؤذن فيهم بالصلاة وتقام فيهم الصلوات إلا استحوذ عليهم الشيطان ، وإن الذئب يأخذ الشاة ... » الحديث (١) .

وأخرج أحمدُ أيضاً من حديث المقداد بن الأسود ، يقول : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " ما تقولون في الزنا ؟ . قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرامٌ إلى يوم القيامة . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأنّ يزنى الرجل بعشر نسوة أيسرُ عليه من أن يزنى بامرأة جاره ، قال : فقال : ما تقولون في السرقة ؟ . قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهي حرامٌ ، قال : لأنّ يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسرُ عليه من أن يسرق من جاره " » (٢)

ومن ذلك أيضاً ما جاء في حديث نزول جرهم على هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، عندما تفجرت لها زمزم : قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فآلفي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام - أي إسماعيل - وتعلم العربية منهم ... » الحديث (٣) .

وجاء في خبر سرية أبي بكر الصديق إلى نجد ، في شعبان سنة سبع : قال سلمة بن الأكوع : «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا أبا بكر رضى الله عنه ، فغزونا ناساً من المشركين - من هوازن - فبيّتناهم نقتلهم ، وكان شعارنا تلك الليلة : أُمِتْ أُمِتْ . قال : فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين » (٤) .

(١) مسند أحمد ٤٤٦/٦

(٢) مسند أحمد ٨/٦

(٣) صحيح البخارى (باب يزقون : النسلان في المشى . من كتاب الأنبياء ١٧٤/٤ ، وانظر فتح البارى ٢٩٧/٦

(٤) سنن أبي داود (باب في البيات . من كتاب الجهاد) ص ٩٤٧ ، ومسند أحمد ٤٦/٤ ، ومغازى الواقدي ص ٧٢٢ ،

وطبقات ابن سعد ٣٠٥/٤ .

وقال الصالحى الشامى ، فى
الحديث عن «المدينة النبوية» : «والمدينة :
من مدن بالمكان :أقام به ، أو من دان :
إذا أطاع ، إذ يطاع السلطان بالمدينة
لسكنائه بها ، وهى أبيات كثيرة تجاوز حد
القرى ولم تبلغ حد الأمصار (١) .

ومن حديث الشعر : قال الفرزدق
يخاطب ناقتة ، ويمدح الوليد بن عبد
الملك :

إذا عثرتُ بى قلتِ عالكِ وانتهى
إلى باب أبيات الوليد كلالها (٢)

وقال جرير يمدح يزيد بن عبد الملك :

ضَخَمَ الدُّسَيْعَةَ والأبياتِ ، غُرَّتْهُ
كالبدر ليلة كاد الشهرُ ينتصف (٣)
وقال سليمان بن قتة العدوى التيمى :
مررتُ على أبيات آل محمدٍ
فلم أرَ أمثالها يوم حلتِ (٤)
رتال فقيد ثقيف :

ألا رِفْقاً ألا رِفْقاً قليلاً ما أكوننَّه
ألمأ بى على الأبيات بالخيف أزرهنَّه
غزالاً ما رأيت اليو م فى وقد بنى كُنَّه
غَضِيضَ الطرفِ مريباً وفى مَنطِقِهِ غُنَّه (٥)

وفى عصرنا الحديث قال أحمد شوقى

ألم على أبيات ليلى بى الهوى

وما غير أشواقى دليل ولا ركب (٦)

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٣ / ٤٢٣ .

(٢) ديوانه ص ٧٠٩ ، وقوله : «عالك» دعاء للناقة إذا عثرت ، أن تنتعش وترتفع ، يتان : لعالك ، وعالك .

(٣) ديوانه ص ١٧٥ ، والدسيعة : الجفنة ، وهى القصعة يوضع فيها الطعام ، وقيل : الدسيعة : مائدة الرجل .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ص ٩٦١ . وسليمان بن قتة ، التيمى بالولاء ، مقرئ شاعر ، عرض ختمة على ابن عباس ،

وسمع من معاوية وعمرو بن العاص ، وقرأ عليه عاصم الجحدري . طبقات القراء ٣١٤/١ ، وسير أعلام النبلاء

٥٩٦/٤ ، وهو صاحب البيت الشهير : فإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

الأغانى ١٢٩/١٩ ، وأمالى ابن الشجرى ١٩٩/١

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٨١/٢ ، وتهذيب إصلاح المنطق له ص ٧١١ ، ولهذا الشعر قصة طريفة تدل على فطنة

الطبيب العربى الحارث بن كعدة ، ذكرها التبريزى فى كتابيه المذكورين .

(٦) رواية مجنون ليلى ص ٢١

الأسن والاسنة

اللسان : جراحة الكلام وأداة النطق،
وهو مذكر ، لأنه العضو ، وربما أنث ،
وبخاصة إذا أريد به اللغة أو الرسالة أو
المقالة أو القصيدة من الشعر ،

قال المرقش الأكبر :

أَتَتْنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ
فَجَلَّتْ أَحَادِيثُهَا عَنْ بَصَرٍ^(١)
أَرَادَ الْقَصِيدَةَ وَالرِّسَالَةَ . وَقَالَ
أَعَشَى بِأَهْلَةٍ :

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لَا أُسْرِبُهَا
مِنْ عَلَوٍ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرٌ^(٢)
أَرَادَ الرِّسَالَةَ وَالْمَقَالََةَ .
وَقَالَ قَسَّاسُ الْكَنْدِيِّ :

أَلَا أَبْلَغُ لَدَيْكَ أَبَا هُنًى
أَلَا تَنْتَهِي لِسَانَكَ عَنْ رَدَائِهَا
وَقَالَ الْآخَرُ :

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا
وَحِنْتٌ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينَا
وَرَبِمَا ذُكِّرَ ، وَهُوَ بِهَذِهِ الْمَعْنَى
الْمَجَازِيَّةِ ، قَالَ الْحَظِيئَةُ :

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانٍ فَاتٍ مِنِّي
فَلَيْتَ بِأَنَّهُ فِي جَوْفِ عِظَمٍ
قَالَ السَّكْرِيُّ : أَرَادَ بِاللِّسَانِ الشَّعْرَ ،
يُرِيدُ : وَدِدْتُ أَنْ الشَّعْرَ الَّذِي قَلْتُ فِيهِمْ
كَانَ مَخْبُوءًا فِي جُوَالِقٍ^(٣) .

وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : وَمَنْ أَنْتَ اللَّسَانُ
جَمَعَهُ عَلَى «الْأُسْنِ» مِثْلَ ذِرَاعٍ وَأَذْرُعَ ،
وَمَنْ ذَكَرَهُ جَمَعَهُ عَلَى «الْأُسْنَةِ» مِثْلَ حِمَارٍ
وَأَحْمَرَةٍ^(٤) .

وَنَأْتِي إِلَى الْعَرَفِ اللَّغَوِيِّ فِي هَذَيْنِ
الْجَمْعَيْنِ «الْأُسْنِ وَالْأُسْنَةِ» فَنَقُولُ :

(١) المفضليات ص ٢٢٥ ، وجاء العجز في المخصص ١٢/١٧ ، واللسان : أحاديثها بعد قول نكر

(٢) هكذا الرواية في كتب المذكر والمؤنث والمعاجم الآتية ، وجاءت في شعره المنشور في الصبيح المنير ص ٢٦٦ :

إِنِّي أَتَانِي لِسَانٌ لَا أُسْرِبُهُ
مِنْ عَلَوٍ لَا كَذِبٌ مِنْهُ وَلَا سَخَرٌ

(٣) ديوان الحطيئة ص ١٩٧

(٤) راجع المذكر والمؤنث للمبرد ص ١١٤ ، ولابن الأنباري ص ٢٩٦ ، ولا بن جني ص ٩٠ ، ولابن التستري ص ١٠١ ،

ومختصر المذكر والمؤنث للمفضل بن سلمة ص ٣٢٩ ، والبلغة للأنباري ص ٨١ ، والمخصص ١٢/١٧ ، وخلق الإنسان

لأبي محمد الحسن بن أحمد ص ٢٦٤ ، واللسان والمصباح (لسن) ، وانظر حواشي المحققين .

إن «الألسنة» استعملت غالبا في جمع «لسان» الذي هو بمعنى اللغة (١)، ومن ذلك قوله تعالى : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (٢) ، قال أبو جعفر الطبري في تفسير الآية الكريمة : «يقول : واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها (٣) » . وقال القرطبي : «اللسان في الفم ، وفيه اختلاف اللغات من العربية والعجمية والتركية والرومية» (٤) . وقال أبو حيان : «واختلاف ألسنتكم : أي لغاتكم (٥)» .

وقال شهاب الدين الألوسي : «أي لغاتكم ، بأن علم سبحانه كل صنف لغته ، أو ألهمه جل وعلا وضعها ، وأقدره عليها ، فصار بعض يتكلم بالعربية ، وبعض بالفارسية ، وبعض بالرومية ، إلى غير ذلك مما الله تعالى أعلم بكميته» (٦) .

وقال المرتضى الزبيدي : «اللسان: اللغة ، وتؤنث حينئذ لا غير ، ومنه قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (٧) ، أي بلغة قومه والجمع : ألسنة، ومنه قوله تعالى : (واختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم (٨) » .

وقد استشهد علماء أصول الفقه بالآية الكريمة على أن اللغة توقيفية . قال الفخر الرازي ، بعد أن تلا الآية الكريمة : «ولا يجوز أن يكون المراد منه اختلاف تأليفات الألسنة وتركيباتها ، لأن ذلك في غير الألسن أبلغ وأجمل ، فلا يكون تخصيص الألسن بالذكر مرادا ، فبقي أن يكون المراد اختلاف اللغات (٩) » .

فهذا قول الفخر الرازي في كتابه : المحصول ، لكنه قرر في تفسيره أن

(١) وإذا صح هذا فيكون فيه مخالفة لقول أهل اللغة ، فإنهم قالوا : إنه يجمع على «ألسنة» إذا كان مذكرا ، لكنهم قالوا أيضا : إنه إذا أريد به اللغة كان مؤنثا .

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٢١

(٢) سورة الروم ٢٢

(٥) البحر المحيط ١٦٧/٧

(٤) تفسير القرطبي ١٨/١٤

(٧) سورة إبراهيم ٤

(٦) روح المعاني ٣١/٢١

(٨) تاج العروس (لسن) . وانظر كتاب الشعر لأبي على ص ٢٤١ ، ونبهت هناك على وهم لأبي على رحمه الله .

(٩) المحصول في علم أصول الفقه ٢٥١/١ ، وتأمل مر اوجته في استعمال «الألسنة والألسن» .

المراد اختلاف الأصوات أو مخارج الحروف ، لا اللغات (١) .

وقال شمس الدين الأصفهاني : «قوله تعالى : -(واختلاف ألسنتكم)- يدل على أن اللغات توقيفية ، وذلك لأنه لا يجوز أن يكون المراد بالألسنة مفهومها الحقيقي ، لأن الاختلاف في غير الألسن أبلغ وأجمل ، إذ الاختلاف في أجزامها لا يبلغ إلى حد يستغرب ، فإذا المراد اللغات ، تسمية للشيء باسم سببه ، وإذا كانت اللغات مخلوقة كانت توقيفية (٢) » .

وقال ابن النجار الحنبلي : «وقوله تعالى : -(واختلاف ألسنتكم) وحمله على اللغة أبلغ من الجارحة ، وحمله على اختلاف اللغات أولى من حمله على الإقذار عليها (٣) » .

وقال الجلال السيوطي عقب تلاوة الآية الكريمة : «والألسنة اللُّحمانية غير مرادة ، لعدم اختلافها ، ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر ، فالمراد هي اللغات (٤) » .

وقد جمع الزمخشري بين التفسيرين: اللغات والنغمات ، فقال : «الألسنة : اللغات أو أجناس النطق وأشكاله (٥) ، خالف عز وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقتين متفقتين ، في همس واحد ، ولا جهازة ولا حدة ولا رخاوة ، ولا فصاحة ولا لُكَّة ، ولا نظم ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله (٦) » .

وإلى مبحث ذلك ذهب الراغب الأصفهاني ، فقال : «فاختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات ، وإلى

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٧/٦ ، وانظر الموضع السابق من روح المعاني .

(٢) بيان المختصر - شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ٢٨٣/١ ، وتأمل استعماله «الألسن» بعد «الألسنة» فإن ذلك ناطق بأنه يريد بالألسن جمع اللسان : العضو

(٣) شرح الكوكب المنير في أصول الفقه ١ / ٢٨٦

(٤) المزهري ١٧/١ ، ١٨ ،

(٥) في الكشف : «وأشغاله» وصحته من الموضع السابق من البحر المحيط .

(٦) الكشف ٢ / ٢١٨

اختلاف النغمات ، فإن لكل إنسان نغمة مخصوصة يميزها السمع ، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر^(١) .

وجاءت «الألسنة» أيضا في الحديث مرادا بها اللغات :

أخرج أحمد بسنده إلى سهل بن سعد الأنصاري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اللهم لا يدركنى زمان ولا تدركوا زمانا لا يتبع فيه العليم ، ولا يستحيى فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب الأعاجم ، وألسنتهم ألسنة العرب^(٢)» .

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «إن الله يعلم الألسنة كلها^(٣)» ، قال الحافظ ابن حجر : «المراد اللغات^(٤)» .

وكذلك جاءت «الألسنة» أيضا في كلام الشافعى - ولغته حجة - مرادا بها اللغات ، وذلك قوله : «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي^(٥)» .

وفى كلام لابن جنى ، قال : «وكذلك أيضا لوفشا فى أهل الوبر ماشاع فى لغة أهل المدر ، من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها^(٦)» .

وقد جاءت «الألسنة» فى كلام أبي بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن أربع مرات ، أريد بها فى ثلاث منها اللغة بلاشك :

المرّة الأولى فى قوله : «... ولعننى آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه

(١) مفردات ألفاظ القرآن ص ٧٤٠

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣٤٠/٥

(٣) صحيح البخارى (باب إذا قالوا : صبياناً ولم يحسنوا أسلمنا ، من كتاب الجزية والمواذعة) ١٢٢/٤

(٤) فتح البارى ٢٧٤/٦ ، ٢٧٥

(٥) الرسالة ص ٤٢ ، وانظر أيضا ص ٤٥ ، ٤٦

(٦) الخصائص ٥/٢

من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز ، ولكنه يتقارب ، وقد رأيت أصحابنا يذكرّون هذا فى سائر الألسنة ... » .

والثانية : فى قوله : « ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها ، وفى العربية ... ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة ، على ما قد اتفق فى العربية » .

والثالثة : فى قوله : « ولضيق ما سوى كلام العرب ، أو لخروجه عن الاعتدال ، يتكرر فى بعض الألسنة الحرف الواحد والكلمات المختلفة كثيراً ، كنحو تكرّر الطاء والسين فى لسان يونان وكنحو الحروف الكثيرة التى هى اسمٌ لشيء واحد فى لسان الترك » .

والمرة الرابعة جاءت مراداً بها جمع اللسان ، العضو ، وذلك قوله : « ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع ، ولم

ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويعرض على ألسنتهم وتجيّش به خواطرهم ... » (١) .

وجاءت « الألسن » فى كلامه مراداً به جمع العضو ، وذلك قوله : « ويزعمون أن فى الكتاب - يعنى كتاب مانى - الحكّم ، وهى حكم منقولة ، متداولة على الألسن » .

وقوله : « من توهم أن الشعر يلحظ شأوه بان ضلاله ، ووضع جهله ، إذ الشعرُ سمت قد تناولته الألسن ، وتداولته القلوب ... » (٢) .

فهذا ما كان من أمر « الألسنة » التى جاءت - فى الغالب - جمعاً للسان بمعنى اللغة ، وإن كانت قد جاءت فى القرآن الكريم أيضاً جمعاً للسان الذى هو العضو ، فى تسعة مواضع من الكتاب العزيز (٣) .

وكذلك جاءت فى الحديث ، وهو

(١) إعجاز القرآن . صفحات ٣١ ، ٣٢ - مرتين فى سياق واحد - ١١٨ ، ٦٢ .

(٢) ص ٣٢ ، ٢٠٢ .

(٣) انظرها فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، ورحم الله مولفة رحمة واسعة سابقة .

حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وفي آخره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ (١)» . وفي أحاديث أخرى (٢) .

ومن ذلك أيضا قول الفرزدق :

لم يبقَ منهم غيرُ ألسنة

وأُعِظُمَ وحواصلُ حمُرٍ (٣)

وكذلك جاءت في مقدمة مفتاح العلوم للسكاكي ، وذلك قوله : «أحق كلام أن تلهج به الألسنة» .

وجاءت كذلك في عنوان كتاب لإسماعيل بن محمد العجلوني المتوفى سنة ١١٦٢ هـ ، وهو : «كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

أما «الألسن» فأكثر ما تجي جمعاً للسان الذي هو العضو أو الجارحة ،

ومن ذلك قول جرير :

إِذَا مِتُّ فَأَنْعَيْنِي لِمَوْلَى تَظَاهَرَتْ

عليه من الأعداء أيدٍ وألسُنٍ (٤)

وقول الإمام الشافعي :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الرَّدَى

وَدِينُكَ مَوْفُورٌ وَعَرْضُكَ صَيَّنٌ

فَلَا يَنْطَقِنْ مِنْكَ اللِّسَانُ بِسَوَاءَةٍ

فَكُلُّكَ سَوَاءَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ (٥)

وقول اسحاق بن خلف البهراني ،

المعروف بابن الطبيب :

النحو يبسط من لسان الأَلْكَنِ

والمرء تكرمه إذا لم يَلْحَنِ

وإذا طلبتَ من العلوم أجَلُّهَا

فأجلُّها منها مُقِيمُ أَلْسِنٍ (٦)

(١) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى (باب ما جاء في حرمة الصلاة . من كتاب الإيمان) ٨٦/١٠ وسنن ابن

ماجة (باب كف اللسان في الفتنة . من كتاب الفن) ص ١٣١٥ ، ومسنند أحمد ٢٣١/٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٢) ترى الإشارة إليها في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ١١٧/٦

(٣) ديوانه ص ٣٢٦

(٤) ديوانه ص ٥٧١

(٥) ديوانه ص ٨٤

(٦) الكامل ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، وبهجة المجالس ٦٦/١ ، ومعجم الأدباء ٨٥/١ ، وتنبيه الأكياب على فضائل الإعراب ص ٩٧ ،

واسحاق بن خلف هذا : من شعراء المعتصم ، توفى في حدود سنة ٢٣٠ ، وترجمته طريفة ، فاطلبها في فوات الوفيات

١٦/١ ، ١٧ ، والكامل ص ٥٣٠ ، وحواشى تنبيه الأكياب .

وقول العجاج :

أَوْ تَلَحَّجَ الْأَلْسُنُ فِينَا مَلَحَجًا (١)

وقول شاعر من بنى تميم :

أَمَا رَأَيْتَ الْأَلْسُنَ السَّلَاطَا (٢)

وقول الأسلع بن قصاف الطُّهَوِيُّ :

بَأَيْدٍ يُفَرِّجْنَ الْمَضِيقَ وَالسُّنَّ

سِلَاطٍ وَجَمْعٍ ذِي زُهَاءٍ عَرَمَرَمٍ (٣)

وقول المتنبي :

حَسَمَ الصَّلَحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى

وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ (٤)

وقوله :

الْحَبُّ مَامَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسِنَا

وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَّا (٥)

وقال أعرابي يذم قومه : « أَلْسُنُ

عامرةٌ من الوعد ، وقلوبٌ خربةٌ من العزم » (٦) .

وجاء في أمثال المولدين : « غشُّ
القلوب يظهر في فلتات الألسن وصفحات
الوجوه » (٧) .

ومن ذلك ما ذكره الطبري في
حوادث سنة ٣٠ ، قال : « جاء جنذب
ورسط معه إلى ابن مسعود ، فقالوا :
« الوليد يعكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك
حتى طُرح على ألسن الناس » (٨) ومن
ذلك أيضا قول جلال الدين السيوطي في
مفتتح كتابه المزهر : « الحمد لله ، خالق
الألسن واللغات » ، فالألسن هاهنا :
جمع « اللسان » الذي هو الجارحة والعضو
لعطف « اللغات » ، عليها ، والعطف في

(١) ديوانه ص ٣٦٥ ، والموضع السابق من خلق الإنسان ، واللحج : الميل . المعنى : أو تقول الألسن فينا الكذب فتميل عن الحسن إلى القبيح .

(٢) البيان والتبيين ١/١٧٧

(٣) البيان والتبيين ١/١٧٧ ، والحيوان ٥/٤٤٥ ، وانظر الخلاف في نسبته في الكامل وحواشيه ص ٢٢٦

(٤) ديوانه ٢ / ٣١

(٥) ديوانه ٤ / ١٩٥

(٦) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٩٧

(٧) مجمع الأمثال ٢/٦٧

(٨) تاريخ الطبري ٤/٢٧٤ (ذكر السبب في عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة)

أصل وضعه يقتضى المغايرة ، إلا أن يكون من باب عطف الشئ على نظيره ، على حد قول الحطيئة :

وهندُ أتى من دونها النَّأى والبُعدُ^(١)

فيكون المراد بالأسن هنا : اللغات أيضا ، ويكون قد استعمل «الأسن» مكان «الأسنة» .

وقد جاءت «الأسن» فى مقدمات كتب كثيرة ، أذكر منها كتاب البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكانى ، وكتاب التبيان فى علم البيان له أيضا .

ومما ينبغى التنبيه عليه هنا أن «الأسن» لم تأت فى القرآن الكريم ، وإنما أتى فيه «الأسنة» فقط ، مرادا بها اللغات فى موضع واحد ، ومرادا بها جمع «اللسان» العضو والجراحة فى سائر المواضع ، كما سبق .

ويبقى تنبيه آخر : وهو أن الخيار فى جمع اللسان على السنة وعلى السن ، مشروط بعدم الإضافة إلى ضمير من ضمائر الجمع ، فإذا وجد ذلك الضمير تعينت «الأسنة» ليس غير ، فنحن نقول : أسنتنا وأسنتكم وأسنتكن وأسنتهم وأسنتهن ، ولا نقول : أسننا وأسنكم وأسنكن وأسنهم وأسنهن ، وهذا لم يُنص عليه ، ولكنه معروف بالتتابع والاستقراء .



وبعد : فإذا صح أن «الأسنة» تعنى غالبا : اللغات ، وأن «الأسن» تستعمل غالبا فى جمع اللسان ، الذى هو العضو والجراحة ، كان الأولى بكلية الأسن ، أن تكون : «كلية الأسنة» ، ولا تستثقل هذه التسمية لأن الإلف والعادة أنسا بالتسمية الأولى ، ليس غير .

(١) ديوانه ص ٦٤ ، وانظر مبحث « عطف الشئ على نظيره » فى معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١٨٥/٢ ، والصناعتين ص ١٠٨ ، والموشح ص ١٤١ ، والصاحبى ص ١١٥ ، وأمالى ابن الشجرى ٢٣٤/٢ ، ٢٥٣/٣ ، وشرح المفصل ١٠/١ ، ثم انظر اللسان « نأى » .

الأوقاف والوقف

الوقف فى اللغة : الكف والحبس ،
وفى اصطلاح الفقهاء : حبس مال يمكن
الانتفاع به ، مع بقاء عينه ، بقطع
التصرف فى رقبته على مصرف مباح
موجود .

وقيل : حبس العين على ملك الواقف
والتصدق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها
على من أحب .

وقيل : إعطاء منفعة شئ مدة
وجوده ، لازما بقاؤه فى ملك معطيه ولو
تقديرا .

وقيل : تحبىس مالك مطلق التصرف
ماله المنتفع به ، مع بقاء عينه ، بقطع
تصرف الواقف وغيره فى رقبته ، أى
المال .

وقيل : أن يحبس عينا من أعيان

ماله ، فيقطع تصرفه عنها ، ويجعل
منافعها لوجه من وجوه الخير ، تقربا إلى
الله تعالى (١).

والوقف فى اصطلاح القراء : عبارة
عن قطع الصوت عند آخر الكلمة زمنا
يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة ،
إما بما يلى الحرف الموقوف عليه ، أو بما
قبله ، لا بنية الإعراض ، ولا يأتى فى
وسط كلمة ، ولا فيما اتصل رسما ، ولا بد
من التنفس معه (٢) .

والوقف فى اصطلاح الفقهاء وفى
اصطلاح القراء يُجمع على «أوقاف
ووقوف» ، لكن العرف اللغوى غلب
«الأوقاف» على الوقف الفقهى ، الذى هو
حبس المال ، على حين صرف «الوقوف»
إلى وقف القراء ، وإن كان أحدهما قد
استعمل مكان الآخر ، توسعة وإباحة .

(١) الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع - فى فقه الشافعية - ٨١/٢ ، وشرح فتح القدير - فى فقه الحنفية - ٢٠٠/٦

والخرشى على مختصر خليل - فى فقه المالكية - ٧٨/٧ ، وكشاف القناع عن متن الإقناع - فى فقه الحنابلة

- ٢٤٠/٤ ، والتعريفات للسيد الشريف الجرجانى ص ٢٥٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١٩٤/٢

(٢) النشر فى القراءات العشر ٢٢٤/١ ، ولطائف الإشارات ٢٤٨/١ ، وإتحاف فضلاء ، البشر ٣١٣/١ ، ونهاية القول

المفيد فى علم التجويد ص ١٥٦ .

وعلى هذا جاءت تعريفات بعض الفقهاء واللغويين : ففي شرح فتح القدير: «وقف وأوقاف ، كوقت وأوقات» ، وقال الفيومي : «ووقفت الدار وقفا : حبستها في سبيل الله ، وشئ موقوف ووقف أيضا ، تسمية بالمصدر ، والجمع أوقاف، مثل ثوب وأثواب^(١)» .

وعنّون به ابن فارس ، فقال : «مسألة : ما يفضل من أوقاف المساجد والرباطات^(٢)» .

وقد ترجم البخارى لباب (أوقاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . من كتاب الحرث والمزارعة)^(٣) ، وقال ابن القوطية : «وأوقاف المسلمين : أحباسهم ، جمع وقف^(٤)» .

وقد امتد هذا العرف إلى أيامنا هذه ، فيقولون : وزارة الأوقاف ، ومديرية الأوقاف ، ونحو ذلك .

ومع شيوع هذا الجمع وكثرته فيما رأيتُ من كتب الفقه والعربية ، فقد وجدتُ الجمع الآخر « الوقوف » في الوقف الفقهي ، وذلك في كلام تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، قال في أثناء ترجمة الوزير الكبير نظام الملك : "بنى المدارس ووقف الوقوف" . وحكى أيضاً عن نظام الملك قوله يخاطب السلطان ملك شاه : "أنا آخذ المال ، وأعطيه لهؤلاء الغلمان الذين جعلتهم لك ، وأصرفه أيضاً في الصدقات والوقف والصلّات التي معظم ذكرها لك ..."^(٥) .

أمّا « وقف القرآن » فالكثير الشائع في جمعه « وقوف » . وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : "الترتيل معرفة الوقوف وتجويد الحروف"^(٦) ، وليست هذه ضرورة سجع وتقفية ؛ فقد شاع استعمال « وقوف القرآن » شيوعاً ظاهراً . وهو عنوان

(١) المصباح المنير (وقف) .

(٢) حلية الفقهاء ، ص ٢١٩ ، ولم يعرض ابن فارس لأى من الجمعين في كتابيه : المقاييس والمجل .

(٣) صحيح البخارى ٣ / ١٣٩ (٤) الأفعال ، ص ١٥٧ ، وانظر أيضاً الأفعال لابن القطاع ٣ / ٢٩٣

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٣١٩ ، ٣٢٦ (٦) النشر ١ / ٢٢٥ . وانظر أيضاً ص ٢٠٥

لبابِ قى كتب الأداء والقراءات وعلوم القرآن ، فيقال : باب الوقف والابتداء ، والوقوف والابتداء (١) . ويقول المرتضى الزبيدي : " وقف القارئ على الكلمة وقوفاً ، ووقفه توقيفاً : علمه مواضع الوقوف " (٢) .

ويقول أبو بكر بن الأنباري ، وهو من أوائل من صنّفوا في علم الوقف والابتداء : « في فاتحة الكتاب أربعة وقوف تامة » (٣) . وتُسمّى بعض كتب هذا الفن باسم : « الوقوف » كما ترى في ترجمة « أحمد ابن كامل بن خلف بن شجرة » صاحب ابن جرير الطبري (٤) . وتقرأ في كتب الفن هذه العبارة كثيراً : « وقوف السجّاوندي » (٥) .

ومع شيوع هذا الجمع وغلبته ، فقد جاء أيضاً على قلة : « الأوقاف » ، وذلك ما ذكره علم الدين السخاوي ، في قوله : « وفي آية الكرسي عشرة أوقاف » ، وقوله : « وفي قوله عز وجل : " ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً " في آل عمران عشرة أوقاف » .

وقوله : « وفي سورة الامتحان - الممتحنة - أيضاً آية فيها من الأوقاف هذه العدة » (٦) .

ويقول ابن الجزري : « والكلام هنا على معرفة ما يوقف عليه ويبتدأ به ، وقد ألف الأئمة فيها كتباً قديماً وحديثاً ، ومختصراً ومطوّلاً ، أتيت على ما وقفت عليه من ذلك ، واستقصيته في كتاب

(١) المرجع السابق ١ / ٢٢٤ ، وانظر البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٥٩ ، والإتقان ١ / ٢٣٠

(٢) تاج العروس « وقف » ، والتكملة للزبيدي أيضاً ٥ / ١٦٩ ، والعبارة فيها : « وقف القارئ على الكلمة وقوفاً : علمه مواضع الوقوف ، كوقفه توقيفاً » ، وهذه العبارة أبين وأصرح في الدلالة على أن الفعل السابق متعدّد ، والدليل على ذلك أن كلمة « القارئ » ضُبِطت في الطبعة الكويتية من التاج ٢٤ / ٤٧٥ ، بالرفع ، على توهم أن الفعل « وقف » لازم . وفي هذا شاهد على أنه « لا يغنى كتاب عن كتاب » فإن بعضهم يقول : إن التكملة للزبيدي ليست سوى « مستدرک التاج » .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١ / ٤٧٨

(٤) إنباه الرواه ١ / ٩٨ « الحاشية »

(٥) هو محمد بن طيفور ، من علماء القراءات والنحو في القرن السادس . إنباه الرواه ٣ / ١٥٣ ، وطبقات القراء ٢ / ١٥٧

(٦) جمال القراء وكمال الإقراء ، ص ٥٦٨ ، ٥٦٩

«الاهتدا إلى معرفة الوقف والابتدا» ،
وذكرت في أوله مقدمتين جمعت بهما
أنواعاً من الفوائد ، ثم استوعبت أوقاف
القرآن سورةً سورةً .

وقال أيضاً : « من الأوقاف ما يتأكد
استحبابه لبيان المعنى المقصود » .
وقال في موضع ثالث : « فليعلم أن
مراد السجائوندى بقوله « لا » أى لا
يوقف عليه على أن يُبتدأ بما بعده ،
كغيره من الأوقاف » (١) .

(١) النشر في القراءات العشر ١ / ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤

الأيادي والأيدى

تُستعمل فى « اليد » العضو والجراحة ،
وعلى ذلك جاء القرآن الكريم ، و « الأيادى
« أكثر ما تُستعمل فى جمع « اليد » التى
هى النعمة ، لا العضو . والشواهد على
ذلك كثيرة ، منها قول أبى تمام :

فإذا هُلِّلَ النَّوَالُ أَتَتْنَا
ذَاتُ نَيْرَيْنِ مُطَبَّقَاتُ الْأَيْدَى

قال التبريزى : « ومطبيقات الأيادى :
التى قد أطبق بعضها على بعض .
والأيادى : النعم » (٢) .

وقال أيضاً :

وغيرى يأكل المعروف سُحْتاً
وَتَشْحُبُّ عِنْدَهُ بَيْضُ الْأَيْدَى

قال التبريزى : « يقول : بيض الأيادى
عندى محفوظة ، لا غيرها ، ولا يشحب
لونها » (٣) .

وقال البحتري :

شفيع المسلمين إليك فيما

تُنِيلُ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْأَيْدَى (٤)

اليَدُ : الجراحة ، مؤنثة ، ولامنها
محذوفة ، وهى ياء ، بدليل : يديان ، فى
التثنية ، والأصل : يَدَى ، قيل : بفتح
الدا ، وقيل : بسكونها .

وتُطْلَقُ « اليد » مجازاً على الإحسان
والنعمة ، وما يتخذه الرجل عند الرجل
من الفضل والعون والمعروف .

قال ابن الشجرى : « يجوز أن تكون
اليَدُ التى هى النعمة مأخوذة من التى هى
الجراحة ؛ لأن النعمة تُسَدَّى باليد ،
ويجوز أن تكون الجراحة مأخوذة من
النعمة ؛ لأن اليَدَ نعمة من نعم الله على
العبد » (١) .

وتُجْمَعُ اليَدُ على الأيدى والأيادى ،
وإن كان بعضهم يرى أن « الأيادى »
جمع الأيدى ، فتكون جَمْعُ الجمع ،
كقولهم : كَلْبٌ وَأَكْلَبٌ وَأَكَالِبٌ ، وسيأتى
البحث فى هذا .

لكنهم قالوا : إن « الأيدى » أكثر ما

(١) أمالى ابن الشجرى ٢ / ٢٣١

(٢) الديوان نفسه ١ / ٣٧٧

(٣) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ١ / ٣٦٦

(٤) ديوانه ص ٥٢٥

وقال أيضاً :

وكم لك من يد بيضاء عندي

لها فضلٌ كفضلِكَ والأيادي (١)

وقال ابن الرومي :

ما على الأحرار من رِقٍّ إذا

نقدوا شكرهم مولى أيادي (٢)

وقال أيضاً :

ولا عَدِمَ المؤمِّلُ منه مَطْلًا

تتمُّ به الصنائع والأيادي (٣)

وقال المتنبي :

ليه أيادٍ إلى سابقه

أعدُّ منها ولا أعدُّها (٤)

وقال أيضاً :

أَرْضَى أَنْ أَعِيشَ وَلَا أَكْفَى

على ما للأمير من الأيادي (٥)

وقال الحسين بن الحجاج - من

شعراء اليتيمة - وقيل : محمد بن

إبراهيم الأسدي :

قلتُ ثَقَلْتُ إذ أُتيتُ مراراً

قال ثَقَلْتُ كاهلي بالأيادي (٦)

وقال شاعر :

له على أيادٍ لستُ أكفرها

وإنما الكفرُ ألا تُشكرَ النعمُ (٧)

ولعل أشهر شاهد عند النحاة على

«الأيادي» بمعنى النعم ، هو قول ابن

مالك في الألفية :

والخبر الجزء المتم الفائدة

كأله برُّ والأيادي شاهدة

قال المكوذي : « والأيادي : النعم ،

وهو جمع أيدي ، وأيد جمع يدٍ ، فهو جمع

الجمع » (٨) .

(٢) ديوانه ص ٧٢٧

(٤) ديوانه ١ / ٣٠٤

(١) ديوانه ص ٧٢٦

(٣) ديوانه ص ٧٤٨

(٥) ديوانه ١ / ٣٥٧

(٦) وهذا البيت من شواهد القول بالموجب - من علم البديع - ويسمى أسلوب الحكيم . راجع بديع القرآن ص ٣١٥ ،

وتحرير التعبير ص ٥٩٩ ، وشروح التلخيص ٤ / ٤٠٩ ، ومعاهد التنصيص ٣ / ١٨٠ ، وشرح الكافية البديعية في

علوم البلاغة ص ٩٦ ، ونهاية الأرب ٧ / ١٧١

والحسين بن الحجاج هذا من شعراء اليتيمة ، كما ذكرت ، وقد أورد له الثعالبي في اليتيمة جملة صالحة من شعره ،

ولكن لم يرد فيها هذا البيت ، وترجمته في اليتيمة ٣ / ٣١ - ١٠٤

(٨) شرح المكوذي على الألفية ١ / ١٧٤

(٧) اللسان « يدى » .

وجاء في أمثال المولدين : « إن
الأيادي قروض » (١) .

وكأن هذه الدلالة للأيادي قد استقرت
عند بعض اللغويين ، فجاء بها شرحاً
للفواضل والإحسان . قال ابن دُرَيْد :
« والفواضل : الأيادي الجميلة » (٢) ،
وعبارة صاحب القاموس : « والفواضل :
الأيادي الجسيمة أو الجميلة » (٣) .

ومع شيوع « الأيادي » جمعاً لليد
التي بمعنى النعمة والإحسان ، فقد جاء
هذا الجمع أيضاً لليد ، التي هي العضو
والجارحة ، وكان الجمع المعروف فيها :
« الأيدي » كما سبق ، وقد ذكر ذلك أبو
الفتح بن جنى في (باب الاستغناء
بالشيء عن الشيء) . من الخصائص
قال : « وكذلك اليد التي هي العضو قالوا
فيها " أيدي ، ألبتة ، فأما أياد فتكسر أيدي
لا تكسر يد ، وعلى أن « أياد » أكثر ما
تستعمل في النعم ، لا في الأعضاء ، وقد
جاءت أيضاً فيها » (٤) ، واستشهد ابن
جنى لذلك بشواهد كثيرة ، منها قول

عدي بن زيد العبادي :
سأها ما تأملت في أيادي

نا وإشناقها إلى الأعناقِ
وقد جرت هذه القضية في مجلس أبي
عمرو بن العلاء مع أبي الخطاب الأخفش
الكبير ، جاء في مجالس العلماء
للزجاجي : « قال أبو العباس - المبرد - :
قال أبو عبيدة : كنا عند أبي عمرو بن
العلاء ، فسأله سائل عن جمع يدٍ من
الإنسان ، فقال : أيدي ، وأنكر أن تكون
أيادي إلا في النعم ، فلما قمنا قال لي
أبو الخطاب الأخفش : أما إنها في علمه ،
غير أنها لم تحضره ، ثم أنشد أبو
الخطاب الأخفش بيت عدي بن زيد
العبادي :

أنكرت ما تبينت في أيادي

نا وإشناقها إلى الأعناقِ
ويروى : « سأها ما بنا تبين في
الأيدي » . قال أبو عمرو : يعني بنته
هنداً ، باتت عنده مع أمها في السجن
وهي جويرية صغيرة ، فقالت : يا أبتاه ،

(١) مجمع الأمثال ١ / ٨٩ ، والمستقصى ١ / ٢٠٣

(٣) القاموس « فضل »

(٢) الجمهرة ، ص ٩٠٧

(٤) الخصائص ١ / ٢٦٧

أى شىء هذا فى يدك ؟ - تعنى الغُلُّ -
ويكْتُ منه ، نفى ذلك يقول : « ساءها ما
بنا تبين » (١) .

ومن شواهد ذلك أيضاً ما أنشده أبو
زيد لرجل من عبيد شمس ، جاهلى ،
اسمه نُفيع - وقال أبو حاتم : نُفيع -
أماً واحداً فكفاك مثلى

فَمَنْ لِيَدٍ تُطَاوِحُهَا الْأَيْدَى (٢)

ومن ذلك قول الشاعر :

طَوَالَ الْأَيْدَى وَالْحَوَادِي كَانَهَا

سَمَاحِيحٌ قُبُّ طَارَ عَنْهَا نُسَائُهَا (٣)

وقول القُحَيْفِ الْعُقَيْلَى :

ومن أعجب الدنيا إلى زُجاجةٍ
تَظَلُّ أَيْدَى الْمُنتَشِينَ بِهَا فُتْلًا (٤)

وقول القائل :

وَمُسْتَامَةٌ تُسْتَامُ وَهِيَ رَخِيصَةٌ
تُبَاعُ بِسَاحَاتِ الْأَيْدَى وَتُمْسَحُ (٥)

وقال العجاج :

وَحَطَرْتُ فِيهِ الْأَيْدَى وَحَطَرُ
رَأَى إِذَا أَوْرَدَهُ الطَّعْنُ صَدْرُ

وهذه رواية ابن جنى (٦) ، أما الرواية

فى ديوان العجاج (٧) فهى :

وَحَطَرْتُ أَيْدَى الْكُمَاةِ وَحَطَرُ

(١) مجالس العلماء ، ص ١٦٢ ، المذكر والمؤنت لابن الأنبارى ، ص ٢٧٦ ، والمخصص ٢ / ٢ ، ١٢ / ٢٣٧ ، وأمالى

ابن الشجرى ٢ / ٢٣١ ، ٢٣٢ ، وشرح المفصل ٥ / ٧٤ ، ونزهة الألباء ص ٤٤ ، والخزانة ٧ / ٤٨١ .

(٢) النوادر ص ٢٥٥ ، واللسان « طوح » وروايته « واحد » قال أبو زيد : ونصب « واحداً » على كفاك ، كما تقول : أماً
درهماً فأعطاك زيد . ويقال : طاوحه : راماه ، وطاح الشئ : ذهب .

(٣) أمالى القالى ١ / ١٥١ ، والسمط ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، والشاعر يصف خيلاً ، شبهها فى طولها وارتفاعها بإبل

سماحيح ، أى طوال ، طارعتها نسائها : أى ريشها ، لسميتها ، والحوادى : الأرجل التى تتلو الأيدى وتحبونها .

(٤) سمط اللالى ص ٤٠٦ ، و « فُتْلًا » من القتل ، بالتحريك ، وهو تباعد ما بين المرفقين عن جنبى البعير ، ويقال : قوم
قتل الأيدى .

(٥) الخصائص ١ / ٢٦٨ ، والمقتضب لابن جنى ص ٦٨ ، وينسب لذى الرمة ، ملحق ديوانه ص ١٨٥٦ و « مُسْتَامَةٌ » من

السَّوْمِ الذى هو السير السريع ، يعنى أرضاً تسوم فيها الإبل ، و « تباع » أى تمد فيها الإبل أبواعها وأيديها ،
والبُوع : مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما .

و « تُمَسَّحُ » من المسح ، وهو القطع ، من قوله تعالى « فطفق مسحاً بالسُّوقِ والأعناق » سورة ص ٣٣ ، وهذا البيت

من أبيات المعانى ، وهى الأبيات التى يخالف ظاهرها باطنها ، وهولون من الالغاز والتعمية .

(٧) ديوان العجاج ص ٣٨

(٦) الخصائص ١ / ٢٦٨

وكذلك جاءت فى الكتاب والمقتضب
والمنصف (١) . وأخشى أن تكون هذه
الرواية مغيرة ؛ لإثبات أن « اليد »
العضو تُجمع على « أيدي » ليس غير .

وقال جندل بن المثنى الطهوى :
كأنه بالصَّحَّاحِ الأَنْجَلِ

قُطُنٌ سَخَامٌ بأيادى غَزَلٍ (٢)

ورواه ابن فارس :

قُطُنٌ سَخَامِيٌّ بأيدي غَزَلٍ (٣)

وأخشى أيضاً أن تكون هذه الرواية
مغيرة ؛ للعلة التى ذكرتها فى الشاهد
السابق .

وقال الفرزدق - وجمع بين الجمعين

للید التى هی العضو - :

ألا أيها الناهى عن الوردِ ناقتى

وراكبها سَدَدٌ يمينك للرُّشْدِ

فأى أيادى الورد فيه التى التقت

تخاف علينا أن تُحَلَّقَ بالوردِ

أَلْفُ ابن ليلى أم يدٌ عامريةٌ

أم الفاضلاتُ الناسُ أيدي بنى سعدٍ (٤)

ومن استعمال « الأيادى » جمعاً لليد

العضو ، هذه الرواية الثانية فى المثل :

« ذهبوا أيدي سبا » و « ذهبوا أيادى سبا »

قال ذو الرمة :

أمن أجل دارٍ طيرَ البَيْنُ أهلها

أيادى سبا بعدى وطال احتيالها (٥)

وقال كثير :

أيادى سبا يا عزُّ ما كنتُ بعدكم

فلم يحلَّ للعينين بعدك منظرٌ (٦)

وقال الفرزدق :

من ابنى نِزَارٍ واليمانين بعدهم

أيادى سبا والعقل للمتفهم (٧)

(١) الكتاب ٢ / ٥٩٦ ، والمقتضب ١ / ١٥٣ ، والمنصف ٢ / ٧ ، جاعاً به شاهداً على جمع راية على رأى .

(٢) إصلاح المنطق ص ٣٨١ ، والألفاظ لابن السكيت ص ٦٧١ ، ونسبها الزمخشري فى الأساس « سخم » لأبى النجم ،
وليسافى ديوانه المطبوع بالرياض ، وانظر كتاب الشعر ص ٣٣٤ ، والخصائص ١ / ٢٦٩ ، وأمالى ابن الشحرى
٢ / ٢٣٢ ، والسُّخَامُ بضم السين ، وهو هنا اللين الناعم . والصحاحان : ما استوى من الأرض ، والأنجل : الواسع ،
والالراجز يصف سراباً .

(٣) مقاييس اللغة ٢ / ١٤٥

(٥) ديوانه ص ٥٠١

(٧) ديوانه ص ٧٥٥

(٤) ديوانه ١ / ١٧١ ، والورد : هو الورد بن الأشهب الحنفى

(٦) ديوانه ص ٣٢٨ ، وشرح أبيات مغنى اللبيب ٥ / ١٥٩ - ١٦١

وحكى صاحب اللسان ، عن ابن برى
تعليقاً على بيت ذى الرُّمة السابق ، قال :
« قولهم : أيادى سبا : يُراد به نِعَمُّهم ،
واليد : النعمة ؛ لأن نعمهم وأموالهم
تفرقت بتفرقهم . وقيل : اليد هنا كناية
عن الفرقة ، يقال : أتانى يد من الناس ،
وعين من الناس ، فمعناه : تفرقوا تفرق
جماعات سبا . وقيل : إن أهل سبا كانت
يُدْهم واحدة ، فلما فرقهم الله صارت
يدهم أيادى ، قال : وقيل : اليد هنا
الطريق ، يقال : أخذ فلان يد بحر : أى
طريق بحر ؛ لأن أهل سبا لما مرقهم الله
أخذوا طرقاً شتى » انتهى كلام ابن
برى (١) .

قلت : وتفسير « الأيادى » فى هذا

(١) اللسان « يدى » .

(٢) سورة البلد ١٣

(٣) قال الزمخشري : « وأصله أن سبا بن يشجب لما أُنذِرُوا بسيل العرم خرجوا من اليمن متفرقين فى البلاد ، فقيل لكل
جماعة تفرقوا : ذهبوا أيدي سبا ، والمراد بالأيدي الأنفس ، وهو فى موضع النصب على الحال ، وإن كان معرفة ؛ لأنه
فى تأويل شئ منكر ، وهو قولنا : متفرقين وشاردين ، أو على حذف المضاف الذى هو « مثل » كأنه قيل : ذهبوا مثل
أيدي سبا ، كما قال : لا هَيْئَمَ اللَّيْلَةُ لِلْمَطِيِّ

« أراد : لا مثل هَيْئَم ، لأن « لا » لا تعمل فى معرفة . أمالى بن الشجرى ١ / ٣٦٥ ، وقيل : الأيدي جمع يد ، وهى
الطريق ، فعلى هذا ينتصب موضع « أيدي » على الظرف ، والمعنى : ذهبوا فى طرقهم ، وسلخوا مسالكهم المستقصى
٢ / ٨٨ - ٩٠ ، وقوله فى المثل « أيادى » يضبط ويقرأ بسكون الياء ، وكان القياس أن ينصب - على الحال - لكنهم
أثروا فيه الخفة بالسكون لاغير . قاله الزمخشري ، وانظر الكتاب ٣ / ٣٠٤ ، والمخصص ١٢ / ١٣٢ ، والروض
الأنف ١ / ١٥ ، والمقتضب ٤ / ٢٥ ، ٢٦ ، وما فيه من فوائد وتنبيهات وإحالات ، ورحم الله محققه رحمة واسعة .

المثل بالنعم بعيد ؛ لأن ذلك إنما يأتى فى
سياق التمدح والمنة ، ولا تمدح ولا منة
فى هذا القول ، كما أن تفسير « الأيادى »
هنا بالفرقة والعين من الناس بعيد ،
وكذلك تفسيرها بالطريق بعيد أيضاً ؛
لأن ذلك كله غير شائع فى كلام العرب ،
ولم يأت له ابن برى بشاهد واحد منشور
أو منظوم ، فلم يبق إلا أن تكون
« الأيادى » فى هذا المثل مراداً بها جمع
اليد التى هى العضو والجراحة ، ويكون
ذلك من باب المجاز ، بإطلاق الجزء
وإرادة الكل ، على حد قوله تعالى : " فكُ
رقبة " (٢) والمراد العبد كله ، فيكون المراد
بأيادى سبا : أفراد هذه القبيلة الذين
تفرقوا ، كما جاء فى شرح المثل (٣) .

ومع هذه الشواهد الكثيرة على استعمال « الأيادي » التي هي النعم ، في معنى « الأيدي » الأعضاء ؛ فإن صنيع بعض اللغويين يُشعر بأن هذا ليس هو الأصل ؛ فحين شرح أبو على القالى ذلك الشاهد السابق :

طوال الأيادي والحوادي كأنها ... البيت قال : « الحوادي : الأرجل التي تحدد الأيدي وتتلوها » (١) فاستعمل في الشرح « الأيدي » ، ولم يستعمل « الأيادي » الثابتة في الشاهد .

وإذا كانت « الأيادي » النعم قد استعملت في معنى « الأيدي » الأعضاء ، فهل جاء العكس ، فاستعملت « الأيدي » التي هي الأعضاء ، في معنى « الأيادي » التي هي النعم ؟

لم أجد هذا إلا في شاهدين اثنين ، أولهما لبشر بن أبي خازم ، يمدح أوس ابن حارثة :

فإن تجعل النعماء منك تِمامةً (٢)
ونُعماك نُعمى لا تزال تفيضُ
تكن لك في قومي يدُ يشكرونها
وأيدي الندى في الصالحين قُروضُ (٣)
والثاني للفرزدق ، وهو قوله :
لنا فيكمُ أيدي وأسبابُ نعمةٍ
إذا الفتنة العشواء شُبَّ احتدامُها (٤)
وتبقى كلمة :

ذكر سيبويه وابن جنى (٥) ، ومن جاء بعدهما من اللغويين والنحاة أن « الأيادي » إنما هي جمع الأيدي ، فتكون من باب جمع الجمع . وقال ابن يعيش : « وإنما يجمعون الجمع إذا أرادوا المبالغة في التكثير والإيذان بالضروب المختلفة من ذلك النوع ، على تشبيهه لفظ الجمع بالواحد ، وقد جاء ذلك في جمع القلة ، وفي جمع الكثرة ، وهو في جمع القلة أسهل ؛ لدلالته على القلة ، فإذا أريد الكثير جمعه ثانياً ، فأما مجيئه في

(٢) تمام الشيء وتِمامته - بكسر التاء - وتتمته : ما تم به

(٣) ديوانه ص ١٠٧ ، واللسان « يدي » ونسبه الزمخشري في المستقصى ١ / ٢٠٢ ، لأوس بن حجر ، وليس في ديوانه المطبوع .

(٤) ديوانه ص ٧٩٢

(٥) الكتاب ٣ / ٦١٨ ، ٦١٩ ، والخصائص ١ / ٢٦٧

جمع القلة « أفعل وأفعله وأفعال » فمن ذلك قولهم : أيد وأياد ... » (١) . وكذلك قال الرضى : « وقد سُمع - أى جمع الجمع - فى أفعل وأفعال وأفعله كثيراً ، كالأيدى والأيادى ... » (٢) .

لكن بعض اللغويين والنحاة المتقدمين لم يذكروا أن « الأيادى » جمع « الأيدى » وإنما ذكروها جمعاً للمفرد « يد » فتكون هى و « الأيدى » سواء ، باتفاق الدلالة أو اختلافها ، فأبو الخطاب الأخفش الكبير - وهو أقدم من تكلم على جمع « اليد » كما سبق ، لم يشر إلى جمع الجمع هذا ، وكذلك صاحب العين - وهو فى طبقة الخليل - قال : « وجمع يد الإنسان والأشباح : أيد ، وجماع يد النعمة أيادٍ ويديُّ » (٣) ، وقال ابن فارس : « وجمع ناسٌ يد الإنسان على الأيادى » (٤) . وقال كراع : « وجمع اليد من الإحسان : أيادٍ ويدي » (٥) .

فهذه النصوص الثلاثة - مع رأى الأخفش الكبير - صريحة فى أن « الأيادى » جمع للمفرد « اليد » وليست جمعاً للجمع « الأيدى » . وهذا ما أميل إليه ؛ لأن جمع الجمع ليس أصلاً ولا قياساً ، فسيبويه وإن كان قد ذكر جمع الجمع ، ومثل له فيما مثل بأيدي وأياد ، فإنه قال : « واعلم أنه ليس كلُّ جمع يجمع ، كما أنه ليس كل مصدر يجمع ... » (٦) .

وقال ابن يعيش : « اعلم أن « جمع الجمع » ليس بقياس ، فلا يُجمع كل جمع ، وإنما يوقف عندما جمعه من ذلك ، ولا يتجاوز إلى غيره ، وذلك لأن الغرض من الجمع الدلالة على الكثرة ، وذلك يحصل بلفظ الجمع ، فلم يكن بنا حاجة إلى جمع ثان » (٧) .

(٢) شرح الشافية ٢ / ٢٠٩

(٤) المقاييس ٦ / ١٥١

(٦) الكتاب ، الموضع السابق .

(١) شرح المفصل ٥ / ٧٤

(٣) العين ٨ / ١٠٢

(٥) المنجد ص ٤٧

(٧) شرح المفصل ٥ / ٧٤

وقال الرضى : « اعلم أن جمع الجمع
ليس بقياسٍ مطرد ، كما قال سيبويه
وغيره ، سواء كسرتَه أو صححته ،
كأكالب وبيوتات ، بل يقال فيما قالوا ولا
يُتجاوز (١) .

وذكر أبو حيان أيضاً أن جمع الجمع
مسموع ، وقد حُظر القياس عليه ، وأشار
إلى أن ذلك مذهب سيبويه ، وأن المبرد
والرمانى ذهباً إلى قياس ذلك (٢) .

(١) شرح الشافية ٢ / ٢٠٨

(٢) تذكرة النحاة ص ٢٧٣ ، وارتشاف الضرب ١ / ٢١٨ ، وانظر الهمع ٢ / ١٨٣

الشعور والأشعار

الشَّعْرُ : نَبْتَةُ الْجِسْمِ مِمَّا لَيْسَ بِصُوفٍ وَلَا وَبَرٍ ، لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ .

وهو اسم جنس ، مذكر ، الواحدة : شعرة ، قال صاحب المصباح : وإنما جُمع الشعر تشبيهاً لاسم الجنس بالمفرد ، كما قيل : إِبِلٌ وَأَبَالٌ .

ويُضْبَطُ « الشعر » بسكون العين وفتحها ، فإذا كان بالسكون جُمع على شعور ، مثل فلس وفلوس ، وإذا كان بالفتح جُمع على أشعار ، مثل سبب وأسباب (١) .

وذكر ابن فارس أن « أشعار » جمع الجمع (٢) . والجمع الأول « شعور » هو الشائع الدائر على الألسن ، نثراً ونظماً وشواهد كثيرة مستفيضة ، أما الجمع الثاني « أشعار » فهو قليل الوجود ، نادر الاستعمال ، ولم أجده مستفيضاً فيما قرأته من شعر أو نثر ، ولعل الذي صدَّ

الناسَ عنه غلبته على جمع « شعر » هذا الكلام الموزون المقفى المقصود ، على أنه قد جاء في القرآن الكريم مرة واحدة ، وذلك قوله تعالى : " واللّٰه جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين " (٣) . وقال أبو إسحاق الزجاج " الأوبار للإبل ، والأصواف للضأن ، والأشعار للمعز (٤) . وجاء هذا الجمع أيضاً في الحديث مجيئاً صالحاً :

أخرج مسلم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « كان أهل الكتاب يَسْدُلُّونَ أشعارهم ، وكان المشركون يَفْرُقُون رِعْسَهُمْ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به ، فسدل

(١) إصلاح المنطق ص ٩٧ ، ١٧٢ ، وأدب الكاتب ص ٥٢٧ ، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري ص ٢٦٢ ، والمخصص ١/٦٢ ،

وخلق الإنسان لأبي محمد الحسن بن أحمد ص ١٦٣ ، واللسان والمصباح « شعر » .

(٢) مقاييس اللغة ٣ / ١٩٣ - وانظر لجمع الجمع : المبحث السابق .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢ / ٢١٥

(٣) سورة النحل ٨٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم
ناصيته ثم فرق بعدُ « (١)

وأخرج أحمد من حديث أبي أسيد
السَّاعِدِيّ ، وأبي حميد السَّاعِدِيّ ، أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا
سمعتُم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين
له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم
قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتُم
الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتتفر منه
أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم
بعيد فأنا أبعدكم منه » (٢) .

وأخرج أحمد أيضاً ، في حديث وفد
عبد القيس ، أن النبي صلى الله عليه
وسلم أقبل على الأنصار ، فقال : « يا
معيشر الأنصار ، أكرموا إخوانكم ؛
فإنهم أشباهكم في الإسلام ، أشبه شيئاً

بكم ، أشعاراً وأبشاراً .. » الحديث (٣) .
وأخرج الترمذي وابن ماجه ، من
حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي
صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما عمل
أدمي يوم النحر أحب إلي الله من إهراق
الدم ، إنها لتأتى يوم القيامة بقُرُونها
وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من
الله بمكان قبل أن يقع من الأرض ،
فطيبوا بها نفساً » (٤) .

فهذه الآية الكريمة ، وتلك الآثار
المُسندة الصحيحة ، هي كلُّ ما عرفته من
شواهد لجمع « شعر » على « أشعار » ،
وليس يخفى أن مجيء هذا الجمع في تلك
الأحاديث ، دليل على أن اللغة : أبنية
ودلالة ينبغى أن تُلتمس من الحديث
والآثار .

(١) صحيح مسلم « باب في سدل النبي صلى الله عليه وسلم شعره وفرقه ، من كتاب الفضائل » ص ١٨١٩ ، وانظر
أيضاً فتح الباري « باب الفرق من كتاب اللباس » ١٠ / ٣٦١ ، وسنن أبي داود « باب ما جاء في الفرق من كتاب
الترجل » ٤ / ٨٢ ، وسنن ابن ماجه « باب اتخاذ الجُمّة والنوائب . من كتاب اللباس » ص ١١٩٩ .
والمراد بسدل الشعر هنا : إرساله على الجبين ، واتخاذ كالقُصّة ، يقال : سدل شعره وثوبه : إذا أرسله ولم يضم
جوانبه . وأما الفرق : فهو فرق الشعر بعضه من بعضه . شرح النووي على صحيح مسلم ١٥ / ٩٠ .

(٢) مسند أحمد ٣ / ٤٩٧ ، ٥ / ٤٢٥ ، وانظر مجمع الزوائد « باب معرفة أهل الحديث بصحيحه وضعيفه . من كتاب
العلم » ١ / ١٥٤ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٦ « تفسير سورة الأعراف » ، ٤ / ٢٧٥ « تفسير سورة هود » ،
والأبشار : جمع البَشْرة ، وهي ظاهر الجلد .

(٣) مسند أحمد ٣ / ٤٣٢ ، ٤ / ٢٠٦ .

(٤) عارضة الأخوذي بشرح صحيح الترمذي « باب ما جاء في فضل الاضحية . من كتاب الاضاحي » ٦ / ٢٨٨ ، وسنن
ابن ماجه « باب ثواب الاضحية . من كتاب الاضاحي » ص ١٠٤٥ .

العبيد والعباد

يُعرف بعض اللغويين « العبد » بأنه المملوك ، أو خِلافُ الحرِّ (١) ، لكنَّ صاحب العين يقول : « العبد : الإنسان ؛ حرّاً أو رقيقاً ، هو عبد الله » ، ويزيد ابن سيده فيقول : « يُذهبُ بذلك إلى أنه مَرَبوبٌ لباريه عز وجل » (٢) .

والعبد في أصل وضعه صفة ، قالوا : رجلٌ عبدٌ ، ولكنه استعمل استعمال الأسماء . ذكره سيبويه (٣) .

قال الفيومي : « واستعمل له جموع كثيرة ، والأشهر منها : أَعْبُدْ وَعَبِيدْ وَعِبَاد » (٤) .

ومن شواهد الجمع « أَعْبُد » ما أخرجه البخاري والنسائي وأحمد ، من حديث حُوَيْطِب بن عبد العزَّى « أن عبد

الله بن السَّعْدِي أخبره أنه قدم على عُمَرُ في خلافته ، فقال له عمر : أَلَمْ أُحَدِّثْ أَنَّكَ تَلِي مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ أَعْمَالاً ، فَإِذَا أُعْطِيتِ الْعِمَالَةَ كَرِهْتَهَا ؟ فَقُلْتَ : بَلَى ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا تَرِيدُ إِلَى ذَلِكَ ؟ قُلْتَ : إِنْ لِي أَفْرَاسًا وَأَعْبُدًا وَأَنَا بِخَيْرٍ ، وَأُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عُمَالَتِي صَدَقَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ . قَالَ عُمَرُ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنِّي كُنْتُ أُرَدْتُ الَّذِي أُرَدْتُ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ ، فَأَقُولُ : أُعْطِهِ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي ، حَتَّى أُعْطَانِي مَرَّةً مَالًا فَقُلْتَ : أُعْطِهِ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خُذْهُ فَتَمَوْلِهِ وَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ - وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ - فَخُذْهُ ، وَإِلَّا فَلَا تَتَّبِعْهُ نَفْسُكَ » (٥) .

(١) انظر مقاييس اللغة ٤ / ٢٠٥ ، والمصباح « عبد » .

(٢) الكتاب « باب تكسير الصفة للجمع » ٣ / ٦٢٦ - ٦٢٨ ، والمحكم ، الموضع السابق .

(٣) المصباح « عبد » ، وذكر ابن الشجري أن « العبد » اسم للجمع ، وليس بتكسير عند سيبويه . أمالي ابن الشجري

١ / ١٠٠ ، قلت : بل ذكره سيبويه في التفسير ، ولكنه وصفه بالقلة . الكتاب ٣ / ٥٦٧ ، ٥٦٦ ، ٦٢٨ ، ٢ / ٩٢ ،

وإعراب القرآن للنحاس ٢ / ٤٤٠ . وانظر شرح الشافية ٩٢/٢

(٥) فتح الباري « باب رزق الحاكم والعاملين عليها » من كتاب الأحكام ١٣ / ١٥٠ ، وسنن النسائي « باب من آتاه الله

عز وجل مالا من غير مسألة » من كتاب الزكاة ٥ / ١٠٣ ، ومسنند أحمد ١ / ١٧ ، ٤٠ .

ومن ذلك ما أخرجه أبو داود
والترمذى، من حديث عمران بن حصين ،
وأحمد ، من حديث أبي زيد عمرو بن
أخطب الأنصارى : « أن رجلاً أعتق ستة
أعبد عند موته ، ولم يكن له مالٌ غيرهم ،
فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ،
فقال له قولاً شديداً ، ثم دعاهم فجزأهم
ثلاثة أجزاء ، فأقرع بينهم ، فأعتق اثنين
وأرق أربعة » (١) .

وأخرج ابن ماجه ، من حديث خباب ،
قال : « جاء الأقرع بن حابس التميمي
وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدوا
(هكذا الرواية ، وهو صحيح) رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال
وعمار وخباب ، قاعدا في ناس من
الضعفاء من المؤمنين ، فلما ، رأوهم حول

النبي صلى الله عليه وسلم
حقروهم ، فأتوه فخلّوا به وقالوا : إنا
نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا
به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك
فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد .
الحديث » (٢) .

ومن شواهد الجمع «أعبد» في الشعر
قول هميان بن قحافة السعدي :
تلقى من الأعبد لوما عاذجا (٣) .

وقول أبي العلاء المعري - وهو من
شعره العالي :

ويقول داري من يقول وأعبدى
مّة فالعبيد لربنا والدار
يا إنس كم يرد الحياة معاشر
ويكون من تلف لهم إصدار (٤)

(١) سنن أبي داود (باب فيمن أعتق عبداً له لم يبلغهم الثلث . من كتاب العتق) ٤ / ٢٨ ، ومارضة الأحوذى
بشرح صحيح الترمذى (باب من أعتق ممالئكه عند موته وليس له غيرهم . من كتاب الأحكام) ٦ / ٩٨ ، ومسند
أحمد ٥ / ٣٤١

(٢) سنن ابن ماجه (باب مجالسة الفقراء . من كتاب الزهد) ص ١٣٨٢ ، وتفسير الطبري ١١ / ٣٧٦ (تفسير سورة
الأنعام ٥٢) وابن كثير ٣ / ٢٥٥ ، والدر المنثور ٣ / ١٣

(٣) الجيم ٢ / ٢٦٨ ، واللسان (عذج) ، والعذج : الشتم . قال في اللسان : أي تلقى هذه الإبل من الأعبد زجرا كالشتم .
وهميان بن قحافة : راجز محسن ، من الدولة الأموية . وجيميته هذه في وصف الإبل شهيرة . انظر المؤلف
والمختلف ص ٣٠٤

(٤) شرح اللزوميات ٢ / ٩٩ ، وقوله : « يا إنس » أراد : يا إنسان ، فرخم .

قلت : وقد شاع من هذه الثلاثة
الجموع اثنان فقط ، هما العبيد والعباد ،
ثم غلب العرف والاستعمال «العباد»
خاصا بالله تعالى ، ومضافا إليه ،
ويشترك فيه كل الخلق ، وجعل «العبيد»
للملوكين الأرقاء . قال صاحب العين :
«إن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين
عباد الله : والعبيد المملوكين (١)» .

وقال ابن الشجري : «والعباد مختص
بالله تعالى ، يقولون : نحن عباد الله ،
لا يكادون يضيفونه إلى الناس ، وقد جاء
ذلك فيما أنشده سيبويه من قول
القاتل (٢) :

أَتُوْا عِدْنِيْ بِقَوْمِكَ يَا ابْنَ جَحْلٍ

أَشَابَاتٍ يُخَالُونِ الْعِبَادَا

بِمَا جَمَعْتَ مِنْ حَضَنٍ وَعَمْرٍ

وَمَا حَضَنُ وَعَمْرٍ وَالْجِيَادَا

قال ابن جنى : «وقلما يأتى «عباد»
مضافا إلى غير الله ، ثم أنشد الشاهد
السابق ، وقال عقبه : «يريد عبيدا لبني
آدم ، ولا يجوز أن يكون فى المعنى :
عباد الله ، لأن هذا مالا يُسَبُّ به أحد ،
والناس كلهم عباد الله تعالى» (٣) .

ويخالف الأسود الغنْدَجَانِيُّ ابن جنى
وابن الشجرى ، ومن قبلهما ابن
السيرافى ، فى أن «العباد» هنا عباد
الله ، وأنه فى تأويل العبيد ، ويرى أن هذا
خطأ ، وأن الصواب أن الشاعر عنى
بالعباد قوما كانوا يجتمعون على باب
النعمان خولاً من كل قبيلة ، شبه هؤلاء
بأولئك ، أى أنهم أخلاط (٤) .

ومن استعمال «العباد» مضافا إلى
الخلق قوله عز وجل : (وَأُنْكِحُوا الْيَامَى
مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) (٥) .

(١) العين ٤٨/٢ ، وصرح ابن فارس فى المقاييس ٢٠٥/٤ بنسبة هذا الكلام إلى الخليل ، وهذا مما يقوى نسبة كتاب
العين إلى الخليل ، والخلاف فى ذلك معروف .

(٢) هو شقيق بن جَزء الباهلى ، جاهلى . أمالى ابن الشجرى ٩٩/١ ، ١٠٠ ، والحماسة البصرية ٢٣٠/١ ، والكتاب
٣٠٤ ، وشرح أبياته لابن السيرافى ١٩٧/١ . والأشابات : الأخلاط . هذا وقد جاء فى حاشية مخطوطة من أمالى
ابن الشجرى ، تعليق على مجئ «العباد» مضافا للخلق ، هذا نصه : قد يكثر الشئ فى كلامهم وغيره مثله فى
الجواز ، لكن يقل استعمالهم له ، فأما «العباد» فقد جاء فى قوله تعالى : (والصالحين من عبادكم وإمائكم) وهذا
قاطع لمن يخالفه .

(٣) المحتسب ٢١٥/١ ، وانظر أيضا ١٤/٢ (٤) فرحة الأديب ص ٤٨ (٥) سورة النور ٣٢

قال أهل التفسير : إن المراد بالعباد هنا : العبيد المملوكون الأرقاء . قال الأخفش : «يريد : من عبيدكم ، كما تقول : هم عباد الله ، وعبيد الله » (١) .

وقرأ الحسن ومجاهد : (من عبيدكم) (٢) . وعلق أبو حيان على هذه القراءة فقال : «وأكثر استعماله في الممالك» (٣) .

وإذا كان «العباد» قد شاع وكثر استعماله مضافا إلى الله عز وجل ، وجاء «العبيد» مصروفا إلى المملوكين الأرقاء (٤)

فقد جاء أيضا مضافا إلى المولى عز وجل ، وخاصا به ، وذلك قوله تعالى : (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) (٥) ، أي ليس بظلام لعبيده سبحانه وتعالى .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والحسن : (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبيدا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) (٦) ، والقراءة المتواترة : (عبادا لنا) .

(١) معاني القرآن ص ٤٥٦ ، ومعاني القرآن للقراء ٢/٢٥١ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٠٤

(٢) شواذ القراءات لابن خالويه ص ١٠٢ ، وإتحاف فضلاء البشر ٢/٢٩٦ ، وتفسير القرطبي ١٢/٢٤٠ ، وتفسير الألوسي ١٨/١٤٨

(٣) البحر المحيط ٦/٤٥١

(٤) من أظرف ما جاء فيه «العبيد» مضافا إلى الخلق قول الشاعر :

أرى ماءً وبى عطش شديد
أما يكفيك أنك تملكيني
وأنت لو قطعت يدي ورجلي
ولكن لا سبيل إلى الورود
وأن الخلق كلهم عبيدي
أقلت من الهوى أحسنيت زيدي

وهذه الأبيات الثلاثة في ديوان ابن الرومي ص ٨٠٤ ، نقلها عن كتاب الموشى أو الظرف والظرفاء ، لأبي الطيب اللؤلؤاء . ويلاحظ أن العبارة في الموشى ص ٦٦ : «وأشدنى أبو الحسن بن الرومي» .

والبيتان الثانى والثالث فى تاريخ بغداد ١٤/٢ ، ونسبهما الخطيب البغدادي إلى هارون الرشيد .

(٥) سورة الأنفال ٥١ ، وغير ذلك من الكتاب العزيز .

(٦) سورة الإسراء ، وانظر المحتسب ٢/١٤ ، وشواذ القراءات ص ٧٥ ، وإتحاف فضلاء البشر ٢/١٩٣ ، وتفسير

الألوسي ١٥/١٧ ، وجعل مكان «على» : زيد بن على .

وقال ابن جنى تعليقا على قراءة على
والحسن هذه : «أكثر اللغة أن تستعمل
«العبيد» للناس ، و«العباد» لله ، قال
تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم
سلطان) (١) ، وقال تعالى : (يا عباد
فاتقون) (٢) ، وهو كثير ، وقال : (وما
ربك بظلام للعبيد) (٣) .»

ومن ذلك أيضا ما رواه أحمد ، من
حديث أير هريرة رضى الله عنه ، أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
«إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ،
ولا تحاسدوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا
تدابروا وكونوا عبيد الله إخوانا » (٤) .
والرواية المحفوظة : «وكونوا
عباد الله » (٥) .

(١) سورة الحجر ٤٢

(٢) سورة الزمر ١٦

(٣) سورة فصلت ٤٦ ، راجع الموضع السابق من المحتسب .

(٤) مسند أحمد ٣١٢/٢

(٥) وهى الرواية المعروفة فى دواوين السنة . انظر مثلاً : فتح البارى (باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير . من كتاب
الادب) ٤٨١/١٠ ، وصحيح مسلم (باب تحريم الظن والتجسس . من كتاب البر والجملة والآداب) ص ١٩٨٥ ، ومسند
أحمد ٤٦٥/٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٢ .

العيون والأعين

الشافعية الكبرى ، ومطلع القصيدة:

هنيئاً قد أقر الله عيني

فلا رمت العدي أهلي بعين

وأخرها :

ولولا ذا لطاب لها ختام

بذكر مليكها القاضي الحسين (٢)

وللعين الباصرة - أو عين الحيوان

كما يقول بعض اللغويين - ثلاثة جموع :

أعيان وأعين وعيون ، فالأول قليل

الوجود ، نادر الاستعمال ، وأنشدوا عليه:

إمّا ترى شمطاً في الرأس لاح به

من بعد أسود داجي اللون فيئان

العين : عين الإنسان وكل ذي بصر ،

وهي حاسة الإبصار ، مؤنثة . قال أبو

الفرج بن الجوزي : «العين من الأسماء

المشتركة ، والأصل فيها : العين

الباصرة ، ثم هي بالوضع العرفي منقولة

إلى مواضع (١) ، ثم ذكر معاني

العين ، فيما يسمى المشترك اللفظي .

وقد نظم بهاء الدين السبكي ،

صاحب كتاب «عروس الأفراح» قصيدة

في مدح أخيه جمال الدين الحسين ، كل

بيت منها ينتهي بلفظ «عين» ذكر فيها

خمسة وثلاثين معنى للعين ، وقد أوردها

أخوهما تاج الدين السبكي ، في طبقات

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ص ٤٤٣

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤١٦/٩ ، وأشار إلى هذه القصيدة المرتضى الزبيدي في تاج العروس (عين) .

وأنبه هنا إلى أنه قد حدث في طبعتنا الأولى من الطبقات (طبعة الحلبي) خلط بين آخر هذه القصيدة ، وأبيات علي

وزنها لصفي الدين الحلبي ، وقد أصلحنا ذلك في طبعتنا الثانية (طبعة دار هجر) ، وانظر الكلام على «العين» معنى

وإفراداً وجمعاً ، وتذكيراً وتأنيثاً ، وحقيقة ومجازاً ، في إصلاح المنطق ص ٥٦ ، وتهذيبه للتبريزي ص ١٥٥ ، والمنجد

لكراع ص ٢٢ ، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري ص ١٩٢ - ١٩٦ ، ٢٧١ ، والزاهر له ٥٢/٢ ، وديوان الأدب ٣٠٧/٣ ،

والتكملة لأبي علي الفارسي ص ١٣٢ ، ومقاييس اللغة ١٩٩/٤ ، والمجمل ص ٦٤٠ ، والمخصص ١٨٥/١٦ ، وأمال

ابن الشجري ٤٢٣/١ ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، له ص ٢٦٢ ، وخلق الإنسان لأبي محمد الحسن بن أحمد

ص ١٩٤ ، والمثلث لابن السيد البطليوسي ٢٧٣/٢ ، ومفردات الراغب ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، وإكمال الإعلام بتثنيث الكلام

ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٣ ، والمصباح المنير (عين) ، وبصائر نوى التمييز

٧-٤/٤ ، والمزهر ٣٧٢/١ - ٣٧٥ ، والكليات ٢٥٧/٣ ، ٢٥٨

فقد أروع قلوب الغانيات به

حتى يملن بأجساد وأعيان^(١)

وقد يدل ذلك على قلة هذا الجمع قول

أبي زيد عقب إنشاده هذا الشعر : «جمع
عيناً على أعيان» .

وأنشد سيبويه :

ولكننى أغدو على مفاضة

دِلاص كأعيان الجراد المنظم^(٢)

وأنشد ابن فارس :

فقد قرأ أعيان الشوامت أنهم^(٣)

قدم سواء؟

والجمعان الآخران هما أعين

وعيون، قال ابن الأنباري : « كما يقال :

بحر وأبحر ، وبحور^(٤) » وقال ابن

التستري : «وجمعها الأقل : ثلاث أعين ،

والكثيرة : العيون»^(٥) .

وهذان الجمعان هما المعروفان

الدائران على الألسن ، ولحاجة بنا إلى

ذكر شواهدهما في كلام العرب

وأشعارها^(٦) .

ولكن ، هل استعمل الجمعان على

(١) قائلهما رومي بن شريك الضبي ، جاهلي أدرك الإسلام ، على ما ذكر أبو زيد في النواير ص ١٩٢ ، وانظر المقتضب
١٩٩/٢ ، والمسائل البصريات ص ٥٧٦ ، والمنصف ٥١/٣ ، والموضع المذكور من المذكر والمؤنث ، والمقاييس
والمخصص .

(٢) الكتاب ٥٨٩/٣ ، والمقتضب ١٣٢/١ ، ١٩٩/٢ ، والمنصف ٢١/٣ ، ٥١ ، والمخصص ١٨٥/١٦ ، ونسبه في اللسان
(عين) ليزيد بن عبد المدان ، وهو أحد أشراف اليمن ، الذين قدموا مع خالد بن الوليد ، إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، الإصابة ٦٦٨/٦

(٣) الموضع السابق من المقاييس ، ولم يكمل الشاهد ، ولم أعرفه .

(٤) الموضع السابق من المذكر والمؤنث ، وانظر قياس الجمع «أفعل وفُعول» في الكتاب ٥٨٨/٣ ، وشرح الشافعية ٩٠/٢ .

(٥) المذكر والمؤنث ص ٩٤

(٦) ممن جمع بينهما الفرزدق ، وذلك قوله في ديوانه ص ٦٩٧

تري أعين الهلكى إليه كأنها
عيون الصواري حوماً بالمناهل

وكذلك الإمام الشافعي في ديوانه ص ٨٥ :

في أمــــور تكون أو لا تكون
سِـرٍ فـجـمـلـانـك الـهـمـوم جـنـون
ن سـيـكـفـيـك في غـدٍ ما يكون

سـهـرت أعين ونامت عـيـون
فأدرا الهم ما استطعت عن النفـ
إن رباً كفاك بالأمس ما كا

إن الناظر في كلام العرب يرى غلبةً للجمع «عيون» على «أعين» قديما وحديثا، ثم تقرأ كتب الطب القديم فلا تجد إلا أمراض العيون وعلاج العيون^(١)، وفرّقوا بين الحكيم والطبيب، فقالوا: «الحكيم عبارة عن الناظر في العيون لافي الأبدان، لأن هذا هو الطبيب عندهم»^(٢) «وتقرأ كثيرا في عنوانات الكتب: «العيون» مثل: عيون الأخبار لابن فتية، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، والنكت والعيون في تفسير القرآن للماوردي، والعيون الغامزة على خبايا الرامزة، في العروض للدمايني، وعيون

الحكمة للفخر الرازي، وعيون المسائل لأكثر من مؤلف، وغير ذلك كثير^(٣). وإن كنا نرى في العنوانات أيضا «الأعين» مثل نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، وقد نقلت منه قريبا، ولكن هذا قليل.

وجاء في كنى الرجال كثيرا: «أبو العيون»^(٤).

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدنا شيئا يستحق التأمل: لقد ورد الجمعان «العيون والأعين» في الكتاب العزيز، لكن «العيون» لم تأت فيه إلا جمعا لعين الماء أو النهر أو ينبوع، وقد جاء ذلك في عشرة مواضع من الكتاب الحكيم، أولها قوله تعالى: (إن المتقين في جنات وعيون)^(٥).

(١) انظر على سبيل المثال: المنصوري في الطب للرازي ص ٩٨، وقد امتد هذا إلى زماننا، فنحن لا نقول إلا طب العيون وأمراض العيون.

(٢) برنامج الوادي أشبى ص ٧٤ (ترجمة زين الدين أبي الصبر أيوب بن نعمة المقدسي).

(٣) راجع كشف الظنون ص ١١٨٣ - ١١٨٨، ومفتاح السعادة - الكشافات ص ٤١، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة - فهرس أسماء الكتب ص ٩٦، وطبقات الشافعية الكبرى - الفهارس العامة ص ٥١٨.

(٤) من أشهر من عرف بذلك في ديارنا المصرية الشيخ محمود أبو العيون، السكرتير العام للأزهر الشريف، وكان من فضلاء العصر، وله مواقف في محاربة الفسوق والبغاء، توفي سنة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م.

(٥) سورة الحجر ٤٥، وبقية المواضع في الشعراء ٥٧، ١٣٤، ١٤٧، ويس ٣٤، والذاريات ١٥، والقمر ١٢، والمرسلات ٤١، ورحم الله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي واضع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فلولاه لكنا في أمر مريع، فقد قل الحفاظ، مع كثرة التشابه في القرآن الكريم.

أما العين الباصرة فلم تُجمع في القرآن على «عيون» ، وإنما جمعت على «أعين» ليس غير ، في قوله تعالى : (فلما ألقوا سحرروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (١)) وفي واحد وعشرين موضعاً بعد ذلك الموضع : منها سبعة مواضع غير مضافة إلى الضمير (٢) ، وموضعان بضمير جمع المخاطبين (أعينكم) (٣) ، وأربعة مواضع بضمير العظمة (أعيننا) (٤) ، وسبعة مواضع بضمير الغائبين (أعينهم) (٥) ، وموضع واحد بضمير الغائبات (أعينهن) (٦) .

قلت : ولم أجد - فيما قع لى من كتب الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم -

(١) سورة الأعراف ١١٦

(٢) سورة الأعراف ١٧٩ ، ١٩٥ ، والأنبياء ٦١ ، والفرقان ٧٤ ، والسجدة ١٧ ، وغافر ١٩ ، والزخرف ٧١

(٣) سورة الأنفال ٤٤ ، وهود ٣١

(٤) سورة هود ٣٧ ، والمؤمنون ٢٧ ، والطور ٤٨ ، والقمر ١٤

(٥) سورة المائدة ٨٣ ، والأنفال ٤٤ ، والتوبة ٩٢ ، والكهف ١٠١ ، والأحزاب ١٩ ، ويس ٦٦ ، والقمر ٣٧

(٦) سورة الأحزاب ٥١

(٧) ليس هذا من باب الإحصاء أو شبه الإحصاء ، ولكنه من خلال النظر فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ٤/٤٥٥ ، ٤٥٦ ، وهذا المعجم على ما بذل فيه من جهد عظيم مشكور لا يمثل ألفاظ الحديث كله ، لأنه قائم على ألفاظ الكتب السنة مع الموطأ ومسنند أحمد وسنن الدارمى ، وليست هذه هى دواوين السنة فقط ، كما هو معلوم .

من نبّه على هذه التفرقة بين الأعين والعيون» فى الكتاب الحكيم ، ولعلها وقعت لغيرى من أهل العلم فينبهنى عليها مشكورا مأجورا إن شاء الله .

أما الحديث الشريف فقد جُمعت فيه العين الباصرة على «أعين وعيون» وإن كان جاء فيه الجمع على «أعين» أكثر (٧) .

على أنى قد رأيت الجمعين فى روايتين لحديث واحد ، هو حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه الذى رواه البخارى وأبو داود وابن ماجه وأحمد ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تقتاتلوا الترك ، صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذئف الأنوف ، كأن وجوههم

المَجَانُّ المَطْرَقَةُ ، ولا تقوم الساعة حتى
تقاتلوا قوما تعالهم الشعر^(١) .

وجاء هذا الحديث مرة أخرى عند
أحمد ، برواية «صغار العيون» ^(٢).

وقد قلت قريبا : إن الناظر في كلام
العرب يرى غلبة للجمع «عيون» على
«أعين» وقد بنيت كلامي هذا على قراءاتي
ومطالعاتي في كتب العربية ، ولما كنت
أعلم يقينا أن قراءاتي مهما كثرت وامتد
زمانها لا تصلح أن تكون معياراً يحتكم
إليه ، ولا مقياسا يقاس به ، فقد لجأت
إلى ميزان يمكن أن يطمأن إليه ، وحكم

تَرْضَى حكومته ، وهو النظر في شعر
شاعرين كبيرين ، يأتي شعرهما في
مكان عالٍ من الاحتجاج النحوى
واللغوى، وهما الفرزدق وجريز ، وقد
قرأت شعرهما بيتا بيتا ، وخرجت بهذه
الإحصائية التي أرجو ألا يكون قد سقط
على منها شيء ^(٣) .

استعمل الفرزدق «العيون» إحدى
وعشرين مرة^(٤) ، على حين استعمل
«الأعين» سبع مرات^(٥) .

واستعمل جريز «العيون» إحدى
وعشرين مرة^(٦) ، وهو اتفاق عجيب ، فقد

(١) فتح الباري (باب قتال الترك . من كتاب الجهاد) ١٠٤/٦ ، و(باب علامات النبوة في الإسلام . من كتاب المناقب) ٦٠٤/٦ ، وسنن أبي داود (باب في قتال الترك . من كتاب الملاحم) ١١٢/٤ ، وسنن ابن ماجة (باب الترك . من كتاب الفتن) ص ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ومسند أحمد ٣١٩/٢ ، ٤٧٥ ، ٤٩٣ ، وانظره أيضا في حديث أبي سعيد الخدري ٣١/٣ ، وفي حديث أبي بريدة الأسلمي ٣٤٨/٥ . وقوله : «ذلف الأنوف» هو جمع أذلف ، كأحمر وحمر ، والأذلف - بالتحريك - قصر الأنف وانبطاحه . والمجان ، بفتح الجيم: جمع المجن ، بكسرهما ، وهو الترس . والمطرقه : التي ألبست العقب شيئا فوق شيء ، ومنه طارق النعل : أي صيرها طاقا فوق طاق . النهاية ٣٠٨/١ ، ١٦٥/٢ ، ١٢٢/٣ .
(٢) مسند أحمد ٥٣٠/٢ (مسند أبي هريرة) ، وأيضا ٤٥/٥ (حديث أبي بكرة نفيح بن الحارث) وص ٢٧١ (حديث امرأة ، وهي خالة عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي) ، وانظر الكامل للمبرد ص ٧٥٨ .

(٣) بل إنى رجعت إلى شعر الشاعرين في سائر المجموع التي تراها في هذا البحث .

(٤) ديوانه ، جمع وشرح عبد الله إسماعيل الصاوي - القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م = صفحات ٥ ، ١٩ (مرتين) ، ٧٤ ، ١٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥١٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٤١ ، ٥٦٦ ، ٦٧٢ ، ٦٩٧ ، ٨١٩ ، ٨٢١ .

(٥) ديوانه صفحات ٥٢ ، ٢٢٥ ، ٣٢٤ ، ٤٥٠ ، ٦٩٧ ، ٧٣١ ، ٧٣٤ .

(٦) ديوانه بشرح محمد بن حبيب ، وتحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م - صفحات ١٤٦ ، ١٦٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ ، ٣٤٨ (مرتين) ، ٣٩٣ ، ٤١٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٦٤٠ ، ٦٤٩ ، ٦٧٤ ، ٦٨٦ ، ٧٤٩ ، ٨٣٥ ، ٩٩١ ، ٩٩٦ ، ١٠٠٩ ، ١٠٣٧ .

جاء هذا فى شعر الفرزدق أيضا ، كما مرُّ بك قريبا . على حين استعمل «الأعين» تسع مرات (١) :

ومما يستطرف ذكره هنا أن عمارة ابن عقيل بن بلال بن جرير ، حين شرح بيتا لجدّه ، فيه ذكر «أعين» شرحها بالعيون ، فقال فى بيت جدّه ، على ما ذكر ابن حبيب :

يا أَعَيْنَ الهامِ إِنى قد وَسَمْتُكُمْ
فوق الأنوفِ علّوبا غير أغفالِ

قال ابن حبيب : زعم عمارة أنه ليس فى بنى قيس بن حنظلة أكحل ، إنما هم شُهْلُ العيون (٢) .

وهذا مما يُستأنس به على خفة «العيون» وإيثارها فى الاستعمال على الأعين (٣)

وبعد :

فهذه جملة من جموع التفسير ، اخترتها لتكون دليلا على سلطان العرف اللغوى على أقلام الكاتبين وألسن المتحدثين .

وقد أقمت هذا البحث على النصوص والشواهد ، وجمعت هذه النصوص وتلك الشواهد من كتب العربية المختلفة ، ثم دواوين الشعراء ، وكلام أهل العلم ، ولم أقف عند المعاجم وكتب النحو والصرف فقط ، فما تذكره المعاجم وكتب النحو والصرف إنما هو تأسيس وتوجيه ، بشواهد محدودة محصورة مكررة (٤) ، وعلى الباحث أن يمسك بهذا الخيط الذى مدّه له الأوائل ، ويذهب يلتمس شواهد ، وأمثله من كتب العربية المختلفة ، لأن العربية كتاب واحد ، ولقد كان من آفات بعض البحوث ، ومن جهات النقص فيها ، أنها تقف عند مراجع الفن الذى تدور

(١) ديوانه صفحات ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ٢١٢ ، ٢٦٥ ، ٥٣٨ ، ٦٠٣ ، ٦٥٥ ، ٨٠٠

(٢) ديوانه ص ٥٣٨

(٣) وهذا يذكرنا بشرح أبى على القالى للأيدى بالأيدى ، وهو مما يستأنس به على أن استعمال «الأيدى» جمعا لليد ، العضو ، ليس هو الأصل . وانظره فى موضعه السابق .

(٤) كشواهد العروض مثلا تراها هى : فى الكافى للتبريزى والعيون الغامزة للدمامينى وحاشية الدمنهورى ، وفيما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وابن رشيق فى العمدة ، ونشوان الحميرى فى الحور العين .

عليه البحوث وحده ، دون النظر في
الفنون الأخرى ، وقد كتبت في ذلك
كثيرا ، وضربت مثلا بعلم النحو ، وقلت
إن مسائل هذا العلم ليست توجد في
كتب النحو فقط ، ففي كتب التفسير
والقراءات نحو كثير ، وفي كتب الفقه
وأصوله نحو كثير ، بل إنك واجد في
بعض كتب السير والتاريخ والتراجم
والأدب والمعارف العامة ، والطرائف
والمحاضرات ، من مسائل النحو
وقضاياها ما لا تكاد تجد بعضه في كتب
النحو المتداولة (١) :

ومن أهم ما يوجه إليه هذا البحث :
الاتجاه إلى الحديث الشريف ،
واستخراج اللغة منه ، لأنه مصدر من
مصادر العربية الكبرى : تراكيب
ومفردات وجموعا (٢) ، وإذا كانوا قد
اختلفوا في الاستشهاد بالحديث على
قضايا النحو ، فإنهم لم يختلفوا في

الاستشهاد به على قضايا اللغة ، يقول
الأستاذ طه الراوى عن الاستشهاد
بالحديث : « فأصبح ربع اللغة به خصيبا ،
بقدر ما صار ربع النحو منه جديبا » (٣) .
وفي هذا البحث أيضا محاولة
للحصر والاستقصاء في دواوين بعض
الشعراء (٤) ، وفي رأي أن دواوين
الشعراء - وبخاصة شعراء الاستشهاد
- لازالت كنزا مخفيا ، حافلا بالظواهر
النحوية والصرفية واللغوية ، وبعض هذه
الظواهر شواهد محدودة جدا في كتب
النحو والصرف ، وبعضها لا شاهد عليه
ألبتة إلا ما جاء في شعر هؤلاء الشعراء ،
وعندى من ذلك أمثلة ذوات عدد ، لعل
أفرد لها بحثا .

ولم يكن عدلا أن نطلب ممن قعدوا
القواعد وأصلوا الأصول ، أن يجمعوا لنا
كل الشواهد والمثل على ما قعدوه
وأصلوه ، فذلك شئ فوق الطاقة ومن وراء

(١) انظر كتابي : الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم ص ٣٦

(٢) راجع الحديث عن «الشعر والأشعار» .

(٣) الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية . للدكتور محمد ضاري حمادي ص ٣٣٥ ، وانظر

مقدمتي لكتاب الشعر لأبي على الفارسي ص ٧٠ - ٧٢

(٤) راجع «العيون والأعين»

القدرة ، وإنما هو أمر موكل إلينا وملقى على عواتقنا : أن نرفع البناء ونكمل الطريق ، بأن نكثر النظر ، ونديم المفاتشة لهذا الموروث الضخم ، فنجمع الشبيه إلى الشبيه ، ونَقْرِنَ النظير بالنظير، ثم نُبرز ما أهمل أو ما تجاوزته العين ، وبذلك يظل بحر المعرفة زخارا فياضا ، كالبحر الذى يمدده من بعده سبعة أبحر ، وقد عول هذا البحث أيضا، فيما جمعه من شواهد على شعر العصريين ، مثل أحمد شوقي ، وكلام أهل العلم من المتقدمين ، كالشافعى - ولغته حجة - والجاحظ وابن جنى والمرزوقى ، وأبى بكر الباقلانى وأبى الوليد الوقشى ، ومن المتأخرين مثل تاج الدين السبكي ، والحافظ السيوطى ، والصالحى الشامى، ومن العصريين مثل أبى فهر محمود محمد شاكر ، فكلام هؤلاء الناس ، على اختلاف أزمانهم وأجيالهم ، ينبغى أن يقوم مقام الشاهد والمثال ، لأنه نازعٌ بالثقة فى أصحابه ،

إذ كانوا أهل عربية وفصاحة ، وماكتب أحدهم شيئا إلا وقد قرأ عليه مالا يحصى من المعارف والعلوم ، وقدروى عن إمام الحرمين الجوينى أنه قال : «ما تكلمت فى علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضى أبى بكر وحده اثنى عشر ألف ورقة (١) » فهذا أثر القاضى أبى بكر وحده فى محفوظ إمام الحرمين، فكيف يكون أثر العلماء الآخرين ؟

وهذا مما يفسر كلام الزمخشري فى تجويزه الاستشهاد بشعر أبى تمام - مع تأخره - قال : «وهو وإن كان مُحَدَّثاً لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك ، لوثوقهم بروايته وإتقانه» (٢) ،

وبذلك تتسع دائرة الاستشهاد والاحتجاج ، وهى من مقاصد مجمعا الموقر ، فى عمله الشامل : المعجم الكبير.

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٨٥/٥ ، وأبو بكر فى هذا النص هو محمد بن الطيب الباقلانى . وهو من كبار المتكلمين الأشاعرة ، وصاحب «إعجاز القرآن» توفى سنة ٤٠٣ ، وقد نقلت من كلامه شيئا فى «الأسنة والأسن» .

(٢) الكشف ١/ ٢٢٠ ، فى تفسير قوله تعالى : (- وإذا أظلم عليهم قاموا) - سورة البقرة ٢٠

ويؤكد هذا البحث أن الاستعمال غير القاعدة ، فإذا كانت القاعدة فى جموع التكسير تعمم ، فإن الاستعمال يخصص، وإذا كانت القاعدة تطلق فإن الاستعمال يقيد تبعاً لتوجه الدلالة ومقاصدها .

ومن نتائج هذا البحث أيضاً تأكيد ظاهرة الاستغناء فى الأبنية ، أو تبادل الوظائف ، وهو باب كان يعتاده ابن جنى كثيراً فى «الخصائص» ، فجمع القلة يقوم مقام جمع الكثرة ، والعكس .

ويكشف البحث عن بعض خصائص الاستعمال القرآنى ، فى إثارة بعض الجموع لدلالة معينة ، وقصر بعضها على دلالة أخرى ، وفى عدم استعماله لجموع بعينها ، وهذه إضافة جديدة ، إن شاء الله ، لعلم الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم ، ويلفت البحث النظر إلى ظاهرة خطيرة ، وهى ظاهرة التحريف الناتجة عن هجر بعض الجموع ، نتيجة لغلبة العرف فى الاستعمال .

وقد صحح البحث خطأ شائعاً فى عصرنا هذا ، وهو جمع «فضل» على

«أفضال» وأثبت أن هذه البنية يجب أن تكون بكسر الهمزة «إفضال» على المصدرية ، وأن جمع «فضل» هو «فضول» لا غير .

ويدعو البحث - عند تأليف المعاجم اللغوية الحديثة - إلى تخصيص الدلالة ، بالنص على أن هذا الجمع يغلب استعماله فى معنى كذا ، وذلك الجمع يغلب فى معنى كذا ، وستكون أمثال هذه البحوث رافداً من روافد «المعجم الكبير» الذى يضطلع به مجمعنا الموقر ، فى تتبع المستعمل والمهمل من الجموع ، وكذلك ما يستعمل منها بقلة ، وما يستعمل بكثرة ، وما يخصص منها لدلالة بعينها ، وما يقصر على دلالة أخرى ، وأهم ما يرجوه البحث أن يكون قد وجه النظر إلى التماس الظواهر اللغوية من كتب العربية على اختلاف فروعها ، فإن العربية كتاب واحد ، مع أمنية صادقة أن يكون هذا البحث مغنياً ببحوث أخرى فى هذا المجال أغزر مادة وأكثر جمعا .

د . محمود محمد الطناحى

الخير بالمجمع

قائمة المراجع

- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات
الأربعة عشر . الدمياطى . تحقيق
الدكتور شعبان محمد إسماعيل . عالم
الكتب - بيروت ، ومكتبة الكليات
الأزهرية . القاهرة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م
- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة
ومطبعة المشهد الحسينى . القاهرة
١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م
- أدب الكاتب . لابن قتيبة . تحقيق
الدكتور محمد أحمد الدالى . مؤسسة
الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م
- ارتشاف الضرب من لسان العرب
لأبى حيان النحوى . تحقيق الدكتور
مصطفى أحمد النماس . القاهرة
١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م
- أساس البلاغة . للزمخشري . دار
الكتب المصرية ١٣٤١هـ
- الإصابة فى تمييز الصحابة . لابن
حجر العسقلانى . تحقيق على محمد
البجاوى . نهضة مصر ١٣٩٢هـ =
- ١٩٧٢م
إصلاح المنطق . لابن السكيت .
تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد
السلام محمد هارون دار المعارف بمصر
١٩٧٠م
- الأصول فى النحو . لابن السراج .
تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى .
مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٠٥هـ =
١٩٨٥م
- إعجاز القرآن . لأبى بكر الباقلانى .
تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف
بمصر ١٩٦٣م
- إعراب القرآن للنحاس . تحقيق
الدكتور زهير غازى زاهد . وزارة
الأوقاف العراقية بغداد ١٣٩٧هـ =
١٩٧٧م
- الأغاني . لأبى الفرج الأصبهاني .
دار الكتب المصرية ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م ،
والهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة
١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م
- الأفعال . لابن القطاع . عالم الكتب.

بيروت . مصورة عن طبعة دائرة المعارف
العثمانية - حيدر آباد الهند ١٣٦١هـ

الأفعال لابن القوطية . تحقيق على
فودة . مكتبة الخانجي . القاهرة الطبعة
الثانية ١٩٩٣م

الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع .
للشربيني الخطيب . مطبعة عيسى البابى
الطيبى القاهرة ١٣٤٤هـ

إكمال الإعلام بتلخيص الكلام . لابن
مالك . تحقيق الدكتور سعد بن حمدان
الغامدى . مركز البحث العلمى وإحياء
التراث الإسلامى . جامعة أم القرى .
مكة المكرمة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م

الألفاظ لابن السكيت = تهذيب
الألفاظ

أمالى ابن الشجرى . تحقيق محمود
محمد الطناحى . مكتبة الخانجي .
القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

أمالى القالى . دار الكتب المصرية
١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م

إنباه الرواه على أنباه النحاه .
للقفطى . تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم . دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ

إيضاح الوقف والابتداء لأبى بكر بن
الأنبارى . تحقيق الدكتور محيى الدين
عبد الرحمن رمضان . مطبوعات مجمع
اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ = ١٩٧١م

البحر المحيط . لأبى حيان النحوى .
مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨هـ

البداية والنهاية . لابن كثير . دار
الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الرابعة
١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

بديع القرآن . لابن أبى الإصبع
المصرى . تحقيق الدكتور حفنى شرف .
نهضة مصر ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م

برنامج الوادى آشى . تحقيق محمد
محفوظ . دار الغرب الإسلامى . بيروت
١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م

البرهان فى علوم القرآن . للزركشى .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
مطبعة عيسى البابى الحلبي . القاهرة
١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م

بصائر ذوى التمييز فى لطائف
الكتاب العزيز . للفيروز ابادى . تحقيق

الشيخ محمد على النجار ، وعبد العليم
الطحاوى . المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية . القاهرة ١٣٨٣هـ

البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث .
لأبى البركات الأنبارى . تحقيق الدكتور
رمضان عبد التواب . دار الكتب المصرية
١٩٧٠م

بهجة المجالس وأنس المجالس . لابن
عبد البر . تحقيق الدكتور محمد مرسى
الخولى . الدار المصرية للتأليف والترجمة
القاهرة ١٩٦٢م

بيان المختصر - شرح مختصر ابن
الحاجب . لشمس الدين الأصفهاني .
تحقيق الدكتور محمد مظهر بقا . مركز
البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى .
جامعة أم القرى . مكة المكرمة ١٤٠٦هـ
= ١٩٨٦م

البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق
عبد السلام محمد هارون . مكتبة
الخانجى . القاهرة ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م

تاج العروس من جواهر القاموس .
للمرتضى الزبيدى . طبعة القاهرة

١٣٠٦هـ ، وطبعة الكويت ١٣٨٥هـ =
١٩٦٥م

تاريخ بغداد . للخطيب البغدادي .
مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ

تاريخ الطبرى . تحقيق محمد أبو
الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر
١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م

التبصرة والتذكرة . للصيمرى .
تحقيق الدكتور فتحى أحمد مصطفى
على الدين . مركز البحث العلمى وإحياء
التراث الإسلامى . جامعة أم القرى .
مكة المكرمة ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

تحرير التحبير . لابن أبى الإصبع
المصرى . تحقيق الدكتور حفى شرف .
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
القاهرة ١٣٨٣هـ

تذكرة النحاة . لأبى حيان النحوى .
تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن .
مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٠٦هـ
١٩٨٦م

التعريفات . للسيد الشريف

الجرجاني. دار الكتب العلمية . بيروت
١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

تفسير الألوسي = روح المعاني

تفسير الطبري . تحقيق محمود
محمد شاكر . دار المعارف بمصر
١٣٧٤ هـ

تفسير القرطبي . دار الكتب
المصرية ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م

تفسير غريب القرآن . لابن قتيبة .
تحقيق السيد أحمد صقر . مطبعة عيسى
البابى الحلبي ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م

تفسير ابن كثير . تحقيق الدكاترة
محمد البنا ، ومحمد عاشور ، وعبد
العزیز غنيم . دار الشعب . القاهرة
١٣٩٠ هـ = ١٩٧١ م

التكملة والذيل والصلة لما فات
صاحب القاموس من اللغة . للمرتضى
الزبيدي . تحقيق مصطفى حجازي .
مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة
١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

التكملة . لأبي علي الفارسي - وهي
الجزء الثاني من كتابه الإيضاح - تحقيق

الدكتور حسن شاذلي فرهود . مطبوعات
جامعة الملك سعود - الرياض ١٤٠١ هـ
= ١٩٨١ م

التمثيل والمجازرة . للثعالبي .
تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو .
مطبعة عيسى البابى الحلبي . القاهرة
١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م

تنبيه الألباب على فضائل الإعراب .
للسنتري . تحقيق الدكتور معيض بن
مسعود العوفي . مطبعة المدني . القاهرة
١٤١٠ هـ = ١٩٨٩ م

التنبيهات على أغاليط الرواة لعلي بن
حمزة البصري - نشر مع كتاب المنقوص
والممدود للفراء . تحقيق عبد العزيز
الميمنى الراجكوتى . دار المعارف بمصر
١٣٨٧ م

تهذيب الأسماء واللغات للنوى . دار
الطباعة المنيرية . القاهرة ١٣٤٤ هـ

تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت
والمهذب أبو زكريا التبريزي . تحقيق
الدكتور فخر الدين قباوة . دار الآفاق
الجديدة - بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

تهذيب الألفاظ لابن السكيت .
والمهذب أبو زكريا التبرنزي . نشره
لويس شيخو بيروت ١٨٩٥م

تهذيب اللغة . للأزهري . المؤسسة
المصرية العامة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م

ثمرات الأوراق . لابن حجة الحموي .
صححه محمد أبو الفضل إبراهيم .
مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧١م

جمال القراء وكمال الإقراء . لعلم
الدين السخاوي . تحقيق الدكتور على
حسين البواب . مكتبة التراث - مكة
المكرمة . مطبعة المدني . القاهرة
١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م

جمهرة اللغة . لابن دريد . تحقيق
الدكتور رمزي منير بعلبكي . دار العلم
للملايين . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٧م
الجيم . لأبي عمرو الشيباني . تحقيق
إبراهيم الأبياري وعبد العليم الطحاوي ،
وعبد الكريم العزباوي . مطبوعات مجمع
اللغة العربية . القاهرة ١٣٩٤هـ =
١٩٧٤م

حاشية الصبان على الأشموني -
نشرت مع شرح الأشموني على ألفية ابن
مالك . مطبعة عيسى البابي الحلبي .
القاهرة . بدون تاريخ

الحديث النبوي الشريف وأثره في
الدراسات اللغوية والنحوية . للدكتور
حمد ضاري حمادي . اللجنة الوطنية
للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر
الهجري . بغداد ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

حلية الفقهاء لابن فارس . تحقيق
الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي .
الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت الطبعة
الأولى ١٤٠٣هـ = ١٤٠٨م

الحماسة البصرية . لصدر الدين
البصري . تحقيق الدكتور عادل سليمان
جمال . المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية . القاهرة ١٣٩٨هـ = ١٤٠٨هـ
الحيوان . للجاحظ . تحقيق عبد
السلام محمد هارون . مطبعة مصطفى
البابى الحلبي . القاهرة ١٣٨٥هـ =
١٩٦٥م

الخرشي^(١) على مختصر خليل - فى
فقه المالكية - دار صادر - بيروت ،
مصورة عن طبعة بولاق بمصر ١٣١٨هـ .
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب .
لعبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق
عبد السلام محمد هارون . مكتبة
الخانجي بمصر ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م
الخصائص . لابن جنى . تحقيق
الشيخ محمد على النجار . دار الكتب
المصرية ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م
خلق الإنسان . لأبى محمد الحسن بن
أحمد بن عبد الرحمن (قبل سنة ٦٠٠ هـ)
تحقيق الدكتور أحمد خان ، ومراجعة
مصطفى حجازي . منشورات معهد
المخطوطات بالكويت ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م
الدارس فى تاريخ المدارس . النعمي .
تحقيق جعفر الحسنى . دمشق ١٣٧٠ هـ
الدر المنتور فى التفسير بالمأثور .
للسيوطي . دار المعرفة . بيروت .
مصورة عن طبعة الميمنية بمصر ١٣١٤ هـ .

الدر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة
لابن حجر العسقلاني . تحقيق الشيخ
محمد سيد جاد الحق . دار الكتب
الحديثة . القاهرة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م
ديوان أحمد شوقي = الشوقيات
ديوان الأدب . لأبى إبراهيم الفارابي
تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر .
مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة
١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م
ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس
شرح الدكتور محمد محمد حسين .
مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٥٠ م
وتحقيق رودلف جاير - فينا ١٩٢٧ م ،
باسم : الصبح المنير فى شعر أبى بصير
ديوان الإمام الشافعى . جمع محمد
عفيف الزعبي . مؤسسة الزعبي ، ودار
الجيل . بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ
= ١٩٧٤ م
ديوان أوس بن حجر . تحقيق الدكتور
محمد يوسف نجم . دار صادر . بيروت
١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م

(١) هكذا اشتهر ، وهكذا جاء على غلاف الكتاب . لكن الزبيدي يذكر أنه «الخراشي» نسبة إلى «أبو خراش» قرية
بالبحيرة ، من البلاد المصرية . تاج العروس (خرش) ١٨٠/١٧

ديوان البحترى . تحقيق حسن كامل
الصيرفى . دار المعارف بمصر . الطبعة
الثانية ١٩٧٢م

ديوان بشار بن برد . جمع وتحقيق
السيد محمد بدر الدين العلوى . دار
الثقافة . بيروت ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م

ديوان بشر بن أبى خازم . تحقيق
الدكتور عزة حسن . مطبوعات وزارة
الثقافة والإرشاد . دمشق ١٣٧٩ هـ =
١٩٦٣م

ديوان أبى تمام . بشرح التبريزى .
تحقيق الدكتور محمد عبده عزام . دار
المعارف . بمصر ١٩٥٧م

ديوان جرير . بشرح ابن حبيب .
تحقيق الدكتور نعمان طه . دار المعارف
بمصر ١٩٦٩م

ديوان حسان بن ثابت . تحقيق
الدكتور وليد عرفات . سلسلة جب
التذكارية . بيروت ١٩٧١م

ديوان الحطيئة شرح ابن السكيت .
تحقيق الدكتور نعمان طه . مكتبة
الخانجى . القاهرة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م

ديوان أبى حيان النحوى . تحقيق
الدكتور أحمد مطلوب . والدكتورة خديجة
الحدينى . مطبعة العانى - بغداد
١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م

ديوان ذى الرمة . شرح أبى نصر
الباهلى . تحقيق الدكتور عبد القدوس
أبو صالح . مطبوعات مجمع اللغة
العربية . دمشق ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م

ديوان ابن الرومى . تحقيق الدكتور
حسين نصار . دار الكتب المصرية
١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م

ديوان الشريف الرضى . دار صادر .
بيروت ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م

ديوان العجاج . بشرح الأصمعى .
تحقيق الدكتور عزة حسن . بيروت
١٩٧١م

ديوان الفرزدق . بشرح عبد الله
إسماعيل الصاوى . القاهرة ١٣٥٤هـ =
١٩٣٦م

ديوان ابن قلاقس . تحقيق الدكتورة
سهام الفريح . مكتبة العلا . الكويت
١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

ديوان كثير . تحقيق الدكتور إحسان
عباس . دار الثقافة . بيروت ١٣٩١هـ =
١٩٧١م

ديوان ليبيد . تحقيق الدكتور إحسان
عباس . وزارة الإرشاد والأنباء . الكويت
١٩٦٢م

ديوان المتنبي بالشرح المنسوب خطأ
إلى العكبرى . تصحيح مصطفى السقا ،
وإبراهيم الأبياري . وعبد الحفيظ شلبي .
مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة
١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م

ديوان المعاني . لأبي هلال العسكري .
نشره حسام الدين القدسي . القاهرة
١٣٥٢هـ

ديوان النابغة الجعدي = شعر النابغة
الجعدي .

ديوان أبي النجم العجلي . صنعة علاء
الدين أغا . النادي الأدبي بالرياض
١٤٠١هـ = ١٩٨١م

الرسالة للإمام الشافعي . تحقيق
وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة
١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م

رسالة في نسبة الجمع لابن كمال
باشا . تحقيق الدكتور محمود فجال .
مجلة عالم الكتب . المجلد ١٣ - العدد ٦
الرياض ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

روح المعاني . للألوسي . دار إحياء
التراث العربي . بيروت ١٤٠٥هـ =
١٩٨٥م مصورة عن طبعة إدارة الطباعة
المنيرية بمصر

الروض الأنف للسهيلي . مطبعة
الجمالية بمصر ١٣٣٢هـ

الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي
بكر بن الأنباري . تحقيق الدكتور حاتم
صالح الضامن . وزارة الثقافة والإعلام .
بغداد ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير
البعاد . للصالحى الشامى . تحقيق جمع
من العلماء . المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية . القاهرة ١٣٩٢هـ =
١٩٧٢م

سمط اللآلى^(١) لأبي عبيد البكري .

(١) هذه تسمية العلامة الميمنى . أما كتاب البكرى فاسمه : اللآلى فى شرح الأمالى : أمالى أبى على القالى .

تحقيق عبد العزيز الميمنى الراجكوتى .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م

سنن أبى داود . تحقيق الشيخ محمد
محيى الدين عبد الحميد . مطبعة
السعادة بمصر ١٣٦٩هـ

سنن ابن ماجه . تحقيق محمد فؤاد
عبد الباقي . مطبعة عيسى البابى الحلبي
القاهرة ١٣٧٣هـ

سنن النسائى . مطبعة مصطفى
البابى الحلبي . القاهرة ١٣٨٣هـ =
١٩٦٤م

سير أعلام النبلاء . للذهبي . تحقيق
جمع من العلماء ، وإشراف الشيخ شعيب
الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت
١٤٠١هـ - ١٩٨١هـ

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب
لابن العماد الحنبلى . نشره حسام الدين
القدسى . القاهرة ١٣٥٠هـ

شرح أبيات كتاب سيبويه . لابن
السيرافى . تحقيق الدكتور محمد على
سلطانى . مطبوعات مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م

شرح أبيات مغنى اللبيب . لعبد القادر
ابن عمر البغدادي . تحقيق عبد العزيز
رباح . وأحمد يوسف الدقاق . دار
المأمون للتراث . دمشق ١٣٩٣هـ =
١٩٧٣م

شرح الحماسة . للتبريزي . تحقيق
الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .
مطبعة حجازى . القاهرة ١٣٥٨هـ

شرح الحماسة للمرزوفى . تحقيق
أحمد أمين ، وعبد السلام محمد هارون .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ١٣٧١هـ = ١٩٥١م

شرح الشافية - شافية ابن الحاجب -
للرضى الإستراباذى . تحقيق المشايخ
محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ،
ومحمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة
حجازى . القاهرة ١٣٥٦هـ

شرح فتح القدير على الهداية -
للمرغينانى - لابن الهمام الحنفى . دار
الفكر . بيروت - مصورة عن طبعة
مصرية أهمل ذكرها .

شرح القصائد السبع الطوال لأبى
بكر بن الأنبارى . تحقيق عبد السلام

محمد هارون دار المعارف بمصر

١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م

شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة
ومحاسن البديع . لصفى الدين الحلّى .
تحقيق الدكتور نسيب نشاوى . مطبوعات
مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣هـ =
١٩٨٣م

شرح الكوكب المنير ، فى أصول الفقه
لابن النجار الفتوحى الحنبلى . تحقيق
الدكتور محمد الزحيلي ، والدكتور نزيه
حماد . مركز البحث العلمى وإحياء
التراث الإسلامى - جامعة الملك عبد
العزیز - مكة المكرمة ١٤٠٠هـ =
١٩٨٠م

شرح الزوميات لأبى العلاء المعرى .
تحقيق سيدة حامد ومنير المدنى وزينب
القوصى ووفاء الأعصر . إشراف
ومراجعة الدكتور حسين نصار . الهيئة
المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م

شرح مشكلات ديوان أبى تمام .
للمرزوقى . تحقيق الدكتور عبد الله
سليمان الجربوع .

مكتبة التراث بمكة المكرمة . مطبعة

المدنى . القاهرة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م

شرح المفصل . لابن يعيش . دار
الطباعة المنيرية بمصر ١٩٢٨م
شرح المؤدى على ألفية ابن مالك .
تحقيق الدكتورة فاطمة الراجحي .
مطبوعات جامعة الكويت ١٩٩٣م

شرح النووى على صحيح مسلم .
المطبعة المصرية ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م
شروح التلخيص فى البلاغة .
للقرزوينى ، وسعد الدين التفتازانى ، وابن
يعقوب المغربى ، وبهاء الدين السبكى ،
والدسوقي . مطبعة عيسى البابى الحلبي
القاهرة ١٩٣٧م

شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى
مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤هـ =
١٩٤٥م

شعر مروان بن أبى حفصة . تحقيق
الدكتور حسين عطوان . دار المعارف
بمصر ١٩٧٣م

شعر النابغة الجعدى . تحقيق عبد

العزیز ریاح . المکتب الإسلامی بدمشق
١٣٨٤ھ = ١٩٦٤م

الشعر لأبی علی الفارسی = کتاب
الشعر .

الشعر والشعراء . لابن قتیبہ . تحقیق
الشیخ أحمد محمد شاکر . دار المعارف
بمصر ١٩٦٦م

شواذ القراءات = مختصر فی شواذ
القراءات .

الشوقيات - دیوان أحمد شوقی -
دار الفكر . بیروت - مصورة عن الطبعة
المصرية .

الصاحبی لابن فارس . تحقیق السید
أحمد صقر . مطبعة عیسی البابى
الحلبی . القاهرة ١٣٩٧ھ = ١٩٧٧م

الصبح المنیر = دیوان الأعشى .

صحیح البخاری . دار الشعب بمصر
١٣٧٨ھ ، مصورة عن طبعة بولاق .

صحیح مسلم . تحقیق محمد فؤاد
عبد الباقي . مطبعة عیسی البابى الحلبي
القاهرة ١٣٧٤ھ

الصناعتین لأبی هلال العسکری
تحقیق علی محمد البجاوی ، ومحمد أبو
الفضل إبراهیم . مطبعة عیسی البابى
الحلبی . القاهرة ١٣٧١ھ = ١٩٥٢م

طبقات الشافعية الكبرى . تحقیق
الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ،
وبحمود محمد الطناحی . الطبعة الثانية .
دار هجر . القاهرة ١٤١٣ھ = ١٩٩٢م
طبقات فحول الشعراء لابن سلام .
قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد
شاکر . مطبعة المدنی القاهرة ١٣٩٤ھ
= ١٩٧٤م

طبقات القراء - المسمى غاية النهاية -
لابن الجزری . نشره براجستراسر .
مطبعة السعادة بمصر ١٣٥٢ھ

الطبقات الكبرى لابن سعد . دار
صادر . بیروت ١٣٨٨ھ = ١٩٦٨م

طرر الوقشي والبطلیوسی علی کامل
المبرد . رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية
اللغة العربية - جامعة أم القرى . مكة
المكرمة ١٤٠٧ھ . من إعداد الدكتور
حمد عبد الله أحمد الزائدي

عارضة الأحوذى بشرح صحيح
الترمذى لأبى بكر بن العربى . دار الكتب
العلمية بيروت . بدون تاريخ . مصورة
عن طبعة المطبعة المصرية ١٣٥٠هـ

العقد الفريد لابن عبد ربه . تحقيق
أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم
الأبيارى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر . القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م

العين . للخليل بن أحمد . تحقيق
الدكتور مهدى المخزومى ، والدكتور
إبراهيم السامرائى . مؤسسة الأعلمى
للمطبوعات . بيروت ١٤٠٨هـ =
١٩٨٨م

فتاوى السبكى . نشرها حسام الدين
القدسى . القاهرة ١٣٥٦هـ

فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
لابن حجر العسقلانى . رقم كتبه وأبوابه
وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ،
وصححه وأخرجه محب الدين الخطيب .
المكتبة السلفية . القاهرة ١٣٧٩م

فرحة الأديب فى الرد على ابن

السيرافى فى شرح أبيات سيبويه .
للأسود الغندجاني تحقيق الدكتور محمد
على سلطانى . دمشق ١٤٠١هـ =
١٩٨١م

فوات الوفيات . لابن شاکر الكتبى .
تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد
الحميد . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١هـ
= ١٩٥١م

الفيصل فى ألوان الجموع . لعباس
أبو السعود . دار المعارف بمصر ١٩٧١م
القاموس المحيط للفيروز أبادى .
المطبعة المصرية ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م

الكامل - فى الأدب - للمبرد - تحقيق
الدكتور محمد أحمد الدالى . مؤسسة
الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ = ١٩٦٨م

الكتاب . لسيبويه . تحقيق عبد
السلام محمد هارون . الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م

كتاب الشعر . لأبى على الفارسى .
تحقيق محمود محمد الطناحى . مكتبة
الخانجى القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

الكشاف للزمخشري . مطبعة
مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٥هـ
= ١٩٦٦م

كشاف القناع عن متن الإقناع .
لنصير بن يونس البهوتي . عالم
الكتب - بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٣م

كشف الظنون عن أسامي الكتب
والفنون . للحاج خليفة . استانبول
١٩٤١م

الكليات . لأبي البقاء الكفوي . تحقيق
الدكتور عدنان درويش ، ومحمد
المصري . وزارة الثقافة والإرشاد .
دمشق ١٩٨١م

لسان العرب . لابن منظور . مطبعة
بولاق بمصر ١٣٠٠هـ

لطائف الإشارات لفنون القراءات
لشهاب الدين القسطلاني . تحقيق الشيخ
عامر السيد عثمان ، والدكتورة عبد
الصبور شاهين . المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية . القاهرة ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م

اللمع . لابن جنى . تحقيق الدكتور
حسين شرف . عالم الكتب . القاهرة
١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م

ما اتفق لفظه واختلف معناه . لابن
الشجري . تحقيق عطية رزق . جمعية
المستشرقين الألمانية - النشرات
الإسلامية . بيروت ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

المؤلف والمختلف . للآمدي . تحقيق
عبد الستار فراج . مطبعة عيسى البابي
الحلبي . القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م

المتنبى لمحمود محمد شاكر . المدنى
والخانجي . القاهرة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م

مثالب الوزيرين - صاحب بن عباد ،
وابن العميد - لأبي جيان التوحيدى .
تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلانى . دار
الفكر بدمشق ١٩٦١م

المثلث . لابن السيد البطليوسى .
تحقيق الدكتور صلاح مهدى الفرطوسى .
وزارة الثقافة والإعلام العراقية . بغداد
١٤٠١هـ = ١٩٨١م

مجالس ثعلب . تحقيق عبد السلام
محمد هارون . الطبعة الثانية . دار
المعارف بمصر ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م

مجالس العلماء . للزجاجى . تحقيق
عبد السلام محمد هارون . وزارة
الإرشاد والأنباء . الكويت ١٩٦٢م

مجمع الأمثال . للميداني . تحقيق
الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .
مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . لنور
الدين الهيتمي . مؤسسة المعارف -
بيروت ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م ، مصورة عن
نشرة حسام الدين القدسي بمصر
١٣٥٢هـ .

المجمل في اللغة لابن فارس . تحقيق
زهير عبد المحسن سلطان . مؤسسة
الرسالة . بيروت ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م
مجنون ليلي . لأحمد شوقي . المكتبة
التجارية بمصر . بدون تاريخ .

المحتسب في تبين وجوه شوان
القراءات لابن جنى . تحقيق الدكتور عبد
الحليم النجار ، والأستاذ على النجدى
ناصر ، والدكتور عبد الفتاح شلبى .
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
القاهرة ١٣٨٦هـ .

المحصول في علم أصول الفقه . لفخر
الدين الرازى . تحقيق الدكتور طه جابر
فياض العلوانى .

مطبوعات جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية . الرياض ١٣٩٩هـ =
١٩٧٩م

المحكم . لابن سيدة . تحقيق جمع من
العلماء . مطبعة مصطفى البابى الحلبي .
القاهرة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م

مختصر في شوان القراءات . لابن
خالويه . نشره براجستراسر . المطبعة
الرحمانية بمصر ١٩٣٤م

مختصر المذكر والمؤنث . للمفضل بن
سلمة . تحقيق الدكتور رمضان عبد
التواب . مجلة معهد المخطوطات .
القاهرة . مجلد ١٧ - ١٩٧١م

المخصص . لابن سيدة . تحقيق
محمد محمود التركزى الشنقيطى ،
ومعاونة عبد الغنى محمود . مطبعة بولاق
بمصر ١٣٢١هـ .

المذكر والمؤنث . لأبى بكر بن
الأنبارى . تحقيق الدكتور طارق الجناي .
وزارة الأوقاف العراقية . بغداد ١٩٧٨م
المذكر والمؤنث . لابن التستري .
تحقيق الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى .

مكتبة الخانجي . القاهرة ١٤٠٣هـ =
١٩٨٣م

المذكر والمؤنث لابن جنى . تحقيق
الدكتور طارق نجم عبد الله . دار البيان
العربي . جدة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

المذكر والمؤنث . للمبرد . تحقيق
الدكتور رمضان عبد التواب . والدكتور
صلاح الدين الهادي . دار الكتب
المصرية ١٩٧٠م

المزهر للسيوطي . تحقيق محمد أحمد
جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي ،
ومحمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة
عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٦١هـ

المسائل البصريات لأبي علي
الفارسي . تحقيق الدكتور محمد الشاطر
أحمد . مطبعة المدنى القاهرة ١٤٠٥هـ
= ١٩٨٥م

المستقصى فى أمثال العرب .
للزمخشري . حيدر آباد . الهند ١٩٦٢م
مسند أحمد بن حنبل . المطبعة
الميمية بمصر ١٣١٣هـ

المصباح المنير فى غريب الشرح

الكبير ، للرافعي . تأليف الفيومي
تصحیح الشيخ حمزة فتح الله . الطبعة
الثالثة . المطبعة الأميرية . بولاق بمصر
١٣٣هـ = ١٩١٢م

المصون فى الأدب . لأبي أحمد
العسكري . تحقيق عبد السلام محمد
هارون . وزارة الإرشاد والأنباء . الكويت
١٩٦٠م

معانى القرآن . للأخفش . تحقيق
الدكتورة هدى قراعة . مكتبة الخانجي .
القاهرة ١٤١١هـ = ١٩٩٠م

معانى القرآن . للفراء . تحقيق الشيخ
محمد علي النجار ، والدكتور عبد الفتاح
شلبى . دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ =
١٩٥٥م - والهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٢م

معانى القرآن وإعرابه . للزجاج .
تحقيق الدكتور عبد الجليل شلبى . عالم
الكتب . بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م

معاهد التنصيص على شواهد
التلخيص لعبد الرحيم العباسي . تحقيق
الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٧هـ =
١٩٤٧م

معجم الأدباء . لياقوت الحموى . دار
المأمون . القاهرة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م

معجم المطبوعات العربية والمعربة .
ليوسف إيلان سرקيس . مصر ١٣٤٦هـ
= ١٩٢٨م

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث
النبوى . لجماعة من المستشرقين .
بإشراف فنسك . ليدن ١٩٣٦م

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
لحمد فؤاد عبد الباقي . دار الكتب
المصرية ١٣٦٤هـ

مغازى الواقدى . تحقيق مارسدن
جونز . منشورات جامعة أكسفورد . دار
المعارف بمصر ١٩٦٦م

المغرب فى ترتيب العرب . للمطرزى .
حيدر آباد - الهند ١٣٢٨هـ

مفاتيح الغيب . للرازى . المطبعة
الخيرية بمصر ١٣٠٨هـ .

مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة
لطاش كبرى زادة . تحقيق كامل بكرى

وعبد الوهاب أبو النور . دار الكتب
الحديثة القاهرة ١٩٦٨م

مفتاح العلوم . للسكاكى . مطبعة
التقدم العلمية بمصر ١٣٤٨هـ

مفردات ألفاظ القرآن الكريم . للراغب
الأصبهاني . تحقيق صفوان عدنان
داوودى . دار القلم بدمشق ، والدار
الشامية . بيروت ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م

المفصليات . للمفضل الضبى . تحقيق
الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام
محمد هارون . دار المعارف بمصر
١٩٦٤م

مقاييس اللغة . لابن فارس . تحقيق
عبد السلام محمد هارون . مطبعة عيسى
البابى الطبى . القاهرة ١٣٦٦هـ

المقتضب . للمبرد . تحقيق الشيخ
محمد عبد الخالق عضيمة . المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة .
١٣٨٥هـ

المقتضب فى اسم المفعول من الثلاثى
المعتل العين . تحقيق الدكتور مازن
المبارك . دار ابن كثير . دمشق - بيروت
١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

المتع فى التصريف لابن عصفور .
تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة . دار
الآفاق الجديدة . بيروت الطبعة الثالثة
١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م

المنجد فى اللغة . لكراع . تحقيق
الدكتور أحمد مختار عمر ، والدكتور
ضاحى عبد الباقي . عالم الكتب .
القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٨م

منجد المقرئين لابن الجزرى . نشره
حسام الدين القدسى القاهرة ١٣٥٠هـ
المنصف شرح تصريف المازنى لابن
جنى . تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله
أمين . مطبعة مصطفى البابى الحلبي
القاهرة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م

المنصورى فى الطب لأبى بكر الرازى
تحقيق الدكتور حازم البكرى الصديقى
منشورات معهد المخطوطات . الكويت
١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م

الموازنة بين شعير أبى تمام
والبحترى . للآمدى الجزء الأول والثانى
بتحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف
بمصر ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م . والثالث

بتحقيق الدكتور عبد الله حمد محارب .
مكتبة الخانجى القاهرة ١٤١٠هـ =
١٩٩٠م

الموجز فى مراجع التراجم والبلدان
والمصنفات وتعريفات العلوم . لمحمود
محمد الطناحى . مكتبة الخانجى القاهرة
١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م

الموشح للمرزيانى . تحقيق على محمد
البجاوى . نهضة مصر ١٩٦٥م

الموشى أو الظرف والظرفاء لأبى
الطيب الوشاء . تحقيق كمال مصطفى
مكتبة الخانجى القاهرة ١٤١٣هـ =
١٩٩٣م

نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه
والنظائر لابن الجوزى . تحقيق محمد
عبد الكريم كاظم الراضى . مؤسسة
الرسالة بيروت . الطبعة الثانية .
١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . لأبى
البركات الأنبارى . تحقيق محمد أبو
الفضل إبراهيم . نهضة مصر ١٣٨٦هـ
= ١٩٦٧م

النشر فى القراءات العشر . لابن
الجزرى . تصحيح الشيخ محمد على
الضباع . المكتبة التجارية بمصر . بدون
تاريخ .

النهاية فى غريب الحديث والأثر . لمجد
الدين بن الأثير . تحقيق محمود محمد
الطناحى . مطبعة عيسى البابى الحلبي
القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م

نهاية القول المفيد فى علم التجويد
للشيخ محمد مكى نصر . مطبعة بولاق
بمصر ١٣٠٨هـ

النوادر . لأبى زيد الأنصارى تحقيق
الدكتور محمد عبد القادر أحمد دار
الشروق . بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م
همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع .
للسيوطى . تصحيح السيد محمد بدر
الدين النعسانى الحلبي . مطبعة السعادة
بمصر ١٣٢٧هـ

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر .
لأبى منصور الثعالبي . تحقيق الشيخ
محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة
السعادة بمصر ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م

نظرية الحقول الدلالية والمعاجم المعنوية عند العرب للدكتور محمود جاد الرب

الباحثين المحدثين والدارسين العرب من حيث توزيع اللغة على مجالات دلالية متعددة جاء متشابها ، وإن كان الخلاف بينهما يكمن فى طرق تناول داخل الحقول الدلالية ، وفى توزيع المفردات على الحقول المتنوعة .

وستتناول فيما يلى أهم الأسس التى قامت عليها نظرية الحقول الدلالية فى الدراسات اللغوية متبعين ذلك بما ورد عند العرب فى مجال المعاجم المعنوية .

ينبغى أولا أن نشير إلى أنه توجد مصطلحات عدة تستعمل فى هذا المجال، وأهمها :

١ - حقل الكلمة أو الحقل القاموسى

الكلمة lexical field ، ويقابلة

بالفرنسية Champ lexical ،

وبالألمانية Wortfeld .

نتناول فى هذا البحث أهم الأسس التى قامت عليها نظرية الحقول الدلالية فى الدراسات اللغوية الحديثة . ثم نقارن بينها وبين فكرة المعاجم المعنوية عند العرب محاولين بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين هذه وتلك ، هذا على الرغم من الاعتراف بأن الهدف عند الفريق الأول يختلف عنه عند الفريق الثانى ، كما أن الطرق التى اتبعها كل فريق منهما لتوضيح دلالات الألفاظ متباينة .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نرى وجود تشابه ما بين الدراسات الغربية الحديثة والبحوث العربية فى مجال المعاجم المعنوية ، حيث كانت هذه الدراسات وتلك البحوث تتناول مجالا مشتركا واحدا ومستوى لغويا متماثلا ، ونعنى به مجال الدلالة أو المعنى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تناول الألفاظ عند

٢ - المجال الدلالي أو الحقل الدلالي
Semantic field ، وبالفرنسية
Champ semantique ، وبالألمانية
Semantisches Feld وذلك إذا
كان المقصود به التعبير عن
الملاحم فى دراسة المعانى
القاموسية .

٣ - المجال اللغوى linguistic field ،
وبالفرنسية Champ syntactique
وبالألمانية Syntaktisches Feld ،
وهذا المصطلح بعيد عن مجال
البحث فى هذه النظرية .

٤ - الحقل التركيبى Syntactic field
وبالفرنسية Champ linguistique
وبالألمانية Sprachliches Feld ،
وقد يستعمل أحيانا للتعبير عن
المجال الدلالي التركيبى للكلمة ،
هذا ويميز بعض الباحثين بين
حقل الكلمة والحقل التركيبى .

بدايات النظرية :

إن بدايات هذه النظرية تعود إلى

عام ١٨٧٧ ، فقد أشار أومان إلى أن
"تجنر Tegner" استعمل مصطلح حقل
فى مقال له بعنوان «تقديم أفكار الحقل
اللغوى Die Idee des
Sprachlichen Feld " كما أشار "بالدنجر
Baldinger" إلى أن "أبل Abel" استعمل
عام ١٨٨٥ "مفهوم الحقل اللغوى" ، كما
يذكر أن "ماير Meyer" أول من عرض
أفكارا بشكل منظم ، وكان ذلك عام
١٩١٠ فى مقالته المسماه "نظم المعنى
Bedeutungssysteme" ، وقد حدد النظم
الدلالية على أنها ارتباط منتظم لعدد
محدود من التعبيرات من وجهة نظر
فردية .

وقد ميز "ماير" بين ثلاثة أنواع من
نظم المعنى : النظام الطبيعى ، النظام
الفنى (مثل الألقاب العسكرية ، والتي قدم
لها بدراسة خاصة عام ١٩١٠) ، النظام
شبه الفنى (مثل مصطلحات الصيادين
والحرفيين) .

إن هذا التمييز ظهر بشكل أو بآخر
فى بحوث أخرى ، عند فايسجوير

وكوسريو مثلاً ، كما يذكر "ماير" نفسه أن صيغة نظمه الدلالية كانت موجودة عند "أوستهوف Osthoff" في بحثه المسمى "طبيعة التعريف في اللغات الهند جرمانية Suppletivwesen der indogermanischen Sprachen الذي طبع عام ١٨٩٩ بمدينة "هايد لبرج" بألمانيا .

وقد لفت "كوسريو" الانتباه إلى رائد قديم من رواد التحليل الحقلى ، وهو "هايسى" Heyse الذي تناول حقل كلمة "Schall" بمعنى "صوت" فى عمله الذي نشره بعد وفاته شتاينتال "Steinthal" ، والذي جاء بعنوان "نظام علم اللغة" ، وقد طبع عام ١٨٥٦ ببرلين ، وإن كان "هايسى" لم يتحدث عن حقل الكلمة إلا أن تحليله كان ذا قيمة منهجية ، ويمكن أن يعد إسهاماً فى علم الدلالة البنىوى.

ويشير "أوتو Otto" إلى أن "أدولف شتور Adolf Stohr" فى كتابه "كتاب المنطق التعليمى فى الوصف النفسى (لايبتزج - فينا ١٩١٠) أول من قام بعمل علاقة بين الحقول الدلالية ومجموعات

الحقول ، كما يشير "شفارتز Schwarz" إلى الاستعمال اللغوى لمصطلح "حقل" عند "قرنر Werner" فى كتابه "أصول المجاز" الذى طبع بلايبتزج عام ١٩١٩ . (١)

ويرى "أولمان" أن رواد المدرسة الحاييدة (نظرية الحقل) تعود فى الألمانية إلى "هردر Herder" عام ١٧٧٢ ، وإلى "هومبلدت Humboldt" (١٧٦٧ - ١٨٣٥) الذى يعد الجد الروحى الأعلى لهذه النظرية ، ثم يشير إلى ما رده كثير من العلماء من أن معظم الأفكار التى طورها "تريير Trier" توجد بوضوح عند "أوستهوف" أحد علماء مدرسة النحاة الشبان .

أما شيوع المصطلح بوصفه مفهوماً لغوياً فإنه يعود فى البداية إلى "هوسرل Husserl" ، "وفرديناند دى سوسير" . (٢)

إسهامات ف. دى سوسير :

يرى ف . دى سوسير أن كل كلمة تحاط بشبكة من الخواطر والأفكار التى ترتبط من خلالها بالكلمات الأخرى ، إن

هذه التدايعات ترتبط بالمفهوم وبالصيغة ،
حيث تمتد إلى المعنى وإلى الشكل ، وقد
مثل لذلك بكلمة .

" تعليم enseignement " ، والتي
يتفرغ منها أربعة خطوط :

١ - الاتصال بالفعل شكليا ودلاليا
لأنه نفس الجذر .

٢ - الاتصال بكلمات التعليم
والتربية والثقافة من خلال
المشابهة في المعنى .

٣ - الارتباط بكلمات تنتهي باللاحقة
(-ment) حيث تشترك معها في
تلك اللاحقة التي تساعد في
تشكل تجريد الفعل .

٤ - الارتباط بالصفة "element"
بمعنى " رقيق - لطيف - حنون "
وبالظرف "justment" بمعنى "
بحق - بعدل " للتشابه في
النهاية .

هكذا يكون التشابه الذي يعتمد عليه
ف . دى سوسير في بيان العلاقة بين

المفردات إما في المعنى أو في الصيغة
وبذا تستطيع الكلمة - عنده - أن تثير أو
تستدعي كل مفرد يمكن أن يتوافق معها
في الشكل أو في المعنى إنها نقطة التقاء
عدد غير محدد من المصطلحات
المتناسقة .

إن فكرة ف . دى سوسير عن القيمة
اللغوية تتصل بنظرية الحقل الدلالي ،
فقيمة الكلمة عنصر واحد من عناصر
المعنى ، وتزداد قيمة بعض الكلمات من
خلال اتصالها بالأخرى ، كما أن قيمة
الكلمة تختلف في لغة ما عنها في لغة
أخرى ، فقيمة المضارع في الألمانية
ليست مثل قيمته في اللغات الأخرى التي
توجد بها بجانب المضارع صيغة أخرى
خاصة بالمستقبل ، كما أن قيمة الجمع
في الإنجليزية تختلف عن قيمته في
العربية مثلا ، حيث تشمل صيغة الجمع
في الإنجليزية قيمة المثنى التي توجد في
العربية . (٣) .

وقد تابع "بيللي" تلميذ ف . دى
سوسير هذه الاستدلالات ، وقدم مفهوما

مناسبا ، ونعنى به "حقل المشاركة أو الارتباط" ، وقد حصره فى المشاركات الدلالية ، مع التوسع فى التحليل ، يقول :
حقل المشاركة (الارتباط) هو الفناء الذي يشتمل على الرمز ، والذي تمتزج أطرافه فى مجاله ، ففى كلمة "ثور" يفكر الإنسان فى :

١ - بقرة - عجل - بقرة صغيرة -
قرون - يجتر - يعض .

٢ - يحرث - محراث - ناف
(الخشب التى تعلق على رقبة
الثور عند الحرث)

٣ - اللحم - المذبح - الجزار .

هذا بالإضافة إلى التفكير فى الفرنسية فى تصورات مثل : قوة - أناة - صبر - عمل - صبور - بطاء -
صعوبة - استكانة . (٤)

إپسن :

يشير " إپسن Ipsen" فى عام ١٩٢٤
إلى فكرة الحقل الدلالي قائلا :
"وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك كلمات

خاصة لاتتقف وحيدة فى اللغة ، ولكنها ترتبط بمجموعة دلالية ، ولايعنى ذلك أنها مجموعة اشتقاقية ... إن مثل هذه يرتبط محتواها الشعورى بمحتويات شعورية أخرى . إن هذا الارتباط ليس سرديا فى خيط من تداعى المعانى ، ولكنه يعنى أن المجموعة كلها تحدد مجالا معنويا تدرج فيه ، وكما فى الفسيفساء تتناسب الكلمة مع الأخرى ، فتوضح كل منهما الأخرى، وتتناسب المعالم بعضها مع البعض الآخر، وتشترك كلها فى وحدة شعورية (معنوية) فى نظام أعلى ، ولا تندمج فى تجريد آسن" .

ويظهر فى هذا النص أن الأساس فى فكرة الحقل كانت مقارنته بالفسيفساء ، وقد استعملت هذه الصورة عند "ترير" ولا يبعد "ترير" نفسه تأثر عمله فى نظريته الحقلية بأفكار "إپسن" يقول : "وما إذا كنت طورت نظرية الحقل بمساعدة ف . دى سوسير فقط ، أو ما إذا كانت السطور اثنا عشر القصيرة عند " إپسن" أثرت فى عملى فإنه لا

يمكننى القول أكثر من ذلك .. إننى أدين بالفضل فى هذا الفهم لفرد يناندى سوسير ولقايسجيرير" . (٥)

تريير :

نشر " جوست تريير " الجزء الأول من عمله الكبير "الثروة اللفظية للغة الألمانية فى دائرة العقل - تاريخ الحقل اللغوى من البدايات إلى بداية القرن الثالث عشر" فى هايدلبرج عام ١٩٣١ ، وقد تطور بحث الحقل منذ ذلك الحين فى اتجاهين مختلفين ، فمن جهة أنجز تلامذة "تريير" بحوثاً فردية فى موضوعات متشابهة فى عصور متنوعة من تاريخ اللغة الألمانية ، وقد امتدت مثل هذه البحوث إلى الإنجليزية والفرنسية ، ومن جهة أخرى اشتعلت مناقشة حيوية فى تعريف مفهوم "الحقل" .

وقد استخدم "تريير" مصطلح الحقل اللغوى Sprachliches Feld أو مصطلح " حقل الكلمة Wortfeld " . إن حقله يرمز إلى شئ بين الكلمة المفردة ومخزون الكلمة العام ، إنه الحقائق اللغوية التى

توجد بين الكلمات المفردة ومجموع الثروة اللفظية التى لها اشتراك مع الكلمة فى حالة سنكرونية بوصفها مجموع الجزء ، إن فكرة التبادل العضوى أو التفرع تعود مباشرة إلى "هومبلدت وف" . دى سوسير" .

وهكذا تتضح فكرة "تريير" أو زعمه فى أن الكلمات تغطى المجال الكلى للحقل ، كما أن الحقول تغطى المجال الكلى للثروة اللفظية ، وهذا يعنى أنها تغطى - دون فجوات - المجال المعكوس فى اللغة" . (٦) .

أما عند "إيسن" فإن المرحلة الأولى فى تكوين الحقل تنحصر فى مساواة صيغ الأعضاء ، ولكن "تريير" ينقد "إيسن" فى ذلك بقوله : إن المساواة فى الصيغة ، وكذلك المساواة فى النظام الشكلى ليس ما يحدث فى داخل الحقل بل إن المهم هو فى أى حقل يصبح ، إن تطبيق الاهتمام باللغة يوضح لنا أننا لا نراعى فى الكلمات المتشابهة دلالاتها الانتظام المادى أو الشكلى بمعنى المشابهة فى مستوى التعبير .

وقد كان فهم "إيسن" و "بورزج" و "Porzig" و "جولس Jolles" للحقل اللغوي بتضييق الحقل الدلالي الذي اقترحه "ترير"، وقد تعامل "إيسن" أساساً مع المادة اللغوية للغات الهند أوروبية التي تخلو من وجود السياق، ومن ثم بحث عن أسس لغوية لوجود الحقل، وقد وجده في التقارب الشكلي والوظيفي للعناصر في الحقل، وفي استخراج مجموعات الكلمات التي تتحد من خلال ملامح صرفية ودلالية.

إن حقول "بورزج" صلات دلالية تتكون من نمط (الفعل + الفاعل + المفعول) وليس من الضروري أن يوجد المفعول دائماً في الجملة، ويمكن التمثيل للصلة الدلالية المشار إليها بالأمثلة التالية: ينبع الكلب - تمسك اليد - ترى العين - تسمع الأذن - يلحق اللسان - يصلح الحصان - تقطع الشجرة.

وقد أشار "بلانكي" إلى وجوب التفريق بين نوعين من الوحدات القاموسية المفتوحة، وهي الوحدات التي

تزيد وتنقص في اللغة بمرور الزمن مثل: كتاب - شارع - يقرأ... إلخ، في مقابل الوحدات المغلقة، وهي التي لا تتغير خلال العصور المتتالية، وذلك مثل حروف الجر، وأسماء الاستفهام وحروفه، وأسماء الشرط وحروفه... إلخ، وهذان النوعان من الوحدات القاموسية المفتوحة وهما:

١ - الوحدات التي ينسجم بعضها مع البعض الآخر على أساس من ميل معين، وتشكل حقلاً خبيرياً، ففي المنهج التحويلي يسمح التركيب النحوي العميق لجملة ما بتحقيق إمكانيات نحوية متعددة، ولكن لا يمكن أن يقبلها المتكلم والمستمع، لأن الوحدات القاموسية المستعملة لا ينسجم بعضها مع البعض الآخر نحوياً، ومن هنا يستطيع الإنسان أن يتكهن قليلاً أو كثيراً بالافتراضات في الجملة، فإذا وجد الإنسان أداة التعريف

(أل) فى اللغة العربية مثلا فإنه يتوقع بعدها اسما ، وإذا وجد اسم الإشارة (هؤلاء) فإنه يتوقع بعده اسما جمعا مؤنثا أو مذكرا أو فعلا مسندا إلى ضمير جمع (واو الجماعة أو نون النسوة) ، ولكن على الرغم من ذلك فإن إمكانيات تتابع مثل هذه الكلمات محدود جدا على العكس من الصلات الدلالية بين كلمات النوع الثانى من الوحدات القاموسية المفتوحة .

٢ - الكلمات التى يتبع بعضها بعضا فى تمثيل الجملة على أساس من ملامحها الدلالية المشتركة فى القاموس وتشكل حقا للكلمة ، وذلك مثل : ينبج الكلب ، ترى العين ، تسمع الأذن ، ينهق الحمار ... إلخ .

وتوجد مثل هذه الارتباطات الدلالية بين الكلمات فى مجال أصوات الحيوانات والطيور (هديل الحمام -

صهيل الفرس ... إلخ) ، وفى أعضاء الجسم (يعض بالأسنان ، تسمع الأذن ، يذوق باللسان ، يلمس باليد أو بالأصبع ... إلخ) ولكن على الرغم من وجودها فى مجالات متعددة أخرى مثل : يكتب بالقلم ، يقطع بالسكين ، يضرب بالسيف ، يطعن بالرمح ... إلخ ، فإنها محدودة ، وإن كان قد اهتم بالبحث فيها بورزج ، ويرى بلانكى أن هذا المفهوم للحقل لا يتضمن ارتباطا مقنعا للوحدات القاموسية المقصود بالبحث . (٧)

هكذا يمكن القول إن حقول "برزج" ذات الصلات الدلالية المشار إليها لا تشتمل على كل الثروة اللفظية للغة ، فهناك كلمات لا يرتبط بعضها مع البعض الآخر دلاليا وهى الكلمات التى تستعمل مع كلمات أخرى فى سياقات معينة أو فى مواقف خاصة .

أما حقول "جولس" فإنها تتكون من صلة ثنائية من نمط : والد - ابن ، يمين - يسار ، نهار - ليل ، حياة - موت .

وقد انتقد "تريير" الحقل الدلالي ذات

الصلة الثنائية عند "جولس" ، حيث يرى أن هذا الحقل يندرج فى مجال أكبر ، فنمط (والد - ابن) يندرج فى حقل أكبر وهو حقل القرابة الذى يتكون من كلمات عدة ، كذلك الأمر بالنسبة لحقل (يمين ويسار) الذى يندرج تحت حقل الجهات . (٨)

وقد كان انشغال "ترير" بالثروة اللفظية للغة الألمانية وتتبع التغيرات التى تطرأ عليها بمرور الزمن سبباً فى اهتمامه بالحقل ، يقول "ترير" : "لقد ظهرت لى مسألة الحقل عند الاهتمام بالثروة اللفظية للغة الألمانية ، أى بفهم تغيرها التاريخى ، ذلك الاهتمام الذى شغلنى منذ عام ١٩٢٣ " هذا وقد اعترف "ترير" بأنه تأثر بفرد يناندى سوسير بصفة خاصة وبقايسجرير ، كما يتضح مدى تأثره العميق بأفكار "هو مبلدت" ، وبخاصة فى فكرته اللغوية ، وفى فكرته عن الحقل (٩) .

وقد عد "ترير" الثروة اللفظية للغة نظاماً مندمجاً من الوحدات القاموسية

المتشابهة دلالياً ، ويخضع هذا النظام للتغير المستمر ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف الوحدات القاموسية الموجودة ونشأة وحدات قاموسية جديدة ، بل إن الصلات المعنوية التى تقع بين وحدة قاموسية ووحدات قاموسية مجاورة تتغير دائماً بمرور الزمن ، ومع كل توسيع لمعنى وحدة قاموسية يحدث تضيق المعنى لوحدة قاموسية أخرى أو لكثير منها .

ويمكن العيب الكبير فى علم الدلالة التقليدى - كما يرى ترير - فى أنه يحاول تسجيل تاريخ التغيرات الدلالية للوحدات الفردية بدلا من بحث تغيرات التركيب الكلى للثروة اللفظية ، إن المنهج الذى طبقه "ترير" فى علم الدلالة الديكرونى هو مقارنته تركيب حقل الكلمة فى نقطة زمنية محددة بتركيب حقل الكلمة فى نقطة زمنية محددة أخرى ، ويمكن التمثيل لوجهة نظر "ترير" بالمثال الذى ساقه "ليونز" فى مجال علم الدلالة الدياكرونى بالوحدة القاموسية - الألمانية

"braun" (بنى) التى كانت تغطى فى الألمانية فى القرن الثامن عشر فى مجال الألوان منطقة أكبر مما عليه الحال فى الألمانية المعاصرة التى شاركتها فى مجالها كلمة "violett" (بنفسجى) التى جاعتها من اللغة الفرنسية .

وهكذا بدلا من أن نقول إن "braun" كان لها معنيان فى العصور المتقدمة (بنى وبنفسجى) ، ثم اقتسمت معها المعنى كلمة "بنفسجى" - كما مال إلى القول بذلك القاموسيون التقليديون أو علماء الدلالة القدماء - يرى "ترير" أن التركيب الداخلى للحقل الدلالى تغير بين هاتين الفترتين الزمنيتين ، إن كلمة "بنى" لها معنى واحد فى نظام لغوي واحد ، ولها معنيان مختلفان فى النظامين اللذين يتبعان عصرين مختلفين ، ومن ثم يثار سؤال هو : لماذا نقول إن "بنى" فى الفترة الزمنية الأولى هى نفسها "بنى" فى الفترة الزمنية الثانية ، إذا كانت تتبع نظما لغوية مختلفة ؟ (١٠)

ويمكننا الآن تلخيص فكرة "ترير"

عن نظرية الحقل تلك بأنه يرى الثروة اللفظية للغة فى إطار المنظور التزامنى السنكرونى على أنها كل يتفرع دلاليا ، وتنقسم فى الواقع إلى حقول للكلمات التى يمكن أن تتجاوز أو تتفرع إلى صلات متدرجة ، إن حقل الكلمة أو الحقل اللغوى لرمز ما يمثل كلا متفرعا أو تركيبا منقسما ، إن معنى الكلمة المفردة يرتبط بمعنى الكلمات القريبة منها دلاليا^(١١) ويرى "ترير" كذلك أن معانى الكلمات تتحدد من خلال عددها وموقعها فى الحقل الكلى ، كما أن ضبط الكلمة المفردة يرتبط بحالتها الراهنة فى الحقل الدلالى ومن خلال تركيبها الخاص ، إن الكلمات ليس لها معنى إذا غابت عن المستمع الكلمات المتقابلة معها فى الحقل الدلالى ، وتكون غير محددة المعالم وغير واضحة الدلالة إذا لم تتبادل معها الكلمات القريبة منها دلاليا ، وإذا لم يحصل المستمع على نصيبها فى الحقل الدلالى ، كما تبرز حدود الكلمة المنطوقة من خلال اقترابها من تلك الكلمات ، ويشير "ترير" أخيراً إلى مصطلح "الحقل"

الكبير" ، لأن الحقل بوصفه كلاً ليس مجموعاً من أجزاء متناثرة أو من عناصر فردية ، ولكنه يستنتج بوصفه وحدة من حقول كبرى . (١٢)

فائيسجريز :

إن الحقل اللغوي أو حقل الكلمة أو الحقل التركيبي عند فائيسجريز قطاع من عالم وسط في اللغة الأم الذي يبنى من خلال مجموع عدد من الرموز اللغوية المتضافرة في عنصر منظم ، إن مثل هذا العنصر مؤثر ، حتى وإن كان غير مدرك بما تحمله من تفاصيل أو غير بصير بها . وقد انشغل "فائيسجريز" نظرياً وعملياً ببناء حقول الكلمات ، وميز في ذلك بين الطبقات أو القطاعات التالية في الحقل (ويكون قد تجاوز بذلك "ترير") ويتضح تنظيم حقول الكلمات من التصنيف التالي :

الحقول الطبقيّة :

وتتفرع إلى الأنواع التالية :

تصنيف ترتيبي : مثل درجات تقدير

العمل (ويعطى أمثلة وردت عند "ترير" مثل : مقبول - جيد - جيد جداً - ممتاز) ، وصفوف الأعداد تصنيف مساحي : مثل حقل كلمات القرابة .

تصنيف عميق : مثل مخروط الألوان .

تصنيف نو طبقات متعددة : مثل التعبيرات اللغوية التي تطلق على الموت ، ويشير "فائيسجريز" أيضاً إلى ثلاثة أنماط من حقول الكلمات ، وهي أنماط لها خواص متميزة حسب مجالاتها وهي : حقول الكلمات في مجال مظاهر الطبيعة . حقول الكلمات في مجال مظاهر المدينة . حقول الكلمات في مجال الروح .

ويعلق " جكر" على هذا التصنيف بقوله : "إن هذه المحاولة لتصنيف حقول الكلمة ليست - من وجهة نظرنا - كافية، حيث لم يَعملَ منهج منظم لحقل الكلمة ، هذا هو اعتراضنا الرئيسي على بحث حقل الكلمة في عمل "ترير" ،

و"قايسجرير" فالتظرية بذلت جهدا قليلا لعمل منهج عملي لغوي ، كما إنها لم تحل حلا مرضيا مشاكل مهمة مثل تحديد الحقول الدلالية بعضها في مقابل البعض الآخر ، كذلك لم تحل مشكلة استقلال هذه الحقول (١٣)

إسهامات أخرى في نظرية الحقل الدلالي:

بالإضافة إلى هؤلاء الرواد في نظرية الحقل الدلالي ينبغي أن نشير - باختصار - إلى علماء آخرين أسهموا إسهامات لا تنكر ، ونعني بهم أصحاب القواميس الذين نظموا المادة اللغوية حسب المجموعات الدلالية ، أو حسب الموضوعات وهو ما يسمى Onomastika (- onomastics بالإنجليزية)

وكان "لايبنتز Leibniz" من أوائل الذين اقترحوا القيام بعمل قاموس يؤسس منهجه حسب أنواع الأشياء أو الموضوعات ، أما أول تحقيق عملي لقاموس مرتب حسب المجموعات أو الموضوعات الدلالية فقد وجد عند "روجت Rogel" وذلك في عمله المسمى :

Rogets Thesaurus of English Words and Phrases عام ١٨٥٢ ، وعد هذا القاموس مثالا للقواميس الألمانية والفرنسية والأسبانية ، وقد طبع هذا القاموس مرات عديدة (ظهرت الطبعة الحادية والثلاثون عام ١٨٧٣) ، وقد تأثر "روجت" في هذا العمل بمقولة شاعت في القرن السابع عشر عن إمكانية تكوين لغة مثالية لتنظيم المعارف العلمية وتطويرها. (١٤)

وقد طالب "باول Paul" عام ١٨٩٤ في محاضرة له أمام الأكاديمية العلمية لمنطقة "بايرن Bayern" بأنه عند تناول الثروة اللفظية فإن الترابط أو الصلات بين المفردات ينبغي ألا يهتم بالجانب الصوتي للكلمات فقط ، بل بالجانب الدلالي أيضا ، كذلك طالب "ج . فون جابلينتز G. von der Gabelentz" أيضا بأن الثروة اللفظية ينبغي أن تنظم حسب المعنى ، وأنهى "ف . دورن سساييف Dornseiff" بتأثير الترتيب المعنوي ومشاكل الترادف عمله المسمى "الثروة

اللفظية للغة الألمانية حسب مجموعات الأشياء ، وصدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٣ "Der deutsche Wortschatz nach Sachgruppen" ، ثم ظهر فى عام ١٩٥٢ خلال انعقاد مؤتمر علم اللغة العالمى السابع فى لندن عمل "هليج / فارتبورج Hallig/Wartburg" المسمى "نظام المفاهيم Begriffssystem" (١٥)

نقد النظرية :

وجهت انتقادات كثيرة إلى هذه النظرية ، ويمكن توضيح أهم تلك الانتقادات فى النقاط التالية :

١ - مسألة تعريف الكلمة أو تحديدها دلاليا ، فمن المعروف أن كل كلمة مفردة تحصل فى الحقل الدلالي على تعريفها أو تحديد محتواها وعلى مكانتها (قيمتها المكانية) من خلال صلاتها بالأعضاء الأخرى فى الحقل ويرى "ترير" أن الكلمة المفردة تحصل على تحديدها الدلالي من التركيب الكلى ، وقد أشار "كاندلر Kandler" إلى أن هذا الأساس من

التعريف المتبادل يؤدي إلى صعوبات منطقية ، حيث يدخل التعريف فى دائرة .

٢ - مشكلة الحدود الخارجية ، وتعنى الحدود الخارجية الحدود بين الحقول الدلالية ، وقد مس "ترير" فى أعماله عن حقل الكلمة مسألة الحدود الخارجية مسا خفيفا ، ولكنه لم يحل المشكلة حلا مقنعا ، ومن الجدير بالذكر ما قدمه "شقارتز Schwarz" من إسهامات فى حل مشكلة الجبود بين الحقول الدلالية ، وقد كان على الرغم من ذلك متشائما ، حيث صرح بأنه لا يتوقع أن توجد خطوط واضحة بينها ، لأن المحتوى اللغوي يمتد من حقل إلى حقل دون فراغات، كما أن خيوط الربط بين الحقول ليست منقطعة تماما .

ويحاول "شقارتز" أن يقدم أساسا لاكتشاف مناطق الحدود ، وقد جاء هذا الأساس غامضا ، حيث يقول : "إن غياب التطابق يقدم للباحث -

بالنظر إلى انخفاض العلامات بسبب قلة التوقع بين أعضاء الحقل - علامة مؤكدة كذلك ، حيث يخف التشابك أو تقل السمات ، وينتهى الحقل في محيطه الدائري ، وبذا يمكن تفادي الخطر الناتج من عدم وضوح الصلة بين الحدود "ويعنى هذا أنه كلما قلت السمات المشتركة بين أعضاء الحقل فإن ذلك يدل على انتهاء الحقل والانتقال إلى حقل دلالي آخر ، وليس الأمر سهلاً كما يبدو ، ومن ثم نجد أن "ششارتز" نفسه يرى في أعماله الحديثة عن الحقول أنه ليس مهماً في بحث تنظم الحقل تحديد الحدود الخارجية ، هذا وقد انتقده في الاهتمام بمسألة الحدود الخارجية علماء آخرون من أمثال "جبر Gipper" ، وأولمان الذي يقول : إن بعض الكلمات والحقول تكون متداخلة أكثر مما تكون محددة (١٦). وقد عارضت نظرية الحقول الدلالية "أكسار Oksaar" ، حيث

ترى أن نظرية حقل الكلمة لا تصلح للغة بصفة عامة لأنه يفترض عدم وجود حدود واضحة بين الحقول المفردة ، كما لا يوجد في اللغة دائماً حدود دقيقة بين مجموعات الكلمات ، وليس الحقل الكلي لكل الناس متساوياً ...

إن الحديث عن تحديد الحقل الكلي ليس حديثاً موضوعياً" (١٧)

٣ - وجه علماء كثيرون من أمثال "شايد فايلر Scheidweiler" و "بانر Bahner" انتقادات لنظرية الحقول الدلالية ، حيث يرون أنها لم تبين على أسس استقرائية ، أي أنها لم تقم على قواعد أو أسس من النصوص التي بحثها "تيرير" ، ويرى "بتز Betz" أن الإنسان يرغب في أن تكون اللغة جهازاً منطقياً رياضياً دقيقاً ، وأن تتفرع إلى حقول بدقة متناهية ، ودون فراغات ، وبوضوح تام ، وليس هذا هو الواقع دائماً في كل حال ، ولهذا السبب فإن الحقل ليس شكلاً

تركيبياً جوهرياً للثروة اللفظية ، بل لا يعدو أن يكون نموذجاً لغوياً محتملاً .

وقد أثبت " بانر " أن تصور : ترير " عن الحقل لم يقم على عمل تجريبي ، بل على أساس فلسفي ، إن " ترير " نفسه يؤكد أن تصوره عن الحقل لم ينتج من مفهومه اللغوي ، بل من تصوره الفلسفي اللغوي ، وينتقد " بانر " تطبيق النظرية ، حيث يقول : " لقد ثبت في الوقت الراهن فقر البحث الذي قام على أساس نظرية الحقل ، حيث إن " ترير " وتلامذته انشغلوا بحقول تجريدية فقط ، ودرسوا عصوراً لغوية قديمة " .

ويعلق " جكر " على هذا النص قائلاً : إن هذا النص يثير نقطتين جديرتين بالمناقشة هما :

أ - هل تناسب نظرية الحقل بحث ما يسمى " الألفاظ التجريدية " فقط ؟ وقد أشار " ليونز " إلى تلك النقطة أيضاً ، حيث يرى أن

الإنسان طالما يمكنه التمييز بين الحقول التجريدية والحقول المتجسدة فإنه يكون من الأفضل أن يطبق نموذج " ترير " في الحقول المتجسدة التي للوحدات القاموسية فيها دلالة محددة أكثر من أن يطبق على الوحدات التجريدية التي لا تتمتع بهذا التحديد الدلالي ، ثم يقول إن نقاد " ترير " كانوا على حق حينما أشاروا إلى الخطر المنهجي وهو أن النظرية كلها تطورت على أساس تحليل الوحدات القاموسية التي اعتمدت على تعقيدات المفاهيم المأخوذة من مجال التجريدات العالية أو السامية مثل : الذكاء والفهم ، الجمال ، وقد أشار إلى ذلك أيضاً " قوادري " Quadri (١٨) .

ب - ركز البحث الذي قام على أساس نظرية الحقل جهده على العصور اللغوية القديمة ، وقد

عبر عن ذلك مجموعة كبيرة من اللغويين .

٤ - لم تسر النظرية وتطبيقها العملى ونتائجها المادية عند " ترير " ومن تبعه من اللغويين فى طريق واحد ، كما هاجم " شايد فايلر " فى مجموعة من مقالاته عام ١٩٤١ النتائج المادية لهذه النظرية ، ويرى أنه من الصعوبة لغير المتخصصين فى الدراسات الجرمانية - إن لم يكن من غير الممكن - الاشتراك فى مناقشة تفسير النصوص التى وردت فى المسألة تفسيراً مادياً ، كما هاجمها واحد من أشهر علماء الدلالة وهو "كوسريو Coseriu" (١٩).

٥ - عدم الاهتمام بالسياق الذى ترد فيه الكلمة ، ولا نود فى هذا المقام أن نشير إلى حقيقة أصبحت مؤكدة فى مجال البحث الدلالى ، وهى أن دلالة الكلمة لا تتحدد إلا فى إطار السياق اللغوى ، وهو ما يحيط بالكلمة من كلمات أخرى فى الجملة أو فى

العبارة أو فى النص كله ، كما يتحدد المعنى أيضاً من خلال معرفة السياق غير اللغوى ، والذى يشتمل على الأشخاص والعلاقات بينهم ، والحدث والسمات الاجتماعية والشخصية والاتصال غير اللغوى... إلخ ، ويمكن القول باختصار إننا نقصد بالسياق ما ورد عند فيرث تحت ما يسمى " سياق المقام " والتطورات التى حدثت فى تصور مفهومه عند العلماء الذين جاؤا بعده من أمثال " أمر Ammer " الذى يقترح تصنيفاً رباعياً للسياق هو :

- السياق اللغوى ، ويقصد به علاقات الكلمة بغيرها من الكلمات الأخرى :

- سياق المقام ، ويقصد به الموقف الذى تنطق فيه الكلمة .

- السياق العاطفى ، ويرتبط بالانفعال العاطفى الذى تستعمل فيه الكلمة .

- السياق الثقافى ، ويقصد به البيئة الثقافية والاجتماعية للكلمة (٢٠) .

ويؤكد ليونز على أنه من الضرورى عند بحث المفردات فى إطار الحقل الدلالى ملاحظة أساسين :

الأول : ملاحظة السياق الذى ترد فيه الكلمات .

الثانى : استحالة بحث الثروة اللفظية للغة ما دون ارتباط ذلك بالتركيب النحوى لتلك اللغة ، حيث يحدد مفهوم الحقل ، - كما ورد عند علماء البنىوية - من خلال الصلات الجدولية Paradigmatic ، والصلات النحوية التركيبية Syntagmatic التى تقع بين هذه الوحدات والوحدات الأخرى التى توجد فى إطار النظام اللغوى المعطى دلالياً « جدولياً وتركيبياً » ، إنها تتبع المجال أو الحقل الدلالى نفسه ، ويمكن القول إنها عناصر أو أجزاء الحقل . إن حقل الكلمة لذلك جنس أعلى من الثروة اللفظية نحوياً وجدولياً .

تطور نظرية الحقل الدلالى ، نظرية تحليل المعنى ، :

تأثرت نظرية تحليل المعنى بما ورد عند " ترير " و " فايسجرير " من توضيح معانى الكلمات فى إطار مجالها أو حقلها الدلالى ، وإن كانت قد اعتمدت بصفة أساسية على مدرسة براغ التى اهتمت بتحليل الفونيمات ، فقد أشار " چكر " إلى أنه من المعروف أن المناهج البنىوية التى اهتمت باللغة ظهرت أولاً فى مجال الأصوات ، ثم انتقلت سريعاً إلى النحو ، وكان أول من فعل ذلك " ياكوبسون " ، كما اعتمدت نظرية تحليل المعنى على المدرسة الدانمركية ، فيرجع الفضل إلى العالم اللغوى الدانمركى " هيلمسلف " (١٩٤٣) فى أنه أول من اقترح المنهج فى المستوى التعبيرى ، وفى بحث الثروة اللفظية ، وانطلاقاً من أساس أن التعبير والمحتوى متلازمان نقل " هيلمسلف " الأفكار الحاسمة التى تهتم بإبراز الرموز فى التحليل إلى مجال الثروة اللفظية .

ويمكن أن نقول من منظور علم

الطبيعة إن " هيلمسلف " أنجز في مجال القاموس خطوة في الذرة Atome «أصغر الرموز اللغوية في مجال اللغة » ، عندما رأى إمكانية تجزئة الوحدات التي لا تجزأ إلى أصغر الوحدات « أشكال هيلمسلف المسماة Figurae » ، وإذا كان يرمز في مستوى التعبير بالفونيمات على أنها الأشكال التي لا تتجزأ فإنه يقابلها في الأشكال البنيوية ما نسميه نحن الآن " الملامح الدلالية المميزة Semes " ، ويقدم " هيلمسلف " في نظريته أمثلة لذلك ، كما يتصورها في الدرجة الأولى من التحليل:

ram « كبش » ، ewe « نعجة » ،
man « رجل » ، woman « امرأة » ،
boy « ولد » ، girl « بنت » ، stallion « فرس » ، mare « فرسة » .

وتحدد هذه الوحدات الثماني في الثروة اللفظية من خلال ستة عناصر «مكونات» ، وإذا نظرنا إلى رقم ١ ، ورقم ٢ ، وإلى رقم ١ ، ورقم ٧ مثلاً فإننا نجد أن أي تغيير لعنصر واحد منها كاف في كلتا الحالتين للتغيير في المستويات

اللغوية الأخرى ، ويطلق " هيلمسلف " على هذا السلوك مصطلح " اختبار التبدل أوالتغيير " exchange test " ، وينتمي ذلك إلى نماذج الاتصال ، ومن المعروف أنه يستبعد بعض الوحدات من التحليل ، لأنها تتضح ارتباطياً من خلال علاقتها بوحدات أخرى ، فالبنت إنسانة ، وكذلك الطفل (٢١) .

وقد استخدم هذا المنهج أيضاً « بريeto Prieto " ، واستخدم نماذج الاتصال السابقة في تحديد الوحدات الوظيفية والتنوعات الوظيفية في الجداول الرأسية، كما تشكل نماذج الإتصال من جهة أخرى جهازاً لتحليل الوحدات القاموسية إلى ملامح مميزة (٢٢) .

وقد برز من اللغويين الذين اشتغلوا بتحليل المحتوى إلى السمات المميزة ثلاثة هم : جـرايماس Greimas ، وبوتيه Pottier ، وكوسريو Coseriu ، وقد عمق هؤلاء الباحثون منذ عام ١٩٦٢ - دون ارتباط بينهم - فهمهم . كما تطابقت وجهات نظرهم في النقاط الأساسية .

وقد قدم "جرايماس" فى كتابه :
Semantique structurale recherche de
méthode (باريس ١٩٦٦) مثالا للتحليل
فى مجال الصفات فى الفرنسية الحديثة،
حيث يذكر خصائص كل صفة .

وأعطى "بلانكى" Blanke أمثلة
للعلاقات بين الكلمات فى الحقل الدلالى
الواحد ، حيث يميز فى نظام التحليل
القاموسى بين أربعة أنواع من الصيغ
الجماعية :

١ - تقابلات ثنائية قطبية : رجل /
أمرأة ، غنى / فقير ، ذكى /
غبى ، سخن / بارد ، صلب /
لين ، قوى / ضعيف ،
صحيح / خاطئ .

٢ - ثنائيات متقابلة نسبيا مثل :
والدان / أطفال ، أب / ابن ،
يمين / يسار ، فوق / تحت .

٣ - نظم رمزية متدرجة مثل :
مقاييس الأعداد (واحد - اثنان
- ثلاثة .. إلخ)

مقاييس الأطوال (سنتيمتر -
ديسمتر - متر - كيلو متر ،
بوصة - قدم - ياردة - ميل) .
٤ - المصطلحات العلمية ،
والتصنيف العلمى للحيوانات
والنباتات والتى يوضع فيها
الفرد فى مجموعة عامة فى
شكل هرمى مثل : زرع -
شجرة - جذر - فرع - ورقة -
وفى شكل أنواع وأجناس مثل :
العائلة - الحيوان .

٥ - التصنيف العلمى المتعدد الذى
ينتظم فى شكل دائرة مثل :
كلمات الألوان ، كلمات القرابة ،
ويمكن أن تتضمن بطريقة
جزئية ثنائيات مثل : أب / ابن ،
أحمر / أخضر .

ويكفى لتصنيف كلمات مجموعة
دلالية وتحليلها استخراج عدد صغير من
العلامات ، إن هذه الطريقة ناجحة فى
مجموعات كثيرة بمساعدة الصلات ،
والتي يدلنا على مكانتها الإحساس
اللغوى . (٢٢)

ويستطيع الإنسان أن يمثل هذه السمات الدلالية سواء أكانت تقابلية أو كانت العلاقة بينها خلاف ذلك في نموذج من الجداول ، يكتب في الجدول رأسيا الصفات أو الكلمات التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد ، ويكتب أفقيا السمات التي تشتمل عليها هذه الصفات ، كما يمكن للإنسان أن يمثل هذه السمات في نموذج من الشكل الشجري .

إن الكلمات التي تشترك في سمة أساسية واحدة (يطلق على هذه السمة عند جرايماس وعند بعض اللغويين الآخرين بالطبع مصطلح "noem") تعد مترادفات جزئية homonymes أو partielle Synonymes ، ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها كلمات مثل : غابة - مكان مشجر - أدغال - كمأة - مشتل ... إلخ، حيث تشمل كل هذه الكلمات على سمة أو صفة عامة (noem) ثم تتميز كل كلمة فيها ببعض السمات الخاصة أو حزمة من الصفات التي قد تشترك في بعضها مع الكلمات الأخرى . (٢٤)

ويمكن التمثيل بمثال آخر أورده "جكر" نقلا عن "بوتيه" والذي استخدمه في تحليل الوحدة القاموسية "siège = مقعد" في الفرنسية الحديثة ، وقدم خمس وحدات قاموسية تشترك في بعض السمات الأساسية وهي : chaise (كرسي بمسند للظهر) ، fouteuil (فوتيه بمسند للظهر واليدين) tabouret (كرسي بدون مسند للظهر) ، cenape (كنبة) ، pauf (كرسي بدون مساند) ، ثم هناك بالإضافة إلى ذلك بعض السمات الأخرى مثل : لشخص واحد ، للجلوس ، بأذرع ، مصنوع من مادة صلبة .

وتشكل السمات (بأرجل ، للجلوس) سمات مشتركة للحقل ، ويطلق عليها مصطلح "السمات المشتركة archisemes" ، وتحققها يدل على وجود الوحدة القاموسية (مقعد siège) ، وتختلف كل وحدة قاموسية عن الأخرى في سمة واحدة على الأقل ، على حين تتشابه في السمات الأخرى " (٢٥) .

أما "كوسريو" فإنه يعتقد أن الصعوبة الأساسية هي كثرة عدد الوحدات القاموسية بالمقارنة بالعدد المحدود في مجال الفنولوجيا (الفونيمات أو الوحدات الصوتية) وفي مستوى القواعد (المورفيمات أو الوحدات الصرفية) ، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى صعوبة عملية في التحليل ، ومن ثم تقل المادة اللغوية المراد تحليلها ، كما مال إلى ذلك هيلمسلف" ، ويرى "كوسريو" أنه يمكن التغلب على هذه الصعوبة بالاعتماد على مجموعة من التفريقات الضرورية ، وأهمها :

١ - التمييز بين الأشياء والأمور غير اللغوية من جهة وكلمات اللغة من جهة أخرى ، إن الصعوبة الرئيسية تكمن في قرب الوظيفة القاموسية من الواقع الذي يرمز له بالوحدات القاموسية لأن الثروة اللفظية هي الطبقة اللغوية الأخيرة أمام العبور إلى الواقع ، وهذا يعنى أنها تمثل في اللغة الطبقة أو المستوى الذي

يرتبط مباشرة بالحقيقة غير اللغوية. ومن هنا يكون صعبا ، وإن كان عظيم الأهمية دائما ، التمييز بين ما يخص المعنى اللغوي وما يخص معلومات أو معارف الأشياء .

ويثار هنا سؤال هام هو : أى دور يمكن أن تقوم به المصطلحات واللغات الفنية في إطار لغة ما ؟ ومن المعروف أن المصطلحات العلمية والفنية تخص اللغة ، هذا وإن كان لها شكل مختلف عن كلمات اللغة الطبيعية حيث إنها تمثل إمكانيات استعمال في اللغة لأنواع من التحقيقات ، ومجالات جزئية مؤكدة للواقع الخارجى . إن المصطلحات تمثل تصنيفا موضوعيا مبنيا على التمييزات المنطقية المحددة exclusive مثل الحامض = قاعدة في الكيمياء ، أما المقابلات اللغوية فإنها ليست كذلك ، ففيها نوع من التضمن inclusive ، مثل المقابلة بين نهار وليل ، حيث يكون من الصعوبة

التمييز بوضوح بين النهار والليل ،
وبعبارة أخرى يمكن القول إنه من
الصعوبة وضع خط فاصل بينهما ،
فبينهما نوع من التضمنين .

٢ - التمييز بين اللغة الأولى (لغة الأم)
"Le langage primaire" وما وراء
اللغة "Le métalangage" ، فكل
عنصر في المستوى التعبيري في
اللغة يمكن أن يستعمل فيما وراء
اللغة ، إن الاستعمال فيما وراء اللغة
يشكل إمكانية لانتهائية من الكلام
(parole) ، إنه لا يتضمن تركيبا
دلاليا ، لأنه لا يتناول مجموعة
مصطلحات علمية غير محددة .

٣ - التفريق بين السنكرونية والديكرونية.

٤ - التفريق بين اللغة التاريخية واللغة
الوظيفية .

٥ - التفريق بين الأنماط والنظام من
جهة ، والنموذج والكلام من جهة
أخرى .

٦ - التفريق بين المعنى والترميز .

ويرى "كوسريو" بعد هذه المجموعة
من التفريقات أن التراكيب القاموسية
تختص بالمحتويات اللغوية ، ولا تهتم
بالحقائق غير اللغوية ، وأنها تعتمد على
اللغة الطبيعية وليس على ما وراء اللغة ،
كما إنها تختص بالسنكرونية ، ولا علاقة
لها بالديكرونية ، وباللغة الوظيفية وليس
باللغة التاريخية ، وبنظام اللغة ، وليس
بالمعيار اللغوي ، كما تهتم بالصلات
الدلالية ، وليس بالصلات الرمزية (صلة
الرمز بالشئ أو بالموضوع الذي يشير
إليه الرمز) .

وينبغي أن نشير إلى بعض المفاهيم
الأساسية في الحقل الدلالي عند
"كوسريو" وأهم هذه المفاهيم توجد في
إطار المصطلحات التالية :

archilexeme , lexeme , seme

ويعنى المصطلح الأخير (archilexeme)
عند "كوسريو" الوحدة القاموسية
الأساسية أو العامة التي تنتمي إلى
المحتوى الكلي لحقل الكلمة ، إنها الكلمة
التي يتطابق محتواها مع الحقل الكلي

الكلمة ويمكن القول إنها المفردة التي تجمع معظم الملامح الدلالية لحقل ما ، أما الوحدات القاموسية فهي المفردات التي تنتمي إلى الحقل الدلالي العام وتسمى lexemes . وتدل السمة الدلالية (seme) على أصغر خاصية دلالية أو أصغر سمة تتميز بها الكلمة في التحليل الدلالي ، ويمكن التمثيل لذلك كله بالوحدات القاموسية التالية ، فكلمة إنسان وحيوان هما من الوحدات القاموسية العامة (archilexemes) ، وكلمة رجل أو امرأة وأسد أو غزال أو ذئب هي وحدات قاموسية (lexemes) ، أما كلمة أنثى الذئب ، أو كلمة الذئب فهما وحدتان قاموسيتان متضمنتان في وحدات أعلى (hypolexemes) (٢٦).

أما الكلاسي classe فهو مجموع الوحدات القاموسية التي ترتبط ببعضها حيث تأتي لازمة ومتعدية ، ولا يظهر ذلك إلا في السياق .

ومن النقاط الهامة عند "كوسريو" إشارته إلى أن الحقل الدلالي ليس

استعمالا للكلمة أو مجال استعمال لها ، فالحقل لا يتكون من مجموع استعمالات الكلمة المختلفة ، ولكنه يتضمن كلمات تتحدد بالتبادل ، فلا يوجد حقل دلالي يتضمن وحدة قاموسية واحدة ، كما أن من الأمور الجديرة بالتمعن قوله إن الحقول الدلالية لا تتطابق مع حقول المفاهيم ، فإن كان الحقل الدلالي حقلًا للمفهوم فليس معنى ذلك أن كل حقل للمفهوم حقل دلالي ، لأن حقل المفهوم يمكن أن يكون أيضا حقلًا اصطلاحيا terminologic، إن كل وحدة قاموسية تعبر عن مفهوم أو تتطابق مع مفهوم ، ولكن ليس كل مفهوم يتمثل من خلال وحدة قاموسية (٢٧).

ويقرب من وجهة النظر هذا التحليل الدلالي عند الأمريكيين "واينرايش Weinreich" وتلميذه "هندكس Hendix" اللذين ينتميان علميا إلى البنيوية الأوروبية. أما علماء اللغة الآخرون في أمريكا فإنهم ينتمون إلى مجال التاريخ الإنساني ، حيث وجدت مدرسة جديدة

بالاهتمام تكونت من علماء التاريخ
الإنشائي (الأنثروبولوجيين والعلماء
الشفوي البدائية ، وعلماء الأثنولوجيين ،
والتي يعود تراثها إلى كروبر "krocher"
عام ١٩٠٩) حيث قدموا دراسات تشابه
ما قام به علماء تحليل المستوى
الأوروبيون ، ويمثل هذا الاتجاه : كونكلين
Conklin ، جنود إنف Goodenough ،
لاونسبوري Lounsbery ، ودرس هؤلاء
العلماء لغات متنوعة ، ومنها لغات الهنود
الحمز في أمريكا الشمالية ، كما اهتموا
بالخواص الأنثروبولوجية واللغوية معا .
ويرى لاونسبوري أن ما يرمز إلى
القرباب في لغة ما هو الحقل الدلالي ،
ويمكن مقارنتها بما يناظرها في اللغات
المختلفة ، كما يشير إلى أن كلمات
القرباب يمكن أن نراها مركبة ، أو مكونة
من مثال ، ويمكن أن نعددها نوعا من
التحليل المتشابهة حيث تعطي في لغة ما
مجموعات نموذجية أخرى ، إنه يفهم
الحقل على أنه مثال .

ويمكن القول باختصار إنه إذا كان

"جرايماس" (١٩٦٦ ، ١٩٧٠) ، وبوتيه
(١٩٧٤) وبريتسو (١٩٦٤ ، ١٩٦٦)
و"كوسريو" ممثلي الاتجاه التحليلي
البنوي للثروة اللفظية في مجال الدلالة
في أوربا فإن الاتجاه الأمريكي ظهر غير
مرتبط بذلك ، ولم يتطور على أنه نظرية
في التركيب الدلالي قام بها علماء اللغة ،
بل على أنه تكتيك قام به الأنثروبولوجيون
لوصف الثروة اللفظية لألفاظ القرابة
ومقارنتها في لغات متنوعة (قارن :
جودإنف (١٩٥٦) لاونسبوري (١٩٥٦) ،
ولس وأتكينس Wallace/Atkins (١٩٦٠)
، وقد تعهد هذا بعد عدة سنوات علماء
آخرون من أمثال لامب Lamp (١٩٦٤) ،
وندا Nida (١٩٦٤ ، ١٩٧٥) ، وواينرايش
Weinreich ، كما يمكن النظر إلى
محاولات "كاتز وفودور katz/Fodor " على
إنها امتداد لهذه النظرية . (٢٨)

ونود أن نشير أخيرا إلى نقطة
جديرة بالبحث ، وقد اهتم بها علماء
الدلالة الذين ينتسبون إلى النظرية
التحليلية ، ونعني بها الصلة بين الوجدات

القاموسية التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد ، فمن المعروف أن علم الدلالة البنيوي باتجاهاته المتعددة يهتم بصلات التناظر الجدولي paradigmatic بين الوحدات القاموسية المختلفة ، وقد بدأ "ترير" علمه الرئيسي عن الثروة اللفظية في اللغة الألمانية بالفكرة التي كانت ماثار جدل ونقاش ، وهي أن كل كلمة تنطق تؤثر نقيضها في وعي المتكلم والمستمع .

ويرى "ليونز" أن الإجابة عن السؤال الذي أثير كثيرا ، وهو : هل حقيقة تشير الكلمة نقيضها في وعي المتكلم والسامع عند النطق بها ؟ تدخل في مجال علم النفس ، وفي نظرية السلوك اللغوي أكثر من أن تكون هامة في تحليل النظام اللغوي ، كما يرى أن رأى "ترير" يبدو متضمنا أن كل كلمة من الثروة اللفظية لها ضد واحد فقط ، وما إذا كان هذا هو الحال أو غير ذلك فإنه سؤال هام ينبغي أن نشغل أنفسنا به .

ويشير "ليونز" إلى أنواع متعددة من المتضادات توجد في اللغات المتنوعة ،

فهناك متضادات (Antonymy = تضاد) تأتي مقابلة لغيرها مثل ، جيد : سيء ، عال : مخفض ، جميل : قبيح ، عجوز : شاب ، وهناك الإتيان بالضد باستعمال النفي مثل ، متزوج : غير متزوج . ثم هناك التفريق بين التضاد المتدرج وغير المتدرج مثل ، سخن : بارد ، حيث تتدرج السخونة من درجة الغليان إلى درجات أقل ، وكذلك تتضمن البرودة درجات متعددة ، بخلاف نحو : متزوج : أعزب ، وهناك بالإضافة إلى ذلك التضاد التقابلي Antipodel ، وذلك مثل : شرق : غرب ، شمال : جنوب ، حيث نجد أن "شرقا" تتقابل مع "غرب" ، و"شمالا" مع "جنوب" هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن "شرقا وغربا" تتقابل مع "شمال وجنوب" ، أي أن كل واحدة من هذه الوحدات تقع في تقابلين ، ثم هناك التضادات المتعامدة orthogonal مثل "شمال" التي تتعارض مع "شرق وغرب" . ويفرق "ليونز" كذلك بين صلة التضاد (Antonymy) وصلة العكسية أو العكس

(Conversion) مثل "يشترى" و "يبيع" و "الزوج" و "الزوجة" ، ثم يشير أخيرا إلى أنواع أخرى من التضاد ، وهى التى تقوم على الاتجاه مثل "وصل" و "سافر" ، و "يأتى" و "يذهب" ، حيث إن هذه الوحدات القاموسية تعبر عن حركة فى اتجاهين متقابلين ، وتنقسم إلى تقابلات رأسية وأخرى أفقية ، فالأولى مثل "يمين" و "يسار" ، و "أمام" ، و "خلف" ، والثانية نحو "أعلى" و "أسفل" .

إن ذلك كله يؤدى عنده إلى القول إنه لا توجد إجابة وحيدة عن السؤال :

ما التضاد فى الوحدات القاموسية ؟ إنه يشتمل على التضادات المتعامدة (شمال مع شرق وغرب ، ورجل مع سيدة وشاب وفتاة) ، وعلى التضادات المتقابلة (شمال مع جنوب ، وشرق مع غرب ، وربيع مع خريف ، وصيف مع شتاء) ، ولكنه يصرح فى النهاية قائلاً : إنه يمكن القول إن التفريق بين هذه الأنواع بعضها عن البعض الآخر ليس واضحا تماما. (٢٩)

ويكاد يتفق كثير من الدالين الذين يمثلون نظرية التحليل الدلالى على أن معنى الوحدات القاموسية للثروة اللفظية يمكن أن يوصف من خلال مجموعة من التقابلات الثنائية ، ويتضمن هذا أن كل وحدة قاموسية يمكن أن تقارن بوحدة قاموسية أخرى من وحدات الثروة اللفظية فى مجال بعدى متعدد الأطراف .

وينبغى أن نشير أخيرا إلى صلة هامة من الصلات الموجودة بين بعض الكلمات ، وقد سبق أن ذكرناها فى موضع سابق ، ونعنى بها صلات التداخل "Hyponymy" بين بعض الوحدات القاموسية ، حيث تندرج إحدى الوحدات القاموسية فى غيرها ، أو بعبارة أخرى توجد وحدة قاموسية عامة تتضمنها ، وذلك مثل ، بقرة : حيوان ، وردة : زهرة ، استقامة : فضيلة ، لبنى : أزرق ، وقد أصبح شائعا الآن استعمال هذا المصطلح للدلالة على تلك الصلة بديلا عن المصطلح الآخر "التضمين Inclusion" ، والذي أصبح يستعمل فى معان أخرى

فى علم اللغة وفى المنطق ، وهكذا يمكننا القول إن بقرة مندرجة أو متضمنة فى حيوان ، وإن وردة متضمنة فى زهرة ، كما أن وردة وسوسن ونرجس مندرجة كلها فى زهرة .(٣٠)

ويرى "ليسونز" أن تحليل المكونات وسيلة لإقامة الصلات الدلالية التى توجد فى الوحدات القاموسية ، وإن كان لا يرى أن مفهوم "المجال الدلالي" لعب دورا فى تأسيس مجال الصلات الدلالية.(٣١)

وإذا كانت هذه - باختصار - أهم المعالم الأساسية فى جهود لغوى الغرب فى مجال الحقول الدلالية (نظريا وتطبيقيا) فإنه يبقى علينا أن نشير - باختصار أيضا - إلى أهم الأعمال التى حاولت جمع الثروة اللفظية واستطاعت ترتيبها ترتيبا يعتمد على الموضوعات أو على المحتويات ، فنقول إن أهم الأعمال التطبيقية فى هذا المجال دراسة "ترير" لألفاظ اللغة الألمانية فى إطار التصنيف الدلالي أو بالنظر إلى تطبيقها دلاليا من البدايات حتى بداية القرن الثالث عشر

والتي ظهرت عام ١٩٣١ ، وكان لها أثرها الكبير فى ظهور دراسات أخرى سلكت هذا المنهج ، فقد قام تلامذة "ترير" بدراسة الثروة اللفظية للغة الألمانية فى عصور أخرى ، وامتد الأثرالى دراسة ألفاظ اللغة الفرنسية والإنجليزية ، ثم ظهرت الدراسات اللغوية الأمريكية فى لغات الهنود الحمر ، وقد اهتمت بالمجال الأنثروبولوجى ، كما سبق القول .

أما أول تطبيق عملى على مستوى المعجم ، فقد أشرنا سابقا إلى معجم "روجت" Roget الشهير فى اللغة الإنجليزية : Roget's Thesaurus of English words and Phrases ، والذى رتبته بناء على المعنى عام ١٨٥٢ ، ثم ظهر عمل "دورنسايف" فى اللغة الألمانية عام ١٩٣٣ ، ثم المعجم الأسباني لكاسارس Casares عام ١٩٤٢ ، ثم العمل المنهجي الذى قدمه "ورتبورج وهليج" عام ١٩٥٢ ، ولعل أحدث معجم يطبق نظرية الحقول الدلالية هو ذلك المعجم المسمى "Greek New Testament"

وقد تم الانتهاء من تصنيف مجالات المعجم بعد الانتهاء من تحليل خمسة عشر ألفا من المعانى المختلفة لمفردات يبلغ عددها خمسة آلاف كلمة ، وعلى الرغم من قصور المعجم من ناحية عدم شمول مفرداته ، وبالتالي عدم شمول مجالاتها فإنه يقدم نموذجا جيدا لمعاجم المجالات التى تقوم على التصنيف المنطقى والأساس التسلسلى . (٣٢)

هذه - باختصار - جهود الغرب فى مجال الحقول الدلالية نظريا وتطبيقا ، وينبغى علينا الآن أن نشير إلى ما قدمه علماء العربية فى هذا المجال وسنرى أسبقيتهم ، حيث قدموا عددا وفيرا من الرسائل والكتب التى حوت ألفاظا رتبت حسب المحتوى ، ثم نجد أخيرا معاجم متناثرة سارت على هذا النهج ، لعل من أشهرها وأكبرها على الإطلاق معجم "المخصص" لابن سيده وسنتناول هذه الجهود التى قام بها العرب فى الصفحات التالية .

نبذة مختصرة عن نشأة الدراسات الدلالية عند العرب :

أصبح من القول المعاد الإشارة إلى أن الدراسات اللغوية نشأت عند الأمم القديمة مرتبطة بالنصوص المقدسة دينيا وعقائديا ، وكان الدين البراهمى the Brahmin religion سببا فى الاحتفاظ ببعض مجموعات من التراتيل القديمة جدا نصوصا سرية لهذا الدين ، وأصبح تفسير هذه النصوص واجب مجموعة خاصة من المتعلمين ، وقد اهتمت جماعة الهندوس بهذه النصوص المقدسة فدرسوا أصواتها وقننوا القواعد الخاصة بظواهرها النحوية ووضعوا قوائم من كلماتها لشرحها وتفسيرها واصفين نموذجا صحيحا سموه اللغة الفصحى أو "السنسكريتية" ، ثم توجت هذه الدراسة بما قدمه أعظم النحاة القدماء ليس فى الهند وحدها ، بل فى العالم القديم كله ونعنى به النحوى الشهير " بانينى Panini " . (٣٣)

نشأ البحث اللغوى عند الصينيين استجابة لدراسة الأدب الكلاسيكى والنصوص القديمة ، ورغبة فى تدوين نظام الكتابة التصويرية التى كانت تكتب بها اللغة الصينية القديمة ، وقد انتعشت الدراسات الفنولوجية الصينية فى العصر المتأخر بتأثير التعليم اللغوى للرهبان البوذيين الذين كانوا يتكلمون السنسكريتية حيث أثروا على الصينيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد. (٢٤)

أما فى اليونان فمن المعروف أن التفكير اللغوى نشأ فى أحضان الفلسفة وبقي زمتا غير قصير جزءا منها ، حيث كان الفلاسفة اليونانيون هم الذين بدأوا البحث فى اللغة ومشكلاتها ، وكان التساؤل عن أصل اللغة وطبيعتها مثار جدل كبير بين الفلاسفة آنذاك ، كما كانت طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول محل نقاش استمر عدة قرون حتى عصر أفلاطون وأرسطو (٢٥).

ومما لاشك فيه أن الدراسات اللغوية نشأت عند العرب لخدمة النصوص

الدينية المقدسة : القرآن الكريم أولا ، ثم الأحاديث الشريفة ثانيا ، وانتقل الأمر أخيرا إلى الاهتمام باللغة كلها شعرها ونثرها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام المرجع الأول الذى يفسر للمسلمين ما غمض عليهم من ألفاظ القرآن الكريم ، فيشرح معانيها والمقصود منها ، وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، قام بهذه المهمة خير قيام الصحابة الأجلاء من أمثال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، وهناك روايات شهيرة وردت فى كتب التراث تتحدث عن أن بداية التأليف فى النحو تعود إلى أبى الأسود الدؤلى أو إلى على بن أبى طالب نفسه .

وبدأ البحث فى مجال الدلالة بشرح الألفاظ الغامضة فى القرآن الكريم وربما كان كتاب "غريب القرآن" الذى ينسب إلى ابن عباس (ت ٦٨هـ) أول كتاب يوضع لشرح الكلمات الغريبة فى القرآن الكريم، ثم توالى الكتب فى هذا المجال ، أما التدوين فى الفرع الثانى ، وهو غريب

الحديث فقد بدأ متأخرا ، ويعد كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) فى غريب الحديث أول كتاب - على أصح الأقوال - فى هذا الفرع من الدراسات الدلالية ، وجمع بعض المؤلفين النوعين معا فيما يسمى "كتب الغريبين" ، وتعد هذه الكتب وما تتبعها من كتب متنوعة فى مجالات أخرى رتبت أبوابها حسب الحرف الأول بداية التأليف فى المعاجم اللفظية التى كان أولها معجم "العين" للخليل بن أحمد (٣٦)

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته (٣٧) إلى أن العرب وضعت المعاجم بسبب ملامسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمّر كثير من أئمة

اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدى ألف فيها كتاب "العين"

وقد تتابعت المعاجم اللفظية تقلد الخليل فى ترتيب مادتها اللغوية ، وظهرت معاجم لفظية أخرى كالجمهرة لابن دريد تخلت عن نظام الترتيب المخرجى مع الاحتفاظ بالتقليب ، هذا مع اهتمامه بالكمية ، وإن جاء تناوله مختلفا ، حيث قسم المعجم كله تقسيما كميا (الثنائى - الثلاثى الصحيح - الثلاثى المعتل .. إلخ) ، ثم ظهرت مدارس أخرى فى ترتيب المعاجم اللفظية كمدرسة القافية (الصحاح للجوهري ، لسان العرب لابن منظور ، القاموس المحيط للفيروزابادى إلخ) ، ومثل مدرسة الترتيب الألف بائى (كأساس البلاغة للزمخشري وكالمعاجم العربية الحديثة) .

أما المعاجم المعنوية أو معاجم الموضوعات فهى التى تتخذ الدلالة أساسا فى الترتيب ، ويمكن الإشارة إلى أن بدايات التأليف فى هذا النوع من

المعاجم تعود إلى مجموعات من الرسائل
أو الكتب التي ألفت مبكرة والتي تفرعت
إلى :

١- كتب الحشرات ، وتشتمل على
الكتب التي ألفت عن الحشرات
والهوام مثل كتاب أبي خيرة
الأعرابي ، وكتابي الحيات
والعقارب لأبي عبيد (ت ٢١٠هـ)
وكتاب النحل والعسل لأبي عمرو
الشييباني (ت ٢٠٦هـ) وغيرها
من الكتب التي تناولت
الحشرات وصفاتها .

٢ - كتب الخيل ، وهي الكتب التي
تناولت أعضاء الخيل وصفاتها
مثل كتب : النضر بن شميل (ت
٢٠٤هـ) ، وأبي المنذر هشام
بن محمد الكلبى (ت ٢٢٤هـ)
، وأبي عمرو الشيباني ، وقطرب
(ت ٢٠٦هـ) ، وأبي عبيدة ،
وغیرها من الكتب التي تناولت
فى هذا المجال .

٣ - كتب خلق الإنسان ، وتضمنت

هذه الكتب شرح أعضاء جسم
الإنسان ، والألفاظ التي تطلق
عليها ، وتعرض بعضها لأمر
الحمل والولادة والسن ،
وبعضها الآخر للصفات الخلقية
والخلقية . (٣٨)

وقد تطورت هذه الأنواع من الكتب
إلى نوع آخر لم يعد قاصرا على موضوع
واحد ، بل تعداه إلى شرح موضوعات
عدة تجمعها صفات مشتركة ، وذلك مثل
كتاب الغريب المصنف لأبي عمرو
الشييباني ، والغريب المصنف لقطرب ،
والغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن
سلام ، والذي يشتمل على أكثر من
ثلاثين كتابا فى موضوعات مختلفة مثل
خلق الإنسان ، والنساء ، واللباس ،
والطعام والشراب ... إلخ .

ويندرج تحت هذا النوع من الكتب
كتاب الصفات للأصمعى ، وكتاب
الصفات للنضر بن شميل ، والذي يحتوى
على موضوعات مثل : خلق الإنسان ،
والجود والكرم وصفات النساء ، والأخبية

والبيوت ، وصفة الجبال والشعاب ،
والإبل والغنم ... إلخ (٣٩)

وهكذا كانت هذه الرسائل أو الكتب
البداية الطبيعية لتأليف المعاجم المعنوية ،
والتي توجت بمعجم "المخصص" لابن
سيده في القرن الخامس الهجرى ،
وسنتناول فى الصفحات التالية النقاط
الآتية :

١ - الأساس النظرى الذى انطلق
منه أصحاب المعاجم المعنوية .

٢ - أهم الانتقادات التى توجه إلى
جمع المادة اللغوية وتصنيفها
عند علماء العربية فى هذا
المجال .

٣ - التطبيق العملى الذى اتبعته
هذه المعاجم .

أولا : الأساس النظرى :

يذكر ابن قتيبة أن كتاب أهل زمانه
قد استطابوا الدعة ، واستوطئوا مركب
العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر
وقلوبهم من تعب التفكير ، ولما كان يخشى

أن يزيد الأمر سوءا جعل له حظا من
عنايته ، وجزءا من تأليفه ، فعمل لمغفل
التأديب كتب خفافا فى المعرفة ، وفى
تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها
على فن وأعفاه من التطويل والتثقل حتى
يسهل حفظه ودراسته. (٤٠)

وليست كتبه هذه للمبتدئين ، أو كما
يقول : لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا
بالجسم ، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولم
يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة ،
ولكنها لمن شدا شيئا من الإعراب ، ولا بد
له - مع هذه الكتب - من النظر فى
الأشكال لمساحة الأرضين ... ومن النظر
فى جمل الفقه ومعرفة أصوله ... ولا بد له
- مع ذلك - من دراسة أخبار الناس ،
وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها فى
تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب ،
ويصل بها كلامه إذا حاور. (٤١)

ويتضح من النصوص هذه أن هدفه
تقديم خدمة للمتأديبين والكتاب ، وذلك
بإطلاعهم على أسرار العربية وألفاظها ،
حتى يستعملوا تلك المفردات فى معناها

الدقيق ، وفى دلاليتها الجدية ، فمن أراد أن يعبر عن معنى ما فعليه أن يعي اللفظ الصحيح الذى وضع لهذا المعنى ، ومن ثم وجب على هؤلاء المتأدبين أو الكتاب أن يعلموا مفردات الأبواب والموضوعات التى وردت عنده ، فهذا بالإضافة إلى معرفة الأشياء الأخرى كشكال مسنحة الأرضين ، وما يتصل بها ، وفى جمل الفقه وأصوله ، وأخبار الناس وأحوالهم ، أى أن الهدف تعليمى عملى .

وكان هدف الثعالبي قريبا من ذلك ، حيث يشير إلى أنه كانت تجرى فى مجلسه (مجلس أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى) - أنسه الله - نكت من أقاويل أئمة الأدب فى أسرار اللغة وجوامعها ولطائفها وخصائصها ، مما لم يتنبهوا لجمع شمله ، ولم يتوصلوا إلى نظم عقده ، وإنما اتجهت لهم فى أثناء التأليفات ، وتضاعيف التصنيفات ، لم يسيرة كالتوقيعات ، وفقر خفيفة كالأشارات فيلوح لى - أدام الله دولته - بالبحث عن أمثالها ، وتحصيل أخواتها ،

وتذيل ما يتصل بها وينخرط فى سلكها ، وكسر دفتر جامع عليها وإعطائها من النيقة (الجودة والمبالغة) حقها .

ثم يذكر الثعالبي أنه أخذ عن العلماء السابقين واقتفى آثارهم ، وأنه جمع فى التأليف بين أبعاد الأبواب والأوضاع ، أتى لها باللغات والألفاظ الملائمة. (٤٢)

وقد أكد هذا المعنى ابن خلدون ، حيث يشير إلى أن هذا النوع من المؤلفات يحتاج إليها الأديب فى فنى نظمه ونثره حذرا من أن يكثر لحنه فى الموضوعات اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها ، وهو أشد من اللحن فى الإعراب وأفحش. (٤٣)

أما ابن سيده فيذكر أن الهدف من تأليف معجمه أنه لما ظهرت حاجتنا إلى اللغة لمكان التعبير عما نتصوره ، وتشتمل عليه أنفسنا وخواطرنا أحب أن يجرد فيها كتابا يجمع ما انتشر من أجزاءها شعاعا وتنتشر من أشلائها حتى قارب العدم ضياعا ولا سيما هذه اللغة المكرمة الرفيعة ... والتي هى مادة كتاب

الله تعالى الذى هو سيد الكلام لا يأتية
الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولما وجد
أن تأليف القدماء جاء نشرًا غير ملتئم
ونشرًا ليس بمنتظم ، حيث لاكتاب يعلمه
إلا وفيه من الفائدة ما ليس فى صاحبه ،
ولم يركتابا مشتملا على جلها فضلا عن
كلها أراد أن يضع كتابا شاملا كل ألفاظ
اللغة ، يقول : " فأشرأبت نفسى عند ذلك
إلى أن أجمع كتابا مشتملا على جميع ما
سقط إلى من اللغة إلا ما لا بال به ، وأن
أضع على كل كلمة قابلة للنظر تعليلها ،
وأحكم فى ذلك تفريعها وتأصيلها ، وإن
لم تكن الكلمة قابلة لذلك وضعتها على ما
وضعوه " (٤٤) .

ويشير ابن سيده كذلك إلى الهدف
الذى ذكره السابقون ، وهو خدمة
الفصيح المدره والبليغ المفوه والخطيب
المصقع والشاعر المجيد المدقع ، فإنه وإن
كانت للمسمى أسماء كثيرة ، والموصوف
أوصاف عديدة تنقى الخطيب والشاعر
منها ما شاء ، واتسعا فيما يحتاجان
إليه من سجع أو قافية . (٤٥) .

ويتضح من هذه النصوص أن هدف
ابن سيده هو وضع كتاب يشمل ألفاظ
اللغة ومفرداتها التى تناسب الموضوعات
والأبواب المتنوعة ، حتى يتسنى لنا
التعبير عما يجول فى أنفسنا وخواتمنا
من معان وأفكار ، هذا بالإضافة إلى
هدف هام آخر ، ألا وهو التعبير عن
المعنى المعين باللفظ المناسب والكلمة
الصحيحة .

وليست هذه الأهداف بعيدة عن
الأهداف التى أراد تحقيقها علماء الغرب
من دراسة لغاتهم فى إطار نظرية الحقول
الدلالية ، حيث كانوا يهدفون إلى حصر
ألفاظ اللغة وجمعها ، ثم انطلقوا من ذلك
إلى محاولة ربط دلالة الكلمة بمجموعات
دلالية تشترك معها ، وقد سبق أن أشرنا
إلى تشبيهه " ابسن " صلة الكلمة
بالكلمات الأخرى التى تشترك معها
دلالياً بالفسيفياء حيث يؤدى تناسب
الكلمة مع الأخرى إلى توضيح دلالة كل
واحدة منهما ، حيث تشترك كلها فى
وحدة شعورية تدرج فى نظام أعلى ، ولا
تندمج فى تجريد أسن .

وقد وردت هذه الفكرة عند " ترير " أيضاً ، حيث تأثر " ترير " نفسه بأفكار " أبسن " (٤٦) .

ثانياً: التطبيق العملي :

إذا ما ألقينا نظرة على كيفية تنظيم علماء العربية (سنختار منهم على سبيل المثال : ابن قتيبة ، والثعالبي ، وأبو سيدة) للموضوعات أو الأبواب التي احتوت عليها كتبهم فإننا نجد أن تنظيمهم يندرج بصفة عامة تحت البدء بالكليات أو الموضوعات العامة وينتهي بالجزئيات أو الموضوعات الخاصة ، وكما يقول ابن سيدة : " إنه قدم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص ، والأتيان بالكليات قبل الجزئيات " ، وسنعود إلى الحديث مرة أخرى عن ابن سيدة . أما الآن فإننا نود أن نعرض بشيء من التفصيل إلى ترتيب الموضوعات عند ابن قتيبة والثعالبي وابن سيدة .

ابن قتيبة :

يبدأ ابن قتيبة بالعام ، وهو باب المعرفة ، ومنه معرفة أصول أسماء الناس

والنباتات كالنخل والحيوانات كالخيل ، ثم يبين الفروق بين ألوان شتى من الصفات والأشياء ، مثل باب فروق في الأسنان أو في الأقواء أو في الصفات ، وينتقل بعد ذلك إلى معرفة في الطعام والشراب ، وفي الطير والهوام والحشرات ، والنوادر ، وباب قسمية المتضادين باسم واحد .

ويبدو من النظرة الأولى في هذه الموضوعات أنها لا تغطي كل مجالات الدلالة ، وإذا ما قلنا على سبيل التوسع أن كل باب من هذه الأبواب يشير إلى حقل دلالي واحد فإننا نجد أن العلاقة بين بعضها والبعض الآخر قد تتحقق مثل العلاقة بين الحقول التي تتحدث عن الإنسان أو الحيوان أو النبات ، ولكننا نفتقدها في أحيان أخرى مثل باب معرفة الآلات الذي يتناوله بعد باب شيات الغنم ، ثم تنتهي بأبواب صوتية وصرفية ونحوية.

الثعالبي :

وإذا كان الثعالبي يرى أنه جمع في التأليف بين أبعاد الأبواب والموضوعات

فإننا نرى أن الأبواب التي جاء بها تنقسم إلى قسمين : قسم الموضوعات الذي طرقه من سبقه من العلماء من أمثال ابن قتيبة ، وقسم يعد إضافة ، حيث لم ترد موضوعاته في الأبواب التي تناولها سابقوه ، إن أبواباً مثل الباب الأول « في الكليات » الذي يتناول فصولاً عدة في ذكر ضروب من الحيوان والثياب والطعام ، والباب الرابع عشر « في أسنان الناس والدواب » ، والباب الخامس عشر « في الأصول والرؤوس والأعضاء والأطراف » والباب الثالث والعشرين « في اللباس وما يتصل به ، والسلاح وما يضاف إليه » وردت عند ابن قتيبة ، على حين لم ترد أبواب مثل الباب السادس عشر « في صفة الأمراض والأدواء » والباب الرابع « في أوائل الأشياء وأواخرها » والباب الواحد والعشرين « في الجماعات مثل فصل في ترتيب جماعات الناس وتدرجها من القلة إلى الكثرة » ، كما نلاحظ أن بعض الدلالات تتكرر بالفاظ أخرى في أكثر من

باب مثل صفات المرأة التي وردت في أحد فصول الباب السابع عشر ، وقد مر حديث عن السمنية من النساء في أحد فصول الباب الخامس ، ومثل الفصل الذي يتحدث فيه عن ضروب من الحيوان الذي ورد في الباب الأول ، ثم يتحدث عن الحيوانات في الباب الثاني ، وفي الباب السابع عشر ، وهو بعنوان " في ذكر ضروب الحيوان والحشرات " ، وربما كان السبب الذي أوقع الثعالب في هذا الأمر هو أنه كان يتناول جانباً واحداً من الشيء أو من الموضوع الذي عقد له الباب مثل باب " المله والامتلاء " الذي يتحدث فيه عن المله في أنواع شتى ، مثل فلك مشحون ، وكأس دهاق ، وواد زاهر ، وبحر طام ، ونهر طافح ... إلخ ، ومثل باب في الطول والقصر في الإنسان.

وينبغي الإشارة إلى أن القسم الثاني من كتاب " فقه اللغة " وهو " سر العربية " يتناول غالباً مسائل نحوية وصرفية ، كما يتناول بالإضافة إلى ذلك

مسائل تدخل فى البلاغة مثل التشبيه والاستعارة والتجنيس والطباق والكناية والإلتفات والحشو .

وإذا كان كتاب " فقه اللغة " قد اشتمل على أبواب وموضوعات أعم وأشمل من الجزء الذى ورد فى كتاب "ابن قتيبة " فإننا نرى أنه - على الرغم من ذلك - لم يجمع كل المجالات الدلالية أو جميع الموضوعات .

ويبقى بعد ذلك أن نأتى بمثال يوضح مدى عمق اللغويين العرب فى التمييز بين حقول الكلمات المختلفة وبين دلالات الألفاظ ومعانيها ، يقول «الثعالبي» فى تصنيف الألفاظ التى تتحدث عن أنواع الموت « فصل فى تفصيل أحوال الموت من الباب السادس عشر » :

إذا مات الإنسان عن علة شديدة قيل: أراح ، قال العجاج :

أراح بعد الغم والتغم

فإذا مات بعة ، قيل : فاضت نفسه « بالضاد » ، أو فجأة فبظاء ، وإذا مات

من غير داء ، قيل : فطس ، وفقس ، عن الخليل ، وإذا مات فى شبابه ، قيل : مات عبطة واحتضر ، فإذا مات عن غير قتل ، قيل : مات حتف أنفه ، وأول من تكلم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا مات بعد الهرم ، قيل : قضى نحبه ، عن أبى سعيد الضرير ، أومات مسافراً ، قيل : ركب رده ، فإذا مات نزفاً ، قيل : صفرت وطابه ، عن ابن الأعرابى ، وزعم أنه يراد بذلك خروج دمه من عروقه " (٤٧) .

ويمكن أن يقارن ذلك بالحقل الدلالي لكلمة الموت كما ورد عند قاييسجرير الذى فرق فيه بين أنواع الموت المختلفة ومبيناً الكلمات التى تعبر عن كل نوع منها مثل: مات ، انتهى ، انتقل إلى الحياة الأخرى ، لبي نداء ربه ، نام نوماً أبدياً ، توفى ، سقط صريعاً ، انقطع نفسه ، هلك ، لقي حتفه ... إلخ . وقد أورد كلمات حقل الموت على شكل دائرة (٤٨) .

ابن سيده :

يعد كتاب « المخصص » الذى يقع فى سبعة عشر سफراً أو جزءاً أضخم

معجم دلالي وضعته العرب ، وقد أخذ المادة اللغوية من سابقيه ، حيث اعتمد ابن سيده - كما يقول - على كتب يعقوب ابن السكيت وأبى عبيد وثعلب وأبى حنيفة فى الأنواء والنبات ، والفراء والأصمعى وأبى زيد وأبى حاتم وكراع والنضر ابن شميل وغيرهم (٤٩) .

ويذكر ابن سيده طريقة تناول المادة اللغوية داخل المعجم قائلاً : إنه قدم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص ، والأتيان بالكليات قبل الجزئيات والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير ، وتقديمنا كم على كيف ، وشدة المحافظة على التقييد والتحليل ، مثال ذلك ما وصفته فى صدر هذا الكتاب حين شرعت فى القول على خلق الإنسان فبدأت بتنقله وتكونه شيئاً فشيئاً ، ثم أردفت بكلية جواهره ثم بطوائفه ، وهى الجواهر التى تألف منها كليته ، ثم ما يلحقه من العظم والصغر ، ثم الكيفيات كالألوان إلى ما يتبعها من الأعراض والخصال الحميدة والذميمة" (٥٠) .

وإذا ما ألقينا نظرة على أبواب المعجم ، أو كما سماها ابن سيده "الكتب" فإننا نجد أن الكتب من الأول حتى السابع عشر تدخل فى مجال الدلالة، أما الكتب الأربعة الأخيرة فإنها تندرج فى مجالات الصرف والنحو والأصوات .

أما فيما يتصل بعلاقة الكتب أو الأبواب بعضها ببعض الآخر فإننا نعثر على نوع من العلاقة أو الصلة بين بعض الأبواب مثل الصلة بين الأبواب التى تتناول الإنسان والحيوان « مثل كتب الخيل والإبل والغنم والوحوش والسباع والحشرات والطيور » التى ترد متتالية من الكتاب السابع حتى الثالث عشر ، على حين نفقد هذه الصلة بين هذه الكتب وكتاب الأنواء « مثل باب ذكر السماء والفلك وأسماء المنازل وصفاتها والبروج » التالى لها .

أما فيما يتعلق بترتيب الموضوعات داخل الكتاب الواحد فإننا نلاحظ أن ترتيبها لا يخضع أحياناً لأى منطق ،

فهذه أبواب الأمراض « ج ٤ / ص ٦٤ »
تندرج عنده في كتاب الطعام ، كما
يتضمن هذا الكتاب أيضاً الكلام عن آثار
الديار ونحوها ، والبيوت وما فيها وما
حولها « ج ٤ / ص ١٢٠ وما بعدها »
كما نجد أن كتاب السلاح في السفر
السادس يتضمن أسماء الموت وصفاته .

ويمكن القول إن الكتاب الواحد قد
يشتمل أحياناً على أشقات من
الموضوعات التي ليست لها صلة بعنوان
الكتاب ، وذلك مثل كتاب النخل « ج ١١ /
ص ١٠٢ » الذي يتضمن بالإضافة إلى
النخل والنباتات المعادن كالذهب والآثار
واقتيافها ومعرفة أماكن المياه ونحوت
الطريق ، والبرق ، و القرب والأياب ،
والسكون والطمأنينة ، والاختلاط ...
والكتاب وآلاته ، والقراءة والجواب والغناء
والرقص واللعب ، والإيمان والصلاة
والآذان والزكاة .

ونلاحظ أن ابن سيده يتناول أحياناً
الشيء أو الموضوع في أكثر من موضع
مثل باب الآثار الذي يرد عنده تابعاً

لكتاب الطعام « ج ٥ / ص ١٢٠ » ، ثم
يرد مرة أخرى تابعاً لكتاب النخل « ج
١١ / ص ٣٣ » ، أو مثل باب أمراض
العين والأسنان وعيوبهما الذي يوجد
مندرجاً في كتاب خلق الإنسان « ج ١ » ،
ثم يوجد باب آخر خاص بالأمراض « ج
٥ / ص ٦٤ » .

ونلاحظ أخيراً أن ابن سيده
يخصص أحياناً كتاباً أو باباً لبعض
الأشياء أو الحيوانات أو النباتات الهامة
في حياة البدوي مثل إفراذه النخل بكتاب
خاص « ج ٢٢ / ص ٣٣ » ، وذلك لما
نعرفه من أهمية النخلة في حياة العربي
الذي يعيش في الصحراء معتمداً على
أجزائها وعلى ثمارها .

ثالثاً : أهم الانتقادات التي توجه إلى
المعاجم المعنوية :

وهكذا يمكننا - بناء على الملاحظات
التي أشرنا إليها - تلخيص أهم العيوب
التي يتصف بها جمع المادة اللغوية
وتصنيفها داخل المعاجم المعنوية عند
العرب على النحو التالي :

١ - وجود علاقة ضعيفة أو عدم وجودها
كلية بين الأبواب أو الموضوعات
المتتالية التي تندرج فى حقل دلالى
واحد .

٢ - تناول الشئ أو الموضوع فى أكثر
من مكان واحد داخل الأبواب
الدلالية المتعددة .

٣ - عدم وجود منهج واضح فى جمع
المادة اللغوية وتصنيفها ، على
العكس مما نجده فى نظرية الحقول
الدلالية التي قسمت فيها الحقول
«كما نجد عند قايسجيرير» (٥١) .
حسب مجالاتها إلى :

أ - حقول الكلمات فى مجال مظاهر
الطبيعة .

ب - حقول الكلمات فى مجال
المظاهر المدنية .

ج - حقول الكلمات فى مجال
الروح .

هذا على الرغم من وجود بعض
العيوب التي يمكن أن توجه إلى

المحاولات الأولى من المعاجم
المبكرة فى إطار نظرية الحقول
الدلالية فى الغرب .

٤ - الحدود بين الحقول الدلالية غير
دقيقة « هذا إذا ما أطلقنا مصطلح
الحقول الدلالية على الأبواب فى
المعاجم الدلالية عند العرب » ، ولا
يقتصر هذا العيب على المؤلفات
العربية ، بل نجده فى مؤلفات
الغربيين أصحاب نظرية الحقول
الدلالية ، ويرجع " شفارتز Schwarz
" السبب فى ذلك إلى أن المحتوى
اللغوى يمتد من حقل إلى حقل دون
فراغات ، كما أن خيوط الربط بين
الحقول ليست متقطعة تماماً ، وقد
أعلن أنه ينبغى علينا ألا نتوقع وجود
خطوط واضحة بين الحقول الدلالية ،
ويمكننا اكتشاف الحدود بين الحقول
عندما يقل التطابق بين أعضاء
الحقل الدلالى الواحد (٥٢) .

ويمكننا تشبيه الحقل الدلالى - كما
فعل قايسجيرير - بدائرة فى المياه

حدثت بسبب إسقاط حجر فيها ،
حيث تكاد معالمها تختفى كلما
ابتعدنا عن مركز الدائرة ، فالفروق
المعنوية للكلمات التي تنتمي إلى حقل
دلالي واحد تختفى كلما كانت
الكلمات بعيدة دلالياً عن المركز ، وقد
انتقد كثير من علماء الدلالة هذا
التصور لمناطق الحدود ، ومن هؤلاء
العلماء " أولمان " الذي يقول : إن
بعض الكلمات والحقول تكون
متداخلة أكثر من أن تكون
محددة^(٥٣) . وكما تقول " أكسار
Oksaar " : أثبت البحث أن نظرية
حقل الكلمة لا تصلح للغة بصفة
عامة ، لأنه يفترض عدم وجود حدود
واضحة بين الحقول المفردة ، كما لا

توجد في اللغة دائماً حدود دقيقة بين
مجموعات الكلمات ، وليس الحقل
الكلي متساوياً عند كل الناس ، إن
الحديث عن تحديد للحقل الكلي ليس
حديثاً موضوعياً^(٥٤) .

ه - عدم مراعاة التغيرات الدلالية للألفاظ
عبر الزمن ، حيث لم يتتبع علماء
العربية معاني المفردات وتغيراتها
من العصر الجاهلي حتى العصر
العباسي ، أي يمكن القول إنهم
أهملوا الأساس الدياكروني في
تناول المفردات داخل الأبواب أو
الكتب ، وهذا ما قام به الغربيون
الذين اهتموا بالجانبين السنكروني
والدياكروني معاً .

محمود جاد الرب

كلية الآداب - جامعة المنصورة

Verlag, Frankfurt am Main,
1973, S. 301, 302 .

Geckler : Strukturelle : جكلر :
Semantik, S. 89.

Ullmann : Grundzuge : أولمان :
der Semantik, S. 145, 146.

Blanke Gustav H. :: بلانكى :
Einführung in die semantis-
che Analyse, Max Hueber
Verlag, Munchen, 1973, S.
48, 49.

Lyons : وانظر أيضاً " ليونز " :
John : Semantik, Band 1. ,
Verlag CH, Beck, Munchen,
1980, S. 272 - 277.

Lyons John : Seman- : ليونز :
tik, Band 1. S. 26

Strukturelle ... : " جكلر " :
S. 42 - 46 و" أولمان " :

Grundzuge der Semantik ... ,
S. 146.

الهوامش :

Geckler Harst : : جكلر :
Strukturelle Semantik und
Wortfeldtheorie, Wilhelm
Fink Verlag, Munchen,
1982, S. 84 - 89.

Ullmann Stephen :: أولمان :
Grundzuge der Semantik,
die Bedeutung in Sprachwis-
senschaftlicher Sicht, Walter
der Gruyter, Berlin, New
York, 1972, S. 144, Titel der
originalausgabe: The princi-
ples of semantics, 1957.

Saussure Ferdinand De: سوسير :
: Grundfragen der allgemei-
nen Sprachwissenschaft, 2.
auflage, Berlin, 1967, S. 150,
151

Ullmann S.: Seman- : أولمان :
tik, eine Einführung in die
Bedeutungslehre, S. Fischer

٢٠- Einführung in die semantische Analyse, S. 139.

٢١- Brekle Herbert E. : : بركلی :
Semantik, UTB, Verlag
Munchen, 1974 (2. verbesserte Auflage, Wilhelm Fink Verlag) S.66, 67.

٢٢- Strukturelle Semantik, : جكلر :
S. 205 - 208.

٢٣- Einführung : بلانكى :
S. 51 - 55.

٢٤- المرجع السابق ص ٢٥١ - ص
٢٥٤ وانظر أيضاً " جكلر " :
Strukturelle, S. 212.

٢٥- جكلر : S. , ...
214 - 216.

٢٦- المرجع السابق ص ١٧٩ - ١٩٥ »
بتصرف « .

٢٧- المرجع السابق ص ٢٠١ - ص
٢٠٤ .

٩ - جكلر : Strukturelle Semantik, S. 101.

١٠- ليونز : Semantik, Band 1. S. 265.

١١ - جكلر : Strukturelle Semantik, S. 265.

١٢- المرجع السابق ص ١٠٣ ، ص
١٠٤ .

١٣- المرجع السابق ص ١١٠ ، ص
١١١ .

١٤- المرجع السابق ص ٩٧ .

١٥- المرجع السابق ص ٩٩ .

١٦- نقلاً عن " جكلر " ص ١٤٧ .

١٧- جكلر : Strukturelle Semantik, S. 153 - 155.

١٨- المرجع السابق ص ١٦٠ ، ص
١٦١ ، وانظر أيضاً " ليونز " :

Semantik, Band 1. S. 270.

١٩ - جكلر : Strukturelle Semantik, S. 150 - 165.

atur- und Sprachwissen-
Schaft, Band 2. , Sprachwis-
sensschaft,

وانظر أيضاً د. عبد الرحمن بدوي :
الخطابة لأرسطو : الترجمة العربية
القديمة (١٩٥٩) ص ٩١ .

٣٦- د. حسين نصار : المعجم العربي ،
نشأته وتطوره ، دار مصر للطباعة
(١٩٨٨ / ١٤٠٨) ج ١ / ص ٣٣
وما بعدها .

٣٧- ابن خلدون : المقدمة ، الطبعة
الرابعة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) ص
١٠٨ .

٣٨- د. حسين نصار : المعجم العربي
نشأته وتطوره ، ج ١ / ص ١٠٠ -
ص ١٠٨ .

٣٩- المرجع السابق ص ١٦٥ ، ص
١٦٦ .

٤٠- ابن قتيبة : أدب الكاتب ، تحقيق
وضبط : محمد محيي الدين عبد
الحميد الطبعة الرابعة (١٣٨٢هـ -
١٩٦٣م) ص ٦ ، ص ٨ ، ص ٩ .

٢٨- ليونز : Semantik, Band 1. S. :
328.

٢٩- المرجع السابق ص ٢٩١ - ص
٢٩٦ ، وانظر أيضاً " ليونز " :

Einführung in die moderne
Linguistik, S. 471 - 478.

٣٠- ليونز : Semantik, S.300- 302.

٣١- د. أحمد مختار عمر : علم الدلالة ،
الطبعة الثانية ١٩٨٨ ، عالم الكتب ،
ص ٨٤ ، ص ٨٥

٣٣- بلومفيلد : Language, 1976, p.
11.

وانظر أيضاً " روبنز " : Ideen-
und Problemgeschichte der
Sprachwissenschaft, Athenam
Verlag, 1973, S. 7.

٣٤- روبنز : Ideen- und Problem-
geschichte ... S. 6.

٣٥- بنبورج : Antike : Pinborg
Grammatiktheorie, S. 91, im
Buch : Grundzuge der Liter-

٤٧- الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ،

ص ١٥٢ .

٤٨- بلانكى : S. , Einfuhrung ...
66, 67.

٤٩- ابن سيده : المخصص ، ص ١٢ ،

ص ١٣ .

٥٠- المرجع السابق ، ص ١٠ .

٥١- جكر : S. , Strukturelle Semantik,
S. 111.

٥٢- نقلاً عن جكر : S. , Strukturelle Se-
mantik, S. 147.

٥٣- المرجع السابق ، ص ١٤٩ ، ص
١٥٠ .

٤١- المرجع السابق ص ٩ ، ص ١١ .

٤٢- الثعالبي : فقه اللغة ، وسر العربية

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي

الحلي وأولاده بمصر ، تحقيق :

مصطفى السقا وآخرين (١٣٩٢هـ

- ١٩٧٢م) ، ص ٣٠ .

٤٣- ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٩ .

٤٤- ابن سيده : المخصص ، تحقيق

لجنة إحياء التراث العربى ،

منشورات دار الآفاق الجديدة ،

بيروت ، ص ٨ ، وكرر المعنى نفسه

فى أماكن أخرى .

٤٥- المرجع السابق ، ص ١٠ .

٤٦- جكر : S. , Strukturelle Semantik,
S. 89.

شخصیات مجہدیہ

(أ) الاستقبال :

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٢٠ من رمضان سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ١٩٨٩ م . عقد المجمع جلسة علنية لاستقبال عضو المجمع الجديد الأستاذ عبد الكريم العزباوى . وقد ألقى كلمة المجمع فى استقبال العضو الجديد الدكتور أمين على السيد عضو المجمع .
وفىها يلى نص الكلمات التى ألقى فى الجلسة :

كلمة

الدكتور أمين على السيد عضو المجمع
فى حفل استقبال الأستاذ عبد الكريم العزباوى
عضو المجمع الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الرئيس :

أيتها السيدات :

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

« ذلك يوم مجموع له الناس وذلك

يوم مشهود » ولعل أعظم أيام المجمع

أيام استقبال الأعضاء الجدد ، الذين

يلحقون بركب الخالدين ، وقد جاء من

هنا من أرجاء شتى ، يحتفون باستقبال

العضو الجديد ، وسيظل هذا المشهد

عالقاً بذاكرة هؤلاء جميعاً ، وسيظل

صاحب الخطوة يباهى بهذا اليوم

التاريخى المجيد ، الذى ينضم فيه إلى

قائمة العلماء العاملين لرفعة اللغة العربية

وتقدمها وازدهارها ، وصاحبنا من أهل

العلم الذين خلعوا ثوب الشهرة ، لثقتهم

فى قول الرسول الكريم صلى الله عليه

وسلم : " من لبس ثوب شهرة ألبسه الله

ثوب مذلة " وقد تواضع لله فرفعه الله .

وإنه لمن يمن الطالع وسعادة الجَدُّ أن

يكون هذا الاستقبال فى شهر مشهود هو

شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى

للناس وبينات من الهدى والفرقان .

وقد اجتمع لنا فى هذا اللقاء ثلاث

مناسبات سارة : الأولى أننا فى شهر

الصيام ، شهر رمضان ، والثانية أننا فى

حفل استقبال العضو الفائز ، والثالثة أن

هذا العضو خير رفيق على خير طريق .

فقد أمضى زهرة شبابه فى رحاب

المجمع ، وتثقل فيه من عمل إلى عمل

حتى بلغ أعلى الدرجات قبل أن يحال إلى

المعاش فى سنة ١٩٧٣ م .

ولعل السامعين يتوقون إلى شىء من

التفصيل ، على ما جرى عليه العرف

وتقاليد المجمع ، إذا قدم عضو جديد

حصل على شرف الانتماء إلى قوم
يحبون في الله ، ويرعون حق الله ،
ويقدمون جهدهم احتساباً ، وإليك بعض
التفاصيل :

الاسم الرباعي : عبد الكريم إبراهيم
أحمد العزباوى «بكسر العين المهملة» .

تاريخ الميلاد : فبراير سنة ١٩١٢ .

محل الميلاد : طليا - مركز أشمون
- منوفية .

كرمه الله في بدء حياته بحفظ القرآن
الكريم ، وأحسن إليه بقضاء ثلاث سنين
في الأزهر الشريف ، ثم اتجه إلى دار
العلوم ماراً بتجهيزيتها ، فتخرج فيها
سنة ١٩٣٧ م .

وفي هذه السنة فتحت له أبواب
التزود من المعرفة بتقديمه إلى المجمع
فاجتاز اختباراً جاداً أمام الأستاذ أحمد
الإسكندري عضو المجمع ، وأحرز قصب
السبق فعين محرراً بالمجمع وتدرج في
وظائفه حتى بلغ أعلاها قبل الإحالة إلى
المعاش وغب دخوله المجمع محرراً انخرط
في سلك العاملين في إعداد المعجم

الوسيط الذي بدأ العمل فيه سنة ١٩٤٠ م
، وجدَّ جدُّ المشتغلين به بعد ذلك حتى
ظهرت طبعته الأولى في سنة ١٩٦٠ م ،
وكان الأستاذ عبد الكريم واحداً من
الجنود الذين أسهموا فيه بجهد مشكور .
وكان يشارك في أعمال أخرى ترتبط
بشئون المجمع ، لعل أهمها عمله مع لجنة
المعجم الكبير ، فقد استمر هذا العمل
قائماً على قدم وساق مدة عشر سنوات
بدأت سنة ١٩٤٦ م واستمرت إلى أن ظهر
الجزء الأول منه في سنة ١٩٥٦ م ، وهو
عمل يستحق الذين نهضوا بأعبائه كل
تكريم وإجلال ، وما يزال عمل هذه اللجنة
مستمراً .

وقد تدرج في وظيفته من محرر ،
إلى محرر أول ، إلى رئيس التحرير ، إلى
مراقب ، ثم مراقب عام ، فمدير عام
للمجمع ومستشار فني له سنة ١٩٧٢ م .
أما نشاطه العلمي فحدث عنه ولا
حرج ، ففي السنة الثانية بعد أربعة عشر
قرناً من الهجرة المباركة طالعنا بتحقيق
كتاب « غريب الحديث » للخطابي تحقيقاً
علمياً ، وقد نشر هذا الكتاب ضمن

سلسلة إحياء التراث الإسلامى الذى يقوم به مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

والتأمل فى تعليقات المحقق وهوامشه فى هذا الكتاب يرى عالماً دقيقاً والمعياً أريباً أحسن إلى الكتاب كما أحسن إلى قارئه ، ويسر له سبل الإفادة منه .

وفى السنة السادسة بعد القرن الرابع عشر من الهجرة حقق كتاب «المجموع المغيـث فى غريب القرآن والحديث» للإمام الحافظ أبى موسى محمد بن أبى بكر بن أبى عيسى المدينى الأصفهانى المتوفى سنة ٥٨١ هـ . وقد نشر هذا الكتاب مركزُ البحث العلمى المذكور آنفاً ، وقد جمع المحقق فى تقديمه أطراف الحديث عن المؤلف والمؤلف وتحدث عن تاريخ التأليف فى هذين الفنين : غريب القرآن وغريب الحديث ، وعرض بعد ذلك المنهج القويم الذى سار عليه فى التحقيق ، وقد طبق هذا المنهج على كل خطوة خطاها فى

تحقيق هذا الكتاب ، ولا يتسع المقام لذكر أمثلة ، فالكتاب منشور ، وهو الدليل على صدق ما أقول .

وفىما يلى بيان بما حقق من الكتب بعد هذين السـفرين :

٣- حقق الجزء الرابع من تهذيب اللغة للأزهري ، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٤- حقق الجزء الثالث من كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى الذى أخرجه المجمع وطبع فى القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٥- حقق الجزء الثالث من كتاب تاج العروس للزبيدي ، وطبع بالكويت سنة ١٩٦٧ م .

٦- حقق الجزء الحادى عشر من كتاب تاج العروس للزبيدي ، وطبع بالكويت سنة ١٩٧٢ م .

٧- حقق الجزء الثامن عشر من كتاب تاج العروس للزبيدي ، وطبع بالكويت سنة ١٩٧٩ م .

٨- حقق الجزء العشرين من كتاب تاج العروس للزبيدي ، وطبع بالكويت سنة ١٩٨٣ م .

٩- حقق الجزء السادس والعشرين من كتاب تاج العروس للزبيدي ، تحت الطبع .

١٠- حقق الجزء الثاني والثلاثين من كتاب تاج العروس للزبيدي ، تحت الطبع .

١١- حقق الجزء السادس والثلاثين من كتاب تاج العروس للزبيدي ، تحت الطبع .

١٢- حقق الجزء الخامس عشر من كتاب تاج العروس للزبيدي بالاشتراك ط ١٩٧٥ م .

١٣- حقق فعل وأفعل للأصمعي لأول مرة - طبع في مجلة البحث العلمي في مكة المكرمة .

١٤- حقق الجزء الثامن عشر من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط بالقاهرة ١٩٧٠ م .

١٥- حقق الجزء التاسع عشر من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط بالقاهرة ١٩٧٢ م .

١٦- حقق الجزء الحادي والعشرين من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بالاشتراك ، ط بالقاهرة ١٩٧٣ م .

١٧- حقق الجزء الثاني والعشرين من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، بالاشتراك ، ط. بالقاهرة ١٩٧٣ م .

١٨- حقق الجزء الرابع والعشرين من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، بالاشتراك ، ط. بالقاهرة ١٩٧٤ م .

١٩- حقق كتاب الناسخ والمنسوخ من الحديث لابن الجوزي لأول مرة ، ونشر في مجلة البحث العلمي .

٢٠- حقق الجزء الرابع من كتاب « سبل الهدى والرشاد » للصالحى بالاشتراك ط ١٩٧٩ م .

٢١- حقق « كتاب الموجز » في الطب لعلاء الدين بن الحزم القرشي المعروف بابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ) .

وقد راجعه الدكتور أحمد عمار
النائب السابق لرئيس المجمع . ط.
بالقاهرة ١٩٨٦ م .

ومن نشاطه العلمى مراجعته
الجزأين : العشرين والثالث والعشرين
من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى
بالاشتراك ، وقد طبعا بالقاهرة ١٩٧٢ ،
١٩٧٤ م .

ولم يقتصر نشاطه العلمى على عمله
السابق ، بل امتد إلى جامعة أم القرى
فاختير فى عام ست وسبعين وتسعمائة
وألف ليشارك فى تأسيس مركز البحث
العلمى وإحياء التراث هناك . وقد قام فى
هذا المركز بمراجعة كثير من الكتب
والأبحاث التى تقدم بها أصحابها لتنشر
تحت مظلة هذا المركز ، ومنها :

١- كتاب « تحقیقات وتنبيهات فى معجم
لسان العرب » للأستاذ عبد السلام
هارون .

٢- كتاب « المختصر فى تفسير أبيات
المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى »
للإمام أبى المرشد سليمان بن على

المعرى المتوفى أوائل القرن السادس
الهجرى تحقيق الدكتورين : محسن
فياض ، ومجاهد الصواف .

٣- كتاب « المساعد على تسهيل الفوائد ،
وتكميل المقاصد » للإمام ابن عقيل .
تحقيق الدكتور محمد كامل بركات .

٤- كتاب « تبصرة المبتدى وتذكرة
المنتهى » لأبى محمد عبد الله بن
إسحاق الصيمرى من نهاية القرن
الرابع بتحقيق الدكتور فتحى أحمد
مصطفى .

٥- كتاب « منال الطالب فى شرح طوال
الغرائب » لابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) .
تحقيق الدكتور محمود الطناحى .

وهناك أبحاث ومقالات علمية قام
بمراجعتها ، وأجاز نشرها فى مجلة
المركز ، منها :

أ- توثيق الشواهد المرسلة فى
أساس البلاغة للزمخشري .
للدكتور محمد نبيه حجاب (نشر
فى حلقات) .

ب- بحث عن جمهرة اللغة لابن دريد
للدكتور محمد كامل بركات .

ج- بحث للتنبيه على خطأ الغريبيين
للحافظ أبي الفضل بن ناصر .
للدكتور محمود الطناحي .

ء - نظرية النحو القرآني . للدكتور
أحمد مكي الأنصاري .

ومما هو معلوم بالضرورة أن قراءة
كتاب أو بحث أو مقال من أجل الحكم له
أو الحكم عليه أمر ذو بال ، إذ إن
المتصدى له يوضع على رأس منصة
القضاء ، ليصدر الحكم العادل الذي
يرضى الله عنه ، ولا شك أن إصدار
الحكم العادل الذي يرضى الله عنه
محتاج إلى سعة المعرفة وبقظة الضمير
وموضوعية النظرة والتجرد عن هوى
النفس الأمارة بالسوء . وأحسب أن هذه
الصفات قد اجتمعت في الزميل الجديد ،
شهد له بذلك أولئك الذين وضعوه
مختارين في موضع القاضى يصدر
القرار ، كما شهد له به عمله العلمى
الغزير تحت مظلة التحقيق .

السيد الرئيس ، السيدات والسادة :

لا تعجبوا من أن يكون النشاط

العلمى للزميل الجديد مقصوداً على
التحقيق والمراجعة والتحكيم . فإن مركب
هذه الأمور الثلاثة صعب عسير ، ولا
يتصدى لها إلا ذو الأفق العلمى الواسع
وصاحب الخبرة العريضة والأمين صاحب
الضمير المتيقظ ، ومن تمكن منها وقدر
عليها كان على غيرها من التأليف أقدر .
وكم من الكلمات وقف أمامها
المحقق ، أو استوقفته مستعصية متأبية
واحتاجت منه إلى الليالى والأيام
يستجاليها أو يستنطقها أو يتعرف
المقصود منها ، وقد يعيد النظر فى قراءة
الكلمة المستعصية ، ويقلبها على ما
تحتمل من وجوه ، وفى كل وجه ،
يستشير المراجع والمصادر ، وقد لا
تستجيب ، فيسأل أهل الذكر من طلاب
العلم ، وقد اعترف المحققون ببعض ما
يلقون من عناء ومشقة فى عملهم ، ولكن
ما خفى أعظم مما اعترفوا به . وقديماً
قال الجاحظ فى أول كتاب الحيوان :
"ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح
تصحيفاً أو كلمة ساقطة ، فيكون إنشاء
عشر ورقات من حر اللفظ وشريف

المعانى أُيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام " .

وقد كان لزميلنا الجديد قدم صدق وأثرة حسنة فى كل ما تحدثت عنه آنفاً وقد ضرب فيه بسهم وافر ، وظهرت تحقيقاته تشرق وتغرب وتؤتى ثمارها فى أصقاع شتى ، والتحقيق عمل علمى عظيم يحتاج صاحبه إلى الجهد الجاهد والأناة وشحذ الذهن والدقة واليقظة ، ومن عانى التأليف والتحقيق يعلم علم اليقين الفرق بين العاملين ، وإن كانا ذوى خطر عظيم .

ونحن - المجمعين قاطبة - نرحب بالعضو الجديد ، ونهنئه بالعضوية ، ونهنئ العضوية به ، ونستقبله ونتقبله قبولاً حسناً ، فمرحباً بك يا عبد الكريم ، حللت أهلاً ، ونزلت مكاناً سهلاً .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم، الذى أَلَفَ بين هذه القلوب على الحب لله وفى الله ، وجمعها على العمل ابتغاء وجهه - نسأله أن يشد أزرك ، ويشرح صدرك ، وأن يمدك بالقدرة على متابعة عملك العلمى الجليل ، وأن يؤيدك بروح من عنده ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير

أمين على السيد

عضو المجمع

كلمة

الأستاذ عبد الكريم العزباوى فى حفل استقباله عضواً بالمجمع

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على محمد رسول الله الأمين وخاتم
الأنبياء والمرسلين .

أستاذى الجليل رئيس المجمع :

أساتذتى وزملائى الأعضاء الأجلاء :

ما وجدت نفسى فى موقف العجز
كموقفى هذا أمامكم ؛ فإنى لا أجد من
عبارات الشكر ما يعبر عن عرفانى
وامتنانى لتشريفكم بانتخابى عضواً
عاملاً بمجمعنا العظيم ؛ وإنى فى موقفى
هذا كموقف الشاعر العربى القديم حين
يقول :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها

عقود مدح فما أرضى لكم كلمى
فإنه لشرف لى أى شرف وإكبار أى
إكبار عضويتى فى هذا المجمع الموقر ،
وهى تقتضىنى أن أضاعف الجهد وأبذل
غاية الطاقة لأساير ركبكم الجليل ، أيها

الشيوخ الأفذاذ ، فكل منكم حجة فى
بابه ، وإمام فى ميدانه ؛ فاللهم عونك
وتوفيقك ، ارزقنى العافية المواتية ،
والعزم المسعف ، والصبر والمثابرة ،
والعون والسداد ... إنك العليم الحكيم ،
القدير .

أيها السادة الأجلاء :

لقد أمضيت حياتى الوظيفية كلها
فى مجمع اللغة العربية ، حياة بلغت ستة
وثلاثين عاماً منذ أن تخرجت فى دار
العلوم إلى أن بلغت سن التقاعد عن
الوظيفة ... وأحمد الله سبحانه أن قدر
لى هذا التقدير ، فقد أتاح لى أن أشتغل
باللغة العربية طوال هذه السنين ،
وبخاصة فى تأليف المعاجم ، حيث بدأت
عملى فى تأليف « المعجم الوسيط » ،
حتى فرغنا منه بحمد الله .

ثم أخذنا فى تأليف « المعجم الكبير » ،
وواصلت العمل به منذ بدايته إلى الآن ؛

حتى جرى حبه في دمي ، وصار من أغلى أمنياتي أن أفرغ له جهدي ما بقي لي من العمر ... ولعلنا أعضاء وخبراء ومحررين ندفع إلى الأمام بهذا المعجم الفذ الجليل ؛ ليقطع أشواطاً بعيدة تتلاحق فيها أجزاءه ، دون توقف أو إبطاء ؛ حتى تتحقق للعربية حلمها الكبير بمعجمها الكبير .

وإني لأذكر في هذا المقام كلمات الأستاذ المرحوم على النجدي ناصف عضو المجمع الراحل حيث يقول :

" لقد علم المجمع علماً ليس بالظن أنه ليس من الأعمال الهيئة ، ولا المطالب اليسيرة أن يُؤلف معجماً كبيراً يجارى المعجمات الحديثة ، ويبلغ من الوفاء وكمال الإخراج مبلغه المأمول الذي يقتضيه انتسابه إليه ، ويرتقبه الناس منه " .

لقد علم أنه إذ يحاول ذلك ، إنما يحاول أمراً جسيماً ، لا سبيل إلى إدراكه إلا بالمعاناة الجاهدة ، والمصابرة الدائبة ، والكفاية الصالحة ... وإذا كان الترخص

في القول يطوِّع لبعض الناس أن يصفوا عملاً بأكبر من قدره ، أو يقوموه بأرفع من قيمته - فقد خار الله للمعجم الكبير أن يكون فوق كل وصف وتقويم . فهو المعجم الكبير حقاً في وصفه وواقعه ، يتلاقى فيه الوصف والواقع على خير ما يكون التلاقي تطابقاً وصدقاً .

ولو قال قائل عنه : إنه خزانة العربية، وجامع أشتاتها ، ومعرض لأنواع كثيرة من معارفها وثقافتها لا يبعد .

ولا يفوتني التنويه كذلك بإحياء تراثنا اللغوي وقد أتيح للمجمع إحياء جمهرة لا بأس بها من كتب التراث ، ووكل أمر تحقيقها والإشراف على مراجعتها إلى علماء موثوق بهم ، فظهر منها كتب من نفائس التراث اللغوي ، ولكن هذا ليس بكاف ؛ فإن من أهم أغراض المجمع نشر الوثائق والنصوص اللغوية والآثار التي خلفها أدباء العربية وعلمائها ومفكروها . وإذا كان المال قد وقف حجر عثرة بين المجمع وإحياء ما

ينبغي إحياءه من المعاجم وكتب اللغة ،
فإن أملنا كبير في أن يتهياً للمجمع ما
يحتاجه من المال ليحقق الأمل في إحياء
عيون التراث اللغوي التي ما تزال دفيئة
هنا وهناك ، تنتظر من يحييها لتروى ظمأ
المتعطشين للبحث اللغوي العربي .

أيها السادة الأجلاء :

من التقاليد والأعراف الجمعية أن
يتحدث العضو الجديد عن سلفه الذي حل
محله ، وقد شرفت بأن أخلف عالماً جليلاً
هو الأستاذ الدكتور عبد العزيز السيد ،
عليه رحمة الله ورضوانه .

وإد عبد العزيز السيد سنة ١٩٠٧م
بقرية « طما شبرا » من أعمال مركز
قويسنا بمحافظة المنوفية ، من أسرة
وهبت حياتها لخدمة اللغة العربية ، فورث
حبها ، وتأثر بها ، وعلا أسلوبه فيها ،
استمع إليه وهو يعلل لذلك حيث يقول :

" إذا كانت الظروف لم تهين لي
شرف العمل في مجال اللغة العربية
والتخصص في علومها ، فلقد نشأت في
رحاب رجالها ، ولقد أورثتني هذه النشأة

عشقاً وحباً لهذه اللغة وتقديراً واحتراماً
وبراً بأهلها . فقد تعلم جدى لأبى في
الأزهر ، وتخرج والدى في دار العلوم ،
ثم مات والدى ، وكفلني خالى ، وكان
شيخاً من شيوخ اللغة العربية ، ومن
رجالها المعدودين ، فلزمت مجلسه ، وكان
يؤمّه صفوة ممتازة من أساتذة هذه
اللغة، ولا أخفى عليكم أن مجالسة هؤلاء
الرجال كانت بالنسبة لي مدرسة أفدت
منها فائدة لا تعد لها فائدة؛ إذ كان فيهم
الأديب الفحل ، واللغوي الضليع ،
والمتقف الذي يزهر بعلمه ، ويعتز
بكرامته، فكان الاستماع إليهم متعة
فتحت أمامي الطريق إلى تذوق اللغة ،
وعرفت كيف تبلغ الفكرة أوج جمالها ،
إذا اقترن جمال الأسلوب بجمال المعنى ،
ورأيت رأى العين أثر اللغة البالغ في
تكوين الثقافة ، والفكر ، والوجدان .
وأدركت بالشاهد الواقع أن المرء لا يبلغ
مداه في الإبانة عن كوامن نفسه ، وما
استودعه الله من مواهب إلا إذا دانت له
اللغة ، وطوعها تطويعاً ، وعرفت حينئذ
جلال اللغة العربية وغناها ودقتها

وجمالها ، وكيف تربط هذه اللغة - وقد أنزل الله بها قرآنه - بين أهلها برباط روحى متين ، تؤلف بين قلوبهم وتُوحّد فكرهم ومسعاهم " .

أتم الدكتور عبد العزيز السيد تعليمه الابتدائى بمدرسة العقادين ، ثم تعليمه الثانوى بمدرسة الزقازيق - وفى عام ١٩٢٤م التحق بالقسم العلمى من مدرسة المعلمين العليا ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٩م ، وفضل العمل بتدريس الرياضة على السفر إلى الخارج وقتذاك ، ولكنه سافر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة فلسفة التربية وأثرها فى منهج الرياضة ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة ولاية أوهايو سنة ١٩٤٨م . وعاد بعد ذلك للتدريس بكلية المعلمين ، ثم عمل أستاذاً بكلية التربية بجامعة عين شمس فوكيلاً لتلك الكلية ، وانتدب مديراً عاماً للتعليم الابتدائى ، ثم وكيلاً لجامعة القاهرة (فرع الخرطوم) . ثم مديراً لجامعة الإسكندرية . وعين وزيراً للتعليم العالى سنة ١٩٦١م وظل يشغل هذا المنصب إلى سنة ١٩٦٥م .

وكان له فى كل عمل تولى أمره جهودٌ مشهودةٌ وأثارٌ محمودة ، ما زالت تشهد له بالفضل والريادة ، فى كل هذه المجالات العلمية والتعليمية .

وقد انتخب عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦٥م فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الأستاذ الكبير عباس العقاد .

ولكن صلته بالمجمع ترجع إلى عدة أعوام قبل اختياره عضواً عاملاً ، فقد كان عضواً مراسلاً للمجمع ، كما كان رئيسه الأعلى بحكم منصبه وزيراً للتعليم العالى . وله كلمات استهل بها مؤتمرات المجمع فى دوراته الثلاث : التاسعة والعشرين ، والثلاثين ، والحادية والثلاثين وبعد انتخابه عضواً عاملاً بالمجمع أقر أن يتجه بنشاطه العلمى إلى ثلاث لجان : لجنة التربية وعلم النفس ، ولجنة الرياضة والهندسة ، ولجنة الألفاظ والأساليب ... ثم انضم أخيراً إلى « لجنة المعالجة الإلكترونية » وله فى كل هذه اللجان إسهام علمى عظيم ... كما كان له إسهام مشهود فى كل ما يعرض من أعمال

علمية على مجلس المجمع ومؤتمره طوال حياته الجمعية الجديدة .

ولقد كان الدكتور عبد العزيز السيد عظيم الاهتمام والعناية بالمصطلحات العلمية العربية ، ودعا إلى تعميم استعمالها وتوحيدها في البلدان العربية؛ حتى تكون للعرب جميعاً لغة علمية موحدة ، وقد تجلى ذلك في كلمته التي ألقاها في ندوة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية لتوحيد المصطلح القانوني في دمشق ممثلاً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حيث قال :

" كم يسعدني أن أشهد هذه الندوة باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي رحبت بعقدها كل الترحيب ؛ لأنها تعدُّ توحيد المصطلحات العربية أهم الأهداف التي تسعى لبلوغها ، حتى تكون للعرب جميعاً لغة علمية موحدة ، تعود بها إلى مقدمة اللغات الحية الكبرى ، حيث كانت - في القرون الوسطى - لغة العلم والحضارة ، تمثلت كل الثقافات ، وعبرت عن الفكر العربي والإسلامي في مختلف ميادين العلوم والفنون والفلسفات ، وكان

المصطلح العربي سائداً في كل هذه الميادين طوال عدة قرون . وعن هذه اللغة ومصطلحاتها أخذت أوروبا علومها ، وكثيراً من جوانب فلسفتها حيث كانت تقف من الحضارة العربية والإسلامية ، موقف التلميذ من أستاذه .

وإذا كان يبدو أن المصطلح الغربي سائد الآن في لغة العلم والفن والثقافة فليس لنا أن نرمي لغتنا بالقصور أو الجمود - كما زعم ذلك بعض الزاعمين - لأن تاريخها المشرق الوضيء - حين كانت تحمل مشعل الثقافة - خير ما يرد به على هذا الاتهام الباطل المزعوم .

وإذا كنا نعمل اليوم على أن تكون السيادة للمصطلح العربي في مختلف مجالاتنا العلمية والثقافية ، فإنما نعيد له حقاً سليباً ، ونرد إليه مكانة كان يبيؤها من قبل .

والحق أن توحيد المصطلح العربي في بلدان العروبة يعد الأساس الأول في تعريب التعليم الجامعي ، كما يعد من أهم الدعائم في نهضتنا الحضارية ، ووحدتنا العربية الشاملة " .

رحم الله الأستاذ الجليل الدكتور عبد
العزیز السید رحمة واسعة وفسح له فی
جناته .

وأسأله تعالى أن يعیننی على أن
أكون جديراً بشرف عضوية هذا المجمع

الحبيب الذی عشت له شبابی وكهولتی ،
وأرجو أن يكون له من شیخوختی
عطاؤها من الخبرة والمعرفة والعمل
المحكم الرصین .

والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته .

عبد الکریم إبراهیم العزباوی

(ب) التآبين :

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأرباء ٢٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٨ م . أقام المجمع حفلاً لتآبين عضوه الراحل الدكتور محمد زكى شافعى - رحمه الله - وقد ألقى كلمة المجمع فى تآبين الفقيد . الدكتور أحمد السعيد سليمان عضو المجمع .

وفىما يلى نص الكلمات التى ألقىت فى الحفل :

افتتاح الجلسة
للدكتور إبراهيم مذكور
رئيس المجمع

نودع اليوم زميلاً كريماً وأخاً عزيزاً،
نودع المرحوم الدكتور محمد زكى
شافعى، قطب من أقطاب علم الاقتصاد
فى بلدنا هذا . أبى إلا أن يرحل عنا فى
عجلة ، وما سلم حتى ودع ، فقد حظينا
بزمالاته عام ١٩٨٦م ، وما نحن أولاء
نجتمع اليوم لنودعه فى عام ١٩٨٨م ،
وكم كنا نعول عليه كما عولنا على
اقتصادى آخر زميل له هو المرحوم
الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، وأشهدكم
أن مجمع اللغة العربية كان سعيداً كل

السعادة بهذين العلمين من أعلام
الاقتصاد ، وإذا كان عبد الحكيم قد
وضع اللبنة الأولى فى المصطلح العلمى
الاقتصادى ، فإننا كنا نعول على فقيد
اليوم أن يتابع الشوط وأن يستكمل ما
بدأه الزميل السابق ، ولكنه قضاء الله ولا
راد لقضائه ، تغمده الله برحمته وجزاه
عن أمته ووطنه خير الجزاء .

وسيقول كلمة المجمع فيه زميل كريم
هو الدكتور أحمد السعيد سليمان .
ويقول كلمة الأسرة الدكتور يوسف
رشيد .

كلمة الدكتور أحمد السعيد سليمان

فى تأبين المرحوم الدكتور محمد زكى شافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الرئيس :

السيدات والسادة :

لما نعى الناعى جهبذ الاقتصاد
وحجته المغفور له الدكتور محمد زكى
شافعى كنت أقاد إلى عيادة طبيب بمصر
الجديدة لأصور كليتى تصويراً ملوناً ،
وبلغ بى الحزن على الدكتور الشافعى
مداه ، فانسالت على - فوق ألم الكلى
الوديع - ذكريات المنايا فى الأهل وفى
الصحب ، فذكرت ولم أكن نسيت أخوى
الذين مضيا ، الأول فى أول يوم من سنة
ثمان وسبعين والآخر فى يناير من عامنا
هذا الذى لم ينته .

فلو أنها إحدى يدي رزئتُها

ولكن يدي بانَتْ على إثرها يدي

ورأيتنى من بعدهما وحيداً مفرداً ،

لا أخا لى ، فاستعجلتني عند ذاك بوادر

من دمع لم يفهمها من قادنى إلى طبيب
الأشعة .

ولم يكن لى بعد أخوى أهلون ألوذ
بهم إلا إخوة هذا المجمع مد الله فى
أعمارهم ، وحرسهم بعينه للغة كتابه
ورحم منهم من بلغ الميقات ، واستأثر الله
به . ولقد كانت بينى وبين الدكتور
الشافعى - رحمة الله - أصرة من المودة
لم يعرفها السادة الزملاء ، لقد حدثنى
رحمه الله وكان جارى فى مجلس المجمع
بأنه منصورى النشأة ، عاش زماناً فى
بيت بشارع البحر يعرف ببيت أبى
هنطش بجوار ورشة كانت تعرف بورشة
مردخ ، وما درى الدكتور الشافعى أى
حنين أهاج ، ولا أى شجن أفاض ، فهو
إنما حدثنى عن ملعب طفولتى وأول أرض
مسَّ جلدى ترابها ، ولكن هيهات لكل حى
ميعاد ، ولكل كون فساد ، وإن دنيانا هذه
التي شكلها الآباء ما زالت فى تخون

وتبدل . إنها لم تدع من تلك الملاعب التي جمعتني والدكتور الشافعي صغيرين لا يعرف أحدهما الآخر داراً ولا دياراً ، ولا أثراً نعرفه بوهم أو توهم .

لقد غالها صرفُ الزمان وجرّرتُ

على ساحتَيْهَا للخطوب ذُيُولُ

تخرج الدكتور الشافعي رحمه الله في القانون ، على طبقة الفحول من أساتذة كلية الحقوق ، وحصل على درجة الليسانس الممتازة سنة ١٩٤٢م ، ومضى رحمه الله يدرس ، فحصل على دبلوم القانون الخاص ، ودبلوم الاقتصاد في سنة ١٩٤٥م ، وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى أشخص إلى الولايات المتحدة ليدرس الاقتصاد في جامعة برستون ، فحصل من تلك الجامعة على درجتى الماجستير والدكتوراه ، وعاد إلى الوطن سنة ١٩٥٠م مدرّساً للاقتصاد بكلية الحقوق ، وبعد تسع سنين أنشئت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية على غير مثال سابق في عالمنا العربي كله . واحتيج إلى عميد يقيم

بنيانها العلمي ويضع لوائحها الدراسية ويشرف على إنشاء مكتبتها ، وعلى تنشئة من يتولون التدريس فيها من الملحقين بها من الطلاب ، وفتش المسئولون يوم ذاك عن علماء الاقتصاد وعجموا عيّدانهم ، فكان رحمه الله أقومهم عوداً ، وأحمدهم مختبراً ، وأقدرهم على النهوض بالعبء ، فنصب للعمادة وهو دون الأربعين ، فما زال بالكلية يرعاها ويوطد أركانها العلمية حتى جعلها إحدى كليات القمة في اصطلاح الناس واصطلاح الجامعة ، ولما بدأت حلقات الأزمة الاقتصادية تستحكم سنة ١٩٧٥ ، اختير رحمه الله وزيراً للاقتصاد ، فكان من أعرف وزراء الاقتصاد بعزل الأزمة ، وأطلبهم لأدوائها ثم أنه ترك الوزارة طاهراً كيوم دخلها ، ورجع إلى كليته فعكف على كتبه ، إن كان رحمه الله من القلائل الذين يؤثرون قراءة العلم وتحريره والمحاضرة فيه في مصر وخارجها بالعربية وبغيرها من اللغات على اقتعاد كرسي الوزارة ، وقد

أحصى له الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله في حفل استقباله في هذه القاعة في السادس عشر من أبريل سنة ست وثمانين خمسة عشر بحثاً بالعربية والإنجليزية ، ألقى بعضها في مؤتمرات دولية ، وللدكتور الشافعي عدا هذه البحوث سبعة كتب كبار منها كتاب في «التنمية الاقتصادية» في جزأين ، وتتناول الكتب الباقية النقود ، والبنوك ، والتعاون النقدي الدولي والعلاقات الاقتصادية الدولية ، وتجاوزت شهرة الدكتور الشافعي حدود الوطن العربي فعين خبيراً بقسم الشؤون الاقتصادية بالأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك من سنة ثلاث وخمسين إلى سنة ست وخمسين ، واختير أستاذاً زائراً بجامعة جرائر بالنمسا سنة تسع وستين ، وفي ذلك العام نفسه اختير نائباً للرئيس ومقرراً لمجموعة الخبراء التي شكلها مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية لدراسة التدابير الخاصة التي ينبغي اتخاذها لصالح البلاد الأقل تقدماً في جملة البلاد النامية ، وفي سنة إحدى

وسبعين كان أحد مجموعة الخبراء التي شكلها مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية وشارك في إعداد تقريرها عن التنمية والبيئة . وأما على مستوى العالم العربي فقد شغل منصب الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية للشئون الاقتصادية ، وقد استعانت به مصر في كثير من المؤتمرات الاقتصادية ، فكان عضواً وفد جمهورية مصر العربية لمؤتمر الجزائر لمجموعة السبعة والسبعين ، وانتخب مقررراً لإحدى لجانه الرئيسية . وكان كذلك عضواً في وفد مصر لمؤتمر التجارة والتنمية بنيودلهي وانتخب أيضاً مقررراً لإحدى لجانه الرئيسية . وكان عضواً في وفد مصر لمؤتمر التجارة والتنمية بجنيف ، وقد ولي رئاسة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع ، ثم كان من الحاصلين على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية ، فلما انتخب عضواً بالمجمع سنة ست وثمانين أخلص في عمله وبذل من ذات نفسه ، وأمد المجمع بنوع جديد من المصطلح الاقتصادي فيه من شمول

الفكر وعمق الفلسفة والتعرض لمشكلات
الخلائق أكثر مما فيه من حديث التكاليف
والشحن والمخازن .

ولقد اجتمع له رحمه الله من خصال
الخير ما إن بعضه ليكفل له عمراً ثانياً
من حسن الذكر ، وبحسبى أن أنوه فى
هذا المقام بخصلتين عرفتهما فيه ، كان
رحمه الله صوفى الروح عازفاً عن زخرف
الحياة ، متواضعاً تواضع السلف
الصالح ، لا يزهى بعلم وإن بلغ فيه
الغاية ، ولا يزدهيه منصب ، وإن كان
كرسى الوزارة ، وكان رحمه الله جليداً
صبوراً ، شجاع القلب ، لا يشكو بختاً
ولا يبيث شكواه . مرض مرضته الأخيرة

فكاد يميتها بالكتمان ، وكأنما أراد أن
يأخذ زينته للقاء الله ، فتحلى بالرضا
والاحتساب وحسن التسليم . ولم يدع
العلة تتراءى فى وجهه فما انقبضت
أساريره ولا ضاقت ابتسامته ، ولا قلت
حلاوة حديثه .

رفع الله درجاتك أيها الرجل العظيم
لقاء ما عانيت فصبرت ، ويعتك مع الذين
أنعم عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك
 رفيقا .

وشكراً لكم أيها السادة ، والسلام
عليكم رحمة الله وبركاته .

أحمد السعيد سليمان

عضو المجمع

(٣) كلمة الأسيرة

في تأييد الدكتور محمد زكي شافعي

للدكتور يوسف رشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور إبراهيم

مذكور رئيس مجمع الخالدين .

السادة الأعضاء

الضيوف الأعزاء

نيابة عن أسرة فقيدنا الكريم

الأستاذ الدكتور محمد زكي شافعي

عضو المجمع ، أتقدم إليكم بوافر الشكر،

وخالص الامتنان ، وبإلغ العرفان على

إقامتكم هذا الحفل لتأييد زميلكم المرحوم

الدكتور زكي شافعي ، وقد كان لكلماتكم

الطيبة الكريمة أبلغ الأثر في نفوس

أسرته مما خفف معه وقع المصاب فيه .

لقد كان المرحوم الدكتور زكي شافعي

فخوراً وسعيداً ومعتزاً بانتمائه إلى مجمع

الخالدين ، وكان يوم استقبالكم له في

هذا المكان في أسعد لحظات عمره ، وقد

رأيت في ذلك اليوم وهو في أوج الحب

وقمة سعادته وفخره ، وكان حرصه على

الحضور يوم الاثنين من كل أسبوع في

مجمعكم يمثل له متعة وسعادة بالغين ،

وكم كان تأثره بالغاً في الفترة التي

أقعه فيها المرض لعدم تمكنه من

المشاركة والحضور .

رحم الله فقيدنا الكريم وعوضنا

فيكم أنتم خيراً ، وأطال الله في أعماركم،

ومتعكم بالصحة والعافية ، وجزاكم عنا

خير الجزاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(٤) كلمة الختام
للدكتور إبراهيم مذكور
رئيس المجمع

وشكراً وعزاء خالصاً للأسرة
الكريمة ، وشكراً للسادة الذين حرصوا
على أن يواسوا المجمع فى مصابه .
وشكراً لكم جميعاً .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
ورُفعت الجلسة .

شكراً خالصاً للسيد المتكلمين،
ولست فى حاجة إلى أن أقول : إن هذه
الكلمات سجل من سجلات تاريخنا
الثقافى والفكرى ، نحرص على أن
نسجلها كي يفيد منها أبناء اليوم ، كما
يفيد بها أبناء المستقبل .

مطابع الدار الهندسية

